دراسات في تاريخ مصر
في عهد البطالمة

تأليف

دكتور ابراهيم نصحي

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)
١٩٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

- هذه بعض أبحاث فى تاريخ البطالمة سبق لى نشرها متفرقة ، ورأيت أنه قد يفيد الباحثين نشرها متجمعة بعد مراجعتها فى ضوء ما كشف عنه من الوثائق وما نشر من الأبحاث منذ ظهور أبحاثى لأول مرة ، ولاسيما أن الطبعة الثانية لكتابى « تاريخ مصر فى عصر البطالمة » قد تأخر ظهورها وربما تمر فترة غير قصيرة قبل أن يتيسر ذلك .

وفقنا الله جميعاً وسدد خطانا فى خدمة العلم والوطن ؟

فبراير سنة ١٩٥٩ — ابراهيم نصحى

فهرس

الإسكندرية

على بعد نحو من أربعين ميلا من نقراطيس فى الاتجاه الشمالى الغربى ، وعلى مسافة بضعة أميال غربى فرع النيل الكانوبى ، اختار الأسكندر البقعة التى شيدت عليها مدينة الأسكندرية ، وهى تقع على ذلك الشريط من اليابسة الذى يفصل البحر من بحيرة مريوط . ويبدو أن الأسكندر قد اختار هذه البقعة لجفافها وارتفاعها عن مستوى الدلتا وبعدها عن رواسب فرع النيل الكانوبى ، وسهولة وصول مياه الشرب إليها ، وقرب جزيرة فاروس[1] وبحيرة مريوط منها. فقد قدر الأسكندر أنه بمد جسر من الجزيرة إلى الشاطىء يمكن توفير مرفأين فى هذا المكان ، يستخدم أيهما تبعا لاتجاه هبوب الريح ، وأن البحيرة يمكن استخدامها مرفأ للمراكب الآتية من داخل البلاد عن طريق النيل[2] .

ولعل وجه الشبه بين موقع جزيرة فاروس تجاه شاطىء الدلتا وموقع صور[3] على جزيرة تجاه الشاطىء الأسيوى هو الذى لفت نظر الأسكندر[4] إلى ما يتوافر لموقع الإسكندرية من مميزات[5] فقرر على الفور إنشاءها دون تدبير سابق ، بدليل ماترويه المصادر القديمة عن عدم توافر كمية كافية من الجير لتعيين مواقع أسوار المدينة والاستعانة بالدقيق المخصص لمئونة الجنود لإتمام التخطيط مما اعتبر فألا سعيداً ينم عما ستصيبه المدينة من الرخاء والرفاهية[6] .

---

(١) كانت فاروس تقع شمالى الإسكندرية بنحو ميل ويبلغ طولها حوالى ثلاثة أميال ويقول هوميروس أنه كان يوجد بها مرفأ أمين (Bevan, p. 6) .

(2 Hogarth, Alex. in Eg., J. E. A., II, 1915, p .55; Jouguet, Mac. Imp. p. 278

(٣) كانت صورة تقع على جزيرة تجاه الشاطىء الأسيوى ومن أجل فتحها اضطر الأسكندر إلى تشييد جسر يربطها بالشاطىء فاصبحت جزءا متصلا باليابسة ونشأ عن إقامة هذا الجسر ميناءان مثل ماحدث فيما بعد فى الإسكندرية عندما ربط جسر الهپتاستاديوم جزيرة فاروس بالبر .

(4) Cf Van Groningen, Apropos de la fondation d'Alex., Aegyptus, 1925, pp. 200 m.

(5) Cf. Arrian. III, 1, 5; Curt., IV, 8, 1.

(6) Arrian. III,2.1 — 2; Plut. Alex. 26; Curt. IV, 8, 6; Amm. Marcellinus, XXII, 16, 7.

وما الذى حدا بالأسكندر إلى تأسيس الإسكندرية ؟ هل أراد أن يجعل هذه المدينة مقر إمبراطورية تتألف من عالم البحر الأبيض المتوسط ؟ نحن لا نستبعد على الإسكندر أى مشروعات إنشائية ، لكننا نستبعد أن يقصر إمبراطوريته على هذه الدائرة الضيقة ، فقد كان هدفه الاستيلاء على آسيا بل العالم[1] . أم هل فكر فى جعل الإسكندرية مقر إمبراطوريته العالمية ؟ ونحن نستبعد ذلك أيضا لأنه لو قصر إمبراطوريته على العالم الأغريقى والإمبراطورية الفارسية لكانت بابل بحكم موقعها أفضل من الإسكندرية للاضطلاع بهذه المهمة . ولو صح ما قيل من إنه كان يريد فتح الغرب أيضا [2] لاتجه بتفكيره إلى أثينا بحكم ماضيها ومكانتها وموقعها . أم هل أراد ، وقد حطم منذ فترة قصيرة مدينة صور التى كانت أكبر ميناء فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، أن ينشىء هنا ثغراً مقدونيا يخلف صور فى العالم التجارى [3] ؟ هذا محتمل ، ولا سيما أنه لم يكن لمصر ميناء جدير بأهميتها وغناها على شواطىء البحر الأبيض المتوسط وذلك بالرغم من أن علاقاتها بعالم بحر إيجه كانت فى ازدياد مطرد منذ عدة قرون خلت . ولا أدل على ذلك من أن الفراعنة قد تركوا منذ مدة طويلة عواصمهم القديمة فى الجنوب واتخذوا مقرهم فى الدلتا التى أصبحت قلب بلادهم النابض ، إلى حد أن الإسكندر لم ير ضرورة للذهاب إلى الحدود الجنوبية واكتفى بإرسال حامية صغيرة إلى الفنتين لتحمل إلى اهالى إقليم طيبة نبأ وصول عاهلهم الجديد [4] . وبعد ضم مصر إلى حظيرة الإمبراطورية المقدونية كان طبيعياً أن يزداد اتجاه نشاطها نحو بحر إيجه . ولعل هدف الإسكندر لم يكن اقتصادياً فحسب بل كان حربيا أيضا ، بأن يجعل من الإسكندرية قاعدة بحرية تدعم سيطرته على بحر إيجه وشرق البحر الأبيض المتوسط . ولعله أراد كذلك أن تكون مدينته الجديدة وقد قامت على أسس الحضارة الأغريقية منبعا يفيض بماء هذه الحضارة فينشر خصبها بين ربوع الشرق القديم .

---

(1) Jouguet, Nat. Eg., III. p. 4.

(2) cf. Diod. XVIII. 4; Tarn, J. H. S. 1921. pp. Iff.; 1939. pp. 124 ff.

(3) Bevan. p. 4; C. A. H. VI, p. 377.

(4) Jouguet, Mac. Imp., p. 29.

ويبين أن الإسكندرية كانت أول ميناء لمصر على مياه البحر الأبيض المتوسط العميقة ، لأن پلوزيون — إذا صح ما يرويه استرابون [١] — كانت تقع على فرع النيل البلوزى على مسافة أربعة كيلو مترات تقريبا من البحر . وقد كانت نقراطيس تبعد كثيراً عن البحر . أما كانوب ، التى كانت تعتبر ميناءها ، فلا يبعد أنها لم تكن أكثر من مأوى عند مصب النيل . (أنظر خريطة مصر فى عصر البطالمة) وإذا كانت پلوزيون قد احتفظت بمكانتها باعتبارها مفتاح مصر من ناحية الشرق — وترينا وثائق زينون أن جمار كها كانت عامرة فى القرن الثالث بما يتدفق عليها من واردات سوريا — فإن نقراطيس فقدت أهميتها تبعا لازدياد أهمية الإسكندرية التى جذبت إليها انظار الشرق والغرب معا وأصبحت تلعب دوراً كبيراً فى حياة مصر الإقتصادية لا باعتبارها عاصمتها فقط بل أيضا باعتبارها ميناءها الأولى . فقد كان تستقبل من الخارج ما تحتاج إليه البلاد فتوزعه عليها ، ويأتى إليها من كل أنحاء البلاد ما يزيد على حاجتها فتصدره إلى مختلف الأسواق الخارجية . ولم تكن الإسكندرية مركزاً تجاريا ممتازاً فحسب بل كانت أيضا مركزا صناعيا هاماً [٢] .

وسرعان ماغدت الإسكندرية أكبر مدينة أغريقية فى العالم تفوق فى اتساعها أكبر المدن القديمة : اثينا وكورنثا وسيراكوز [٣] . وقد غدت كذلك فى طليعة عواصم الحضارة الأغريقية واستمتعت بمكان الصدارة فى حلبة هذه الحضارة طوال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد ، فلا عجب أن خلعت اسمها على حضارة هذين القرنين .

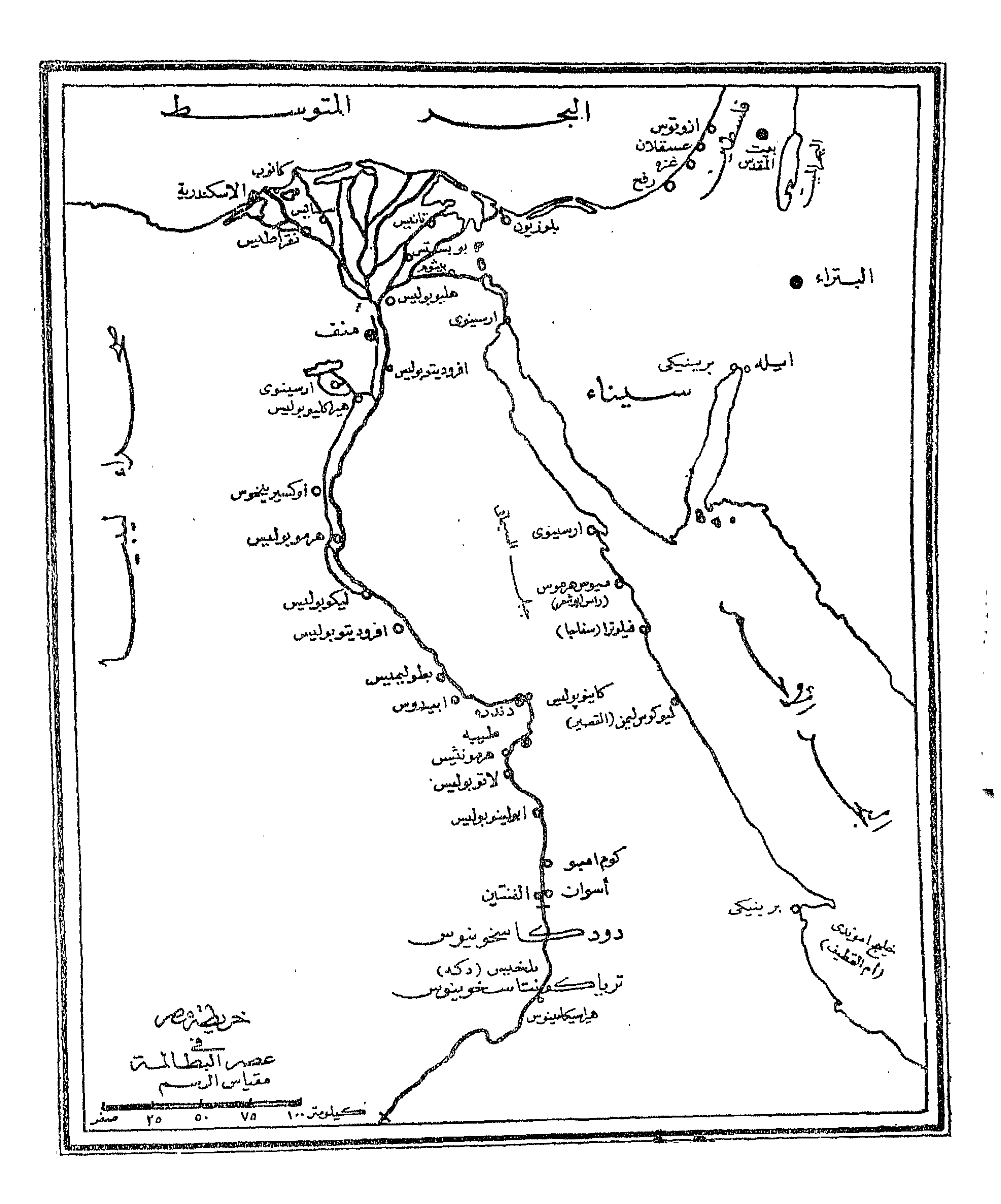
ويبدو مما يرويه استرابون أنه كانت تقوم فى البقعة التى شيدت الإسكندرية عليها قرية تدعى راكوتيس (Rhakotis) إذ يحدثنا بأن ملوك مصر السابقين كانوا قانعين بمنتجات بلادهم ولا يريدون استيراد شىء من الخارج ، ويكرهون الأجانب وخاصة الأغريق لما عرف عنهم من الجشع فى اغتصاب البلاد الأجنبية. ولذلك أقاموا فى هذه البقعة حامية عسكرية لصد الأجانب عن دخول البلاد وأنزلوا

---

(1) Strabo, XXI, 802.

(2) Jouguet, Trois Etudes, pp. 91 ff.

(3) Rostovtzeff, S. and E. Hist, of Hellenistic World, p. 415.



البحر المتوسط
كانوب
الاسكندرية
نقراطيس
تانيس
بلوزيون
بوبسطس
هليوبوليس
ارسينوى
منف
افروديتوبوليس
ارسينوى
هيراكليوبوليس
ازوتوس
عسقلان
غزة
رفح
بيت المقدس
البتراء
ايله
برينيكى
سيناء
أوكسيرينخوس
هرموبوليس
ليكوبوليس
افروديتوبوليس
بطوليميس
ابيدوس
كاينوبوليس
هرمونثيس
لاتوبوليس
ابولينوبوليس
كوم امبو
أسوان
الفنتاين
ارسينوى
ميوس هرموس
فيلوترا (سفاجا)
برينيكى
هيراسيكامينوس
خريطة مصر في عصر البطالمة
مقياس الرسم
كيلومتر ١٠٠ ٧٥ ٥٠ ٢٥ صفر

جنودهم فى القرية التى كانت تعرف باسم راكوتيس ، وأصبحت جزءاً من مدينة الإسكندرية وراء أحواض الميناء [١] . ونقرأ فى « قصة الإسكندرية » التى تعزى إلى كاليسثينيس أن البقعة التى شيدت الإسكندرية عليها كان يقوم عليها قديماً ست عشرة قرية مصرية كانت راكوتيس أكبرها [٢] .

وتدل الأبحاث الجيولوجية الحديثة على أن شاطىء الإسكندرية كان فى عصر ماقبل التاريخ يتألف من سلسلة من الجزائر الصغيرة ، تقع عند مدخل الخليج الذى أصبح فيما بعد بحيرة مريوط ، لكن ارتفاع سطح البحر بالتدريج وتراكم رمال الصحراء أديا على تعاقب الأجيال إلى ربط هذه الجزر بعضها ببعض وتحول الخليج إلى بحيرة . وبمضى الزمن طرأت تغييرات أخرى على أرض الإسكندرية ، فإن مستواها اليوم قد انخفض عما كان عليه فى عصر البطالمة والرومان مسافة تتراوح بين متر ومتر ونصف أو أكثر من ذلك . ويبدو أن هذا الانخفاض قد حدث بالتدريج ، إما نتيجة لهزات زلزالية عنيفة أو نتيجة لإحدى الظواهر الجيولوجية أو لارتفاع مستوى البحر . ويجب أن يلاحظ أيضاً أن مستوى المدينة القديمة أوطأ من مستوى المدينة الحديثة ببضعة أمتار لا بسبب هذا الهبوط فحسب بل بسبب مخلفات العصور المختلفة التى كونت طبقات فوق طبقات ، إذ أنه لكى نصل إلى مستوى المدينة فى العصر الرومانى يجب أن نحفر فى باطن الأرض ستة أو سبعة أمتار . ولذلك لا بد من أن اطلال المدينة البطلمية تقع على عمق أبعد من ذلك ، ومن ثم يرجح أن المياه تغمر كل طبقات ذلك العصر [٣] مما جعل مهمة علماء الآثار فى إعطائنا صورة كاملة لمدينة الإسكندرية القديمة مهمة عسيرة .

وقد كان يظن أن فاروس لم تكن وقت مجىء الإسكندرية أكثر من مأوى لبعض صيادى السمك المصريين ، وأن الإسكندر وخلفاءه من أفراد أسرة البطالمة هم الذين أنشأوا فى هذا المكان ميناء عظيما . لكن أبحاث جاستون چونديه « Gaston Jondet » أثارت مشكلة هامة ، فإنه كشف فى قاع البحر ، عند المكان

---

(1) Strabo, XVII, 792.

(2) Ps. - Callisthenes I. 32 (ed. C. Kroll).

(3) Breccia, Alex. ad Aeg., pp. 66, 67, Eng. Ed.

الذى كان يعرف قديماً باسم جزيرة فاروس ، عن بقايا أرصفة ومنشآت بحرية ضخمة. ولا يعرف اليوم هل كانت هذه الأطلال جزءاً من ميناء الإسكندرية فى العهد الإغريقى ، أو جزءاً من ميناء أقدم عهداً من ذلك ثم أهمل وعفا عليه الزمن قبل الفتح المقدونى . أما جونديه فإنه يميل إلى الاعتقاد بأن رمسيس الثانى هو الذى أنشأ الميناء المندثر ، ليحمى مصر من طغيان سكان البحار ، ويقول : « إن مواد البناء ضخمة ، كما هى الحال فى أبنية الفراعنة ، ولا بد من أن نقلها وإنشاءها كان أصعب من إقامة الأحجار التى تتألف منها الأهرامات الكبيرة » [١] . ويظن عالم آخر أن سيادة كريت البحرية ، فى خلال الألف عام الثانى قبل الميلاد، إمتدت حتى شملت فى وقت ما هذا الجزء من الشاطىء المصرى ، وأن هذه البقايا المطمورة فى الماء ترجع إلى ذلك العهد [٢] . وفى الواقع لا يمكن القطع برأى فى هذا الموضوع قبل أن تدرس هذه البقايا القديمة دراسة وافية .

وقد اهتم الكتاب القدماء بتفاصيل قصة تعيين مواقع أسوار المدينة أكثر من اهتمامهم باعطائنا معلومات دقيقة عن مقاييس الأسوار وأبعادها وشكلها ومواقعها . وقد انفرد تاكيتوس « Tacitus » [٣] من بين المؤرخين القدماء بأن عزا إنشاء الأسوار إلى بطلميوس الأول ، أما غيره من المؤرخين فإنهم لم يشيروا إلى الأسوار إلا إذا عرضت مناسبة للإشارة إلى أحد الحصارات التى عانتها المدينة . ولا سبيل إلى الشك فى أن أسوار الإسكندرية كانت أعظم من أسوار أى مدينة إغريقية أخرى ، فيما عدا سيراكوز وأثينا . وقد أثبتت الحوادث أنها كانت منيعة على الدوام ، فقد فشل أمامها أنطيوخوس الرابع ملك سوريا فى عامى ١٧٠ و ١٦٨ ق . م . وقضى دقلديانوس ثمانية أشهر للإستيلاء عليها فى عام ٢٩٥ــ٢٩٦ . ويكاد ينحصر كل ما نعرفه عن هذه الأسوار فى العهد الإغريقى فيما يلى :

---

(1) Gaston Jondet, Les Ports submergés de l'ancienne ile de Pharos (Memoires présentés à L'Inst. Eg., Vol. IX. Le Caire, 1916).

(2) Raymond Weill, Les Ports antihelleniques de la côte d'Alex. et l'emplre Crétois , Bull. Inst. Fr. Ar. O., 1916, XVI.

(3) Hist. IV, 88.

(أولا) أنه كان يحيط بالإسكندرية منذ تأسيسها أسوار يبلغ أقصى طولها حوالى ١٥ ك . م .

(ثانيا) حصنت هذه الأسوار بإقامة أبراج عليها فى مسافات متقاربة .

(ثالثا) كانت هذه الأسوار تتبع من الناحية الشمالية الشرقية مجرى الشاطىء حتى رأس لوخياس « Lochias » ، ثم تتجه نحو القناة المتفرعة من الفرع الكانوبى [1] .

ويحدثنا استرابون بأن المدينة كانت تبلغ (٣٠ ستاديا Stadia ومفردها Stadion = ٦١٠ قدم أو ١٨٥,٩ متر) فى الطول وسبعة أو ثمانية فى العرض [2] أما استفان البيزنطى فيروى أن طول المدينة كان ٣٤ ستاديا وعرضها ثمانية [3] .

ومن المعروف أن المدينــة الإغريقية كانت تتألف عادة من المدينة وإقليمها الزراعى ، لكن البعض يعتقد أن الإسكندرية لم تتألف إلا من المدينة وضواحيها ، وذلك لأن ما يعرف بإقليم الإسكندرية كان فى العهد الرومانى منفصلا عن المدينة ويكون مديرية على حدة تحت سيطرة قائد يقيم فى هرموبوليس بارفا «Hermopolis Parva » ، ويحتمل أن هذا النظام كان سائد فى عهد البطالمة أيضا [4] . وحتى إذا صح هذا الفرض ، فإنه لا يدل فى رأينا على أنه لم يكن للاسكندرية إقليم زراعى ، بل على أنه كان لها إقليم كبير إلى حد أنه كان يكون مديرية بأكملها . فى هذا أبلغ دلالة على عطف البطالمة وحدبهم على مواطنى عاصمتهم الإغريق . ويجب ألا نخلط بين إقليم الإسكندرية « Alexandreias chora » ، وبين ذلك الجزء من مديرية ليبيا الذى كان يطلق عليه أفوريسمنى « Aphorismene » وتخصص منتجاته للاسكندرية . ومما تجدر ملاحظته أن الإسكندرية كانت لا تعتبر جزءاً من مصر وإنما مجاورة لها ، على حد تعبير الإغريق والرومان الذين كانوا يدعونها الإسكندرية بجانب مصر « pros Aigypto أو kat, Aigypton [5] أو adAegyptum »

(1) Breccia, op. cit., p. 71.
(2) Strabo, XVII, 1, 8.
(3) Breccia. op. cit., p. 69.
(4) Jouguet, Vie, p. 8.
(5) Rostovtzeff, Soc. and. Ec., p. 415.

وقد كان يحتفل بعيد تأسيس الإسكندرية فى الخامس والعشرين من طوبة «Tybi» مما يدعو إلى الإعتقاد بأن حفل التأسيس أقيم حوالى ٢٠ يناير عام ٣٣١ ق . م (١) .

وكان المهندس الذى استخدمه الإسكندر لتخطيط المدينة يدعى دينوكراتس « Dinocrates » . وقد طبق هذا المهندس أفكار تخطيط المدن التى نشرها هيپوداموس « Hippodamos » من ميليتوس فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وطبقت فى إعادة تخطيط بيرايوس « Peiraos » ورودس وهاليكارناسوس (٢) . وأهم طابع لتخطيط الإسكندرية هو شوارعها التى تجرى فى خطوط مستقيمة من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ، حتى لتشبه لوحة الشطرنج . وقد شبه الأقدمون شكل رقعة المدينة بشكل عباءة الحرب المقدونية (٣) وكانت كجزء من دائرة يبلغ طوله ضعف عرضه تقريبا .

وإذا كان كليومينيس النقراطيسى هو أول من بدأ فى إقامة منشئات الإسكندرية وكان كل البطالمة تقريبا قد أسهموا فى تجميل هذه المدينة ، فلا سبيل إلى الشك فى أنه كان لبطليموس الأول الثانى أكبر نصيب فى ذلك . ويبدو أنها فى عهد بطلميوس الثانى كانت قد استكملت أهم مظاهرها التى اشتهرت بها فى عهد الإغريق والرومان. وكان بها شارعان رئيسيان يزيد عرض كل منهما على ثلاثين ياردة ، وتقوم على جانبيهما دهاليز أعمدة كانت تضاء ليلا (٤) . وكان أحد الشارعين الرئيسيين يمتد من باب كانوب (أبوقير) فى الشمال الشرقى إلى باب الغرب فى الجنوب الغربى . أما الآخر فكان يجرى من باب الشمس عند بحيرة مربوط فى الجنوب الشرقى إلى باب القمر عند أو شرقى الجسر الذى يربط الشاطىء بجزيرة فاروس . وقد كان هذا الشارع يتقاطع عند وسطه تقريبا فيما يظن مع الشارع الأول فيتألف فى ذلك المكان ميدان كبير (Mason Pedion) (٥) . وكانت بقية الشوارع بوجه عام تجرى موازية لهذين الشارعين الرئيسيين . وكان كثير من هذه الشوارع يسمح لمسير العجلات ،

(1) Bevan. p. 7; Jouguet, Ps. — Callisthene et la Fondation d' Alex., Bull, Inst. Eg, XXIV, 1942, pp. 159 - 74.

(2) Breccia' op. cit., p. 67.

(3) Plut., Alex. 5, 11; Strabo, loc. cit.

(4) Rostovtzeff, Soc. and. Ec., p. 417.

(5) Jouguet, Mac. Imp. p. 278; Parsons, The Alex.L ibrary. .p. 98'

وذلك على نقيض الشوارع الضيقة التى كانت توجد عادة فى المدن الأغريقية القديمة . ويبدو أنه عندما توفيت أرسينوى فيلادلفوس كان من بين ما فعله بطليموس الثانى لتخليد ذكراها أنه أعاد تسمية شوارع الإسكندرية أو على الأقل ما يمر منهـــا فى الحى الملكى وأطلق عليها اسم أرسينوى ، إذ تحفظ وثيقة بردية أسماء عدد من شوارع الإسكندرية يحمل كل منها اسم أرسينوى ، لكنه لتمييز بعضها عن بعض أضيف إلى إسم أرسينوى فى كل حالة لقب إحدى الآلهات الإغريقية التى شبهت بها . فقد أضيف إلى إسم أرسينوى الألقاب التالية باسيليا (Basileia) وكذلك تليا (Teleia) تشبها بهيرا ، واليوسنيا (Eleusinia) على غرار ديمتر ، وإليمون (Eleemon) مثل أوفروديتى فى قبرص ، وخالكيويكوس (Chalkioikos) كأثينا فى إسبرطه[1] . وكانت قوانين المدينـــة تقضى بأن يترك بين كل بيت وما يجاوره مسافة قدم واحد على الأقل ، إلا إذا تم الإتفاق على عكس ذلك بين الجارين ، اللذين كان يحق لهما إذا شاءا بناء جدار مشترك بين بيتيهما[2] .

وقد ربط جزيرة فاروس بشاطىء المدينة جسر أطلق عليه أسم الهبتاستاديون (Heptastadion) ، لأن طوله كان ٧ ستاديا أى حوالى ١٣٠٠ متر) فنشأ عن ذلك ميناءان أحدهما إلى الشرق ويدعى « الميناء الكبير » (Megas Limen) والآخر إلى الغرب ويدعى « أيونوستوس » (Eunostos) . ويظن أن هذا الاسم إما مأخوذ من اسم ملك سولى فى قبرص ، زوج ابنة بطليموس الأول ، أو لأن معنى هذا الاسم بالإغريقية « العودة السالمة »[3] . وكان هذان الميناءان يتصلان بواسطة ممرين فى جسر الهبتاستاديون عند طرفيه[4] . وقد خصص لاستعمال الملوك ميناء خاص يسمى « ميناء الملوك » ويقع على الشاطىء الجنوبى للميناء الكبير تجاه جزيرة أنتيرودوس (Antirrhodos)[5] ، الواقعة فى الجنوب الشرقى داخل

---

(1) P. Lond. inv. 2243 (252 B. C.); Bell, Archiv, VII, pp.22 ff:. J. E. A XII, 1926, p. 247; XIII, 1927, pp. 171 ff; Bevan pp. 91 - 92.

(2) P. Halensis, i, ll, 91 - 97; Partsch, Archiv, VI, p. 47; Bevan, p. 92.

(3) Bevan, p. 94.

(4) Jouguet, op. cit., p. 280

(5) Graindor. La Guerre d'Alex., p. 48.

الميناء الكبير . وكان يمتد من رأس لوخياس ، الذى يؤلف الجانب الشرقى للميناء الكبير ، لسان يحمى هذا الميناء من التيارات والرياح الشمالية . ولا يفصل هذا اللسان عن الصخرة التى تقوم عليها المنارة شرقى جزيره فاروس إلا مدخل ضيق للميناء الكبير .

وكان يقوم على رأس لوخياس (منطقة السلسلة الحديثة) معبد وجانب من القصور الملكية ، وكانت تمتد حتى تجاه جزيرة أنتيرودوس حيث كان يوجد المسرح ويليه معبد بوسيدون على نتوء داخل الميناء الكبير . وقد أضاف أنطونيوس إلى هذا النتوء جسراً شيد عند طرفه مسكنا منعزلا عـــرف باسم التيمونيوم (Timonium). وبعد ذلك كان يوجد معبد قيصر (Cesareum) الذى بدأت كليوباترة السابعة بناءه وأتمه الرومان بعد الفتح] والسوق والأرصفة والمستودعات .

ويبدو أن الأرصفة وما يجاورها من المستودعات « Apostaseis » كانت تكون قسما خاصا « Exhairesis » تفصله أسوار عن المدينة ، وكانت البضائع تنقل إلى هذا القسم دون فرض مكوس عليها . أما البضائع التى كانت تنقل من هناك إلى المدينـــة فقد كانت تجبى عنها المكوس المقررة (١) . والرأى السائد هو أن الترسانة الملكية كانت تقع داخل الميناء الكبير ، وإن كنا لا نستطيع قبول هذا الرأى ، لأنه فى خلال « حرب الإسكندرية » جر الإسكندريون من هذه الترسانة مراكب قديمة كانت متروكة هناك ، فلو كانت الترسانة تقع فى تلك المنطقة حقا ، لتعذر على الإسكندريين عمل ذلك لأننا نعرف أن قيصر كان يسيطر على الميناء الكبير طوال هذه الحرب . ولذلك لا بد من أن الترسانة كانت خارج نطاق الميناء الكبير ، وترجح أنها كانت فى ميناء إيونوستوس ، ولا سيما أن استرابون يشير إلى وجود ترسانة هناك (٢) . ولعلها كانت توجد بالقرب من الحوض الداخلى فى هذا الميناء ، الذى كان يعرف باسم الصندوق « Kibotos » .

وقد كان حى القصور الملكية « Broucheion » يطل على الميناء الكبير ويمتد

---

(1) Preisigke, Archiv, V, pp. 306 - 307; Wilcken, Chrest. no. 260.

(2) Graindor, p. 68.

فيما بين البحر وشارع كانوب ويشغل ربع مساحة المدينة أو ثلثها تقريبا ، ويكون الجانب الأكبر مما يعرف باسم المدينة الجديدة « Neapolis » فى الجزء الشمالى الشرقى من الإسكندرية ، حيث كانت تقوم أروع معالم العاصمة . فقد كانت توجد فى هذا الحى القصور والحدائق الملكية وحدائق الحيوان التى زينت بنافورات رائعة ، ودار العلم « Mouseion » ويظن أنه كان يتصل بها هيكل هوميروس — الذى شيده فيلوباتور — والمكتبة . وكانت توجد فى هذا الحى كذلك دار القضاء (Dekasterion) ، والجيمنازيوم ، وكان مقر الحياة الإجتماعية لمواطنى الإسكندرية المتمتعين بحقوق المواطنة ، وكان بناء رائعا له بهو أعمدة يمتد مسافة تزيد على ستاديون (ويظن أنه كان يوجد شمال شرقى الحى الذى يعرف اليوم باسم كوم الدكة) . وكان يوجد هناك أيضا البانيون (Paneion) وهو تل صناعى أقيم اجلالا للاله بان ، تشرف قمته على المدينة بأكملها وتحيط به حديقة (يظن أنه تل كوم الدكة) . وكانت توجد كذلك فى هذه المنطقة السما (Sema) وهى المعبد الجنائزى الذى دفن فيه الإسكندر داخل تابوت من الذهب (١) . وبمضى الزمن شيدت حول هذا المعبد معابد جنائزية أخرى للبطالمة المؤلهين ، فإن بطلميوس الثانى بدأ هذا العمل بتشييد معبد لأبويه ومعبد آخر ، فيما يظن ، لزوجه أرسينوس وليكون مثواه الأخير . أما مضمار سباق الخيل (Hippodromos) وميدان الألعاب (Stadium) فكانا يقعان فى أطراف المدينة ، أولهما فى الناحية الشرقية وثانيهما فى الناحية الجنوبية الغربية (٢) ، فى حى راكوتيس الذى أقيم على تل فيه معبد السيرابيوم ، حيث يوجد الآن العامود المعروف خطأ باسم (عامود بومبى) .

وشرقى جزيرة فاروس وعلى مقربة منها ، حيث توجد الآن قلعة قايد بك ، كانت توجد جزيرة صغيرة أقيمت عليها منارة الإسكندرية المشهورة ، التى كانت تعتبر إحدى عجائب العالم القديم . وإذا كان المهندس سوستراتوس من كنيدوس قد بدأ فى بنائها فى عهد بطلميوس الأول ، فإنه أتمها فى بداية عصر بطلميوس

(1) Strabo XVII, 1, 8; Breccia, p. 68; Rostovtzeff, S. and E, p. 419.

(2) Bevan, pp. 93 – 4

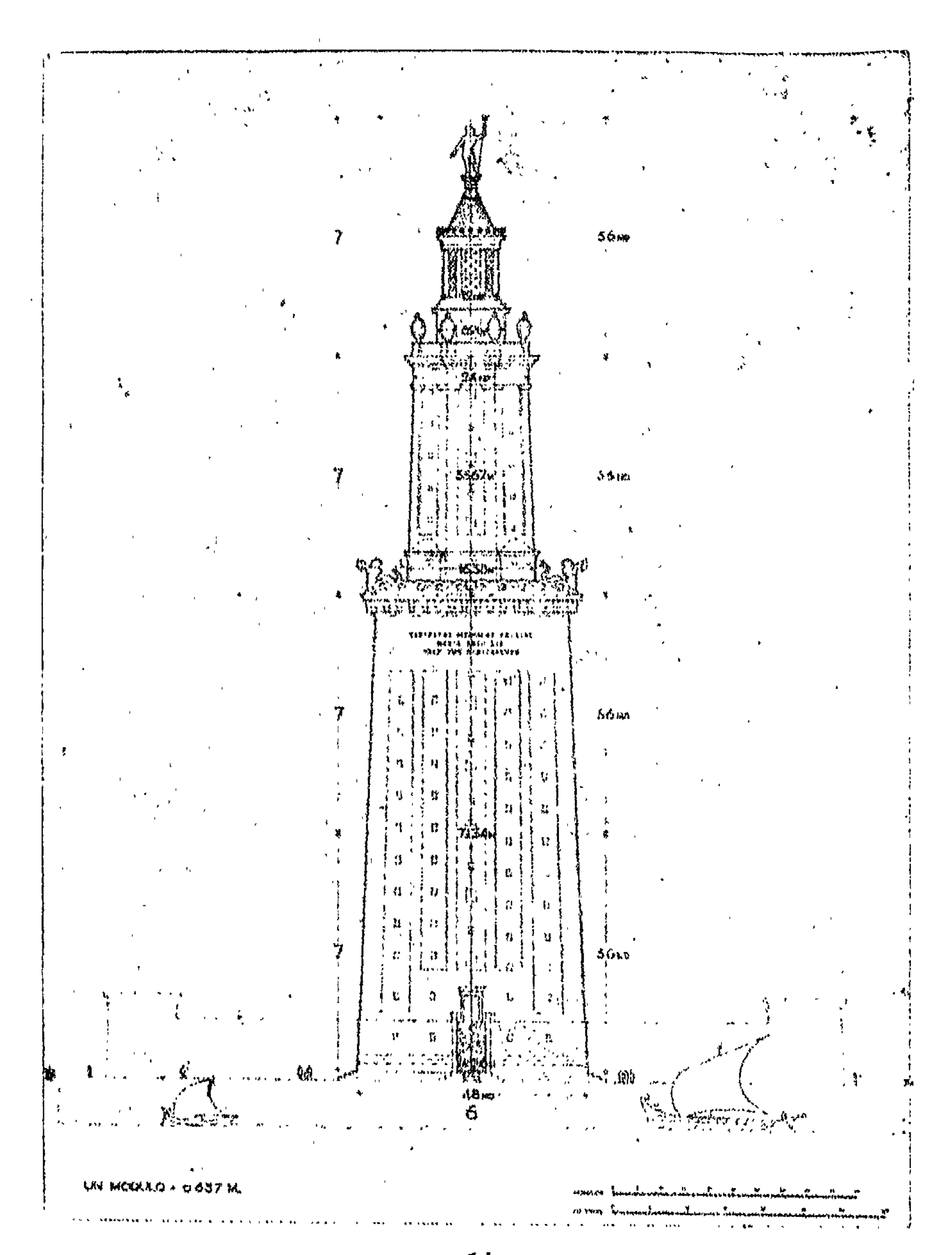
الثانى ، حوالى عام ٢٨٠ — ٢٧٩ ق . م . ولسوء الحظ أن معالم هذا البناء الضخم قد اندثرت تماما فى خلال القرن الرابع عشر ، لكن تيرش (Thiersch) حاول أن يصور لنا ما كانت عليه هذه المنارة بعد أن استعرض فى كتابه [1] كل ما يتعلق بها من مراجع العصور القديمة والعصور الوسطى ، وكذلك كل ما يتصل بكافة المنارات التى بنيت بعدها ويرجح أنها تأثرت بها . وقد توصل تيرش إلى نتائج تثير الإعجاب إذ يبين أنها شديدة القرب من الحقيقة برغم اعتماده فى الوصول إليها على معلومات غير مستمدة من وصف أشخاص رأوا المنارة بأنفسهم. ولحسن الحظ اهتدى حديثا إلى مصدر لم يكن معروفا لتيرش ، ويمتاز هذا المصدر على كل ما اعتمد عليه هذا العالم بأنه وصف دقيق واضح للمنارة قبل اندثارها .

أما هذا المصدر فهو كتاب وضعه معمارى من ملقا (Malaga) باسبانيا ، يدعى أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى المالكى الأندلسى المعروف بابن الشيخ ، كان يعيش بين ١١٣٢و١٢٠٧ م ونزل بالإسكندرية عامى ١١٦٥ و ١١٦٦ ، حيث وقف نفسه على البحث الأدبى ودراسة الآثار . ولما كانت لديه كفاية تؤهله لدراسة المبانى دراسة دقيقة ، فإن الباحثين يعلقون أهمية كبيرة على ما أدلى به من معلومات عن منارة الإسكندرية التى زارها ودون مقاييسها فى مذكرات ، استخدمها عند عودته إلى ملقا بعد عام ١١٦٦ فى وضع كتاب أطلق عليه « كتاب ألف باء » لتعليم ابنه « عبد الرحمن » . وقد نشر هذا الكتاب فى القاهرة فى عام ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) . وفى الجزء الثانى من هذا الكتاب (ص ص ٥٣٧و٥٣٨) نجد وصفا مفصلا لمنارة الإسكندرية ، إستخدمه بعض الباحثين الأسبان [2] فى إعطائنا صورة جديدة لشكل المنارة ، لعلها أدنى إلى الحقيقة من كل ما عرفناه عنها حتى الآن ، وذلك بفضل مقاييس (ابن الشيخ)وأمانة وصفه ودقة ملاحظته ، ولا سيما أنه كان بناء قادراً وراوية دقيقاً .

---

(1) Thiersch, Der Pharos, Antike, Islam und Occident, 1909,

(2) The Pharos of Alex., Summary of an Essay by Miguel De Asin, Communicated by The Duke of Alba, From the Proceedings of the British Academy, Vol, XIX.



منارة الأسكندرية

كما يمكن تصورها من وصف أبى الحجاج يوسف بن محمد البلوى المالكى الأندلسى المعروف بابن الشيخ

ويستخلص من هذه الدراسة أنه كان يربط جزيرة فاروس بالصخرة التي قامت عليها المنارة جسر مائل يرتفع رويداً رويداً من الجزيرة إلى صخرة المنارة ، ويقوم على ستة عشر قوساً ، ويبلغ طوله مائة باع (٦٨ متراً) تقريبا . وقد أقيم حول القسم الأول من المنارة ، لحمايتـه من طغيان البحر ، سور إرتفاعه ١٢ ذراعاً (٦٫٩٦) وسمكه عندقمته ١٢ ذراعاً . لـكن هذا السمك كان يزداد كلما هبط السور إلى قاعدته . ويبدو أنه كان يحيط بكل جوانب السور ، من الخارج ، إفريز لا نعرف عرضه . وفي الوسط داخل السور أقيمت المنارة نفسها ، وكانت تتألف من ثلاثة أقسام يعلوها المصباح .

وكان القسم الأول رباعي ، والثاني ثماني ، والثالث أسطواني الشكل ، وقاعدة القسمين الأول والثاني أكثر اتساعا من قمتهما . ويبلغ طول كل حائط ، عند القاعدة ، ٤٥ باعا (٦٠ر٣٠ متراً) في القسم الأول ، وعشرة إبوع (٨٠ر٦متراً) في القسم الثاني . ومعنى ذلك أن محيط قاعدة القسم الأول وقدره ١٨٠ باع (٤٠ر١١٣ متراً) يزيد بمائة باع (٦٨ متراً) على محيط قاعدة القسم وقدره ٨٠ باعا (٤٠ر٥٤ متراً) ويبلغ إرتفاع القسم الأول ٣١ قامة (٣٠ر٨١ متراً) ثم تعلو ذلك ، حول المشى الذي يحيط بالقسم الثاني ويبلغ عرضه ١٥ شبراً (٧٥ر٣متراً)، حائط كالستار طولها قامة واحدة (٣٠ر٢ مترا) ، وعرضها سبعة أو تسعة أشبار (٥٨٥ر١ متراً أو ٠٢٥ر٢ متراً) . ويبلغ إرتفاع القسم الثاني ١٥ قامة (٥٠ر٤٣ مترا) ، أي حوالي نصف ارتفاع القسم الأول، ثم تعلوه حائط كالستار يفصلها عن القسم الثالث ممشى عرضه تسعة أشبار ونصف شبر (١٣٧ر٢ مترا) . ويبلغ محيط القسم الثالث الأسطواني أربعين باعا (٢٠ر٢٧ متراً) ، أي نصف محيط القسم الثاني ، وارتفاعه أربع قامات (٢٠ر٩ مترا) ، أي ربع ارتفاع القسم الثاني تقريباً . وبعد الفتح العربي ، أقيم وسط سطح القسم الثالث ، مكان المصباح القديم ، جامع صغير كالقبة ، إرتفاعه ثلاث قامات (٩٠ر٦ متر) ومحيطه ٢٠ باعا (٦٠ر١٣مترا) ، وأمامه ستارة سمكها شبران (٤٥ر٠ متراً) ، وبينها وبين المسجد ممشى عرضه خمسة أشبار (١٢٥ر١ مترا) . ويتضح من كل ذلك أن ارتفاع المنارة كان يبلغ ٥٣ قامة

(٩٠ر١٢٠ متر) إبتداء من قاعدة القسم الأول ، هذا فيما عدا أساس البناء كله الذى يقدر بست قامات (٨٠ر١٣ مترا) ، فيكون ارتفاع البناء بأجمعه ٥٩ قامة (٧ر١٣٥ متر) .

وكان يقوم فى القسم الأول المربع ، بين محوره وجدرانه ، مرتقى حلزونى لادرج فيه ، وكان عرض هذا المرتقى سبعة أشبار (٥٧٥ر١ مترا) . أما فى القسمين الثانى والثالث فقد بنى سلمان يتألف أولهما من ٣٢ درجة ، وثانيهما من ١٨ درجة . ولم توجد غرف فى أقسام المنارة المختلفة إلا فى القسم الأول بسبب إتساعه . وقد كان بعض هذه الغرف إلى يمين المرتقى الحلزونى وبعضها إلى يساره ، لكنه لا يمكن الجزم بعدد الغرف فى كل من هذين الجانبين ، وإن كنا نعرف أنه على مسافة أربعين باعا (٢٠ر٢٧ مترا) من مدخل المنارة كانت توجد إلى اليسار غرفة تؤدى إلى قاع المنارة . وبعد ذلك بستين باعا (٨٠ر٤٠ مترا) كانت توجد إلى يمين المرتقى ويساره ١٨ غرفة ينفذ بعضها إلى بعض . وبعد ٦٠ باعا أخرى كانت توجد ١٤ غرفة ، وبعد ٢٤ باعا (٣٢ر١٦ مترا) كانت توجد ١٧ غرفة ، وبذلك يكون مجموع الغرف التى عددها « ابن الشيخ » ٥٠ غرفة . لكننى لاحظت أنه ختم وصفه بقوله إن عدد جميع الغرف كان ٦٨ ، فهل كان سبب ذلك أنه كانت توجد غرف أخرى أغفل ذكرها أول الأمر لكنه أدخلها فى المجموع ، أم أنه احتسب سهوا الثمانى عشرة غرفة الأولى مرتين ؟ هذا مالا يمكن الجزم به وإن كان الإحتمال الثانى يبدو معقولا .

ولم يذكر « ابن الشيخ » شيئا عن زخرفة المنارة الخارجية ولا عن المصباح ، لأن مر الأيام كان قد أتى عليها . ولذلك لا مفر من الاعتماد على ما ورد فى المراجع الأخرى وخاصة ما استخلصه منها تيرش ، ومجمله أن المنارة بنيت من الحجر وزخرفت بلوحات منحوتة من الرمر والبرونز ، وأن المصباح كان يتكون من ثمانية أعمدة تغطيها قبة أقيم عليها تمثال يبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار تقريبا ، يرجح أنه كان تمثال بوسيدون إله البحار . وكان النور الذى يستخدم لإرشاد الملاحين ينتج من

إحراق أخشاب صلبة فى المصباح ، الذى يظن أنه كانت به مرايات محدودبة ، مصنوعة من المعدن ، لترسل الضوء إلى مسافة بعيدة[(١)] .

وكانت المنارة تحمل ، على واجهتها الجنوبية ، نقشا هذا نصه : « سوستراتوس ابن دكسيفانس Dexiphanes من كنيدوس ، إلى الإلهين المنقذين (سوترس) باسم الملاحين» ، لكن من كان المقصود بالإلهين المنقذين ؟ أكان يراد بذلك بطلميوس الأول وزوجه برينيكى اللذين عرفا بهذا اللقب بعد تأليههما ، وهــذا طبيعى لأن بطليموس الأول هو الذى أمر ببنـــاء المنارة ؟ أم كان يراد بذلك الإلهين كاستور(Castor)وبولوكس(Pollux) إلهى الملاحين ، اللذين كانا يوصفان عادة على هذا النحو ؟ وهذا محتمل أيضا ، ولا سيما إذا كان النقش قد وضع قبل تأليه بطلميوس الأول وزوجه ؟ أم لعل هذا الغموض كان مقصوداً لـكى يجوز أن تنصب هذه العبارة على بطلميوس الأول وزوجه ، وكذلك على كاستور وبولوكس ؟ هذا أقرب الاحتمالات جميعا ، لـكن يبدو غريبا أنه سمح للمهندس بأن يهدى باسمه بناء هاما مثــل هذه المنارة . وقد قيل تفسيرا لذلك أن سوستراتوس حفر اسمه عميقا فى الصخر بحروف ضخمة ثم غطاه بطبقة رقيقة من الجبس تشبه الصخر فى المظهر ونقش عليها اسم بطلميوس ، على أمل أن يقع الجبس بعد وفاته فيزول اسم بطلميوس ويبقى اسمه[(٢)] .

وكانت تمد الإسكندرية بمياه الشرب قناة كبيرة تتفرع من النيل عند سخديا (Schedia = كوم الجيزة) ، على بعد حوالى ٢٧ ك . م من العاصمة ، وتتخذ مجرى يشبه كثيراً مجرى ترعة المحمودية . ويبين أن هذه القناة أقدم من الاسكندرية ، إذ تحدثنا « قصة الاسكندر » بأن راكوتيس والقرى المجاورة ، التى شيدت الاسكندرية عليها ، كانت تستمد مياهها من اثنتى عشرة قناة صغيرة تتفرع من قناة كبيرة ، وأنه عندما أسست الاسكندرية سدت هذه القنوات

---

(1) Cf. Breccia, Alex. ad Aeg., pp 106 - 8

(2) Bevan, p. 96.

جميعا فيما عدا اثنتين منها وشيدت فوق الباقى شوارع المدينـــة وميادينها[١].

وتدل المصادر القديمة والأبحاث الحديثة على أنه أنشىء تحت سطح أرض المدينة نظام دقيق من القنوات لإمداد المنازل بحاجتها من مياه الشرب التى كانت تأتيها على هذا النحو من القناة الـكبيرة . ويعزى إنشاء هـــذه القنوات إلى هيپونوموس (Hyponomos) الليبى[٢] .

وبالقرب من حجر النواتية (Petrae) ، كانت القناة الـكبيرة تتفرع فرعين يسير أحدهما فى محاذاة الشاطىء إلى « أبو قير » بينما يتجه الآخر نحو الاسكندرية . ويرى أغلب العلماء أن هذا الفرع كان يلف حول العاصمة من الجنوب ويصب فى ميناء ايونوستوس عند « الصندوق » ، لـكن برتشيا يخالف هذا الرأى ويعتقد أنه كان طبيعياً أن تصب القناة فى « الميناء الـكبير » لأنه كان أهم من الميناء الآخر[٣] . ونحن لا نستطيع قبول رأى برتشيا لسببين (وأحدهما) أن استرابون يحدثنا بأن قناة صالحة للملاحة كانت تصل « الصندوق » ببحيرة مريوط (والآخر) لو كان رأى برتشيا صحيحاً ، لمدت القناة بالمياه الحى الملـكى الذى تحصن فيه قيصر خلال « حرب الاسكندرية » ، ولما اضطر قيصر إلى أن يعمل على مد تحصيناته جنوباً نحو البحيرة ليضمن الحصول على مياه الشرب . ولذلك نرجح أن القناة كانت تدور حول العاصمة من الجنوب وتصب فى الناحية الشرقية من خليج بحيرة مريوط ، الذى شيد عليه ميناء البحيرة وكان يتوغل فى داخل العاصمة مسافة كبيرة حتى شارع كانوب بالقرب من منتصفه فيشطر المدينة شطرين ، ثم كانت القناة تخرج من ضفة الخليج الغربية وتمتد حتى الصندوق[٤] . وبعد إنشاء جسر الهپتاستاديون وميناء البحيرة أصبح للاسكندرية ثلاثة موانى : اثنان منها على البحر الأبيض المتوسط ، حيث كانت ترسو المراكب القادمة من هذا البحر ، والثالث على بحيرة مريوط حيث كانت تحتشد المراكب القادمة من داخل مصر ، وتحمل منتجاتها وكذلك منتجات الشرق الأقصى .

(1) Ps. — Callisthenes, I, 31 — 32.

(2) Ps. — Callisthenes, I, 31; Caesar, Bell. Alex. V; cf. P. - W. Real. Encycl. col. 1382; Bervo, das Alexanderreich II S.V. Krates; Breccia, p. 80; Bevan p. 92.

(3) Breccia, p. 78.

(4) Graindor, pp. 65, 66; cf. Weigall, Life and Times of Cleop. p. 38.

وكانت توجد خارج أسوار الإسكندرية مدينتان للموتى ، إحداها فى الشرق والأخرى فى الغرب . وكان يوجد فى الشرق أيضاً ، على طول القناة ، ضاحية إليوسيس (Eleusis) (بالقرب من بحيرة الحضرة) حيث أنشأ بطلميوس الثانى عبادة للالهة ديمتر ، تشبه فى بعض مظاهرها عبادة هذه الآلهة فى إليوسيس بأتيكا . وكانت توجد كذلك على ضفة هذه القناة ، فيما بين الإسكندرية وأبو قير ، قصور وحدائق أغنياء الإسكندريين . وقد أصبحت كانوب (أبو قير) ، تلك المدينة المصرية القديمة ، مكاناً مختاراً لمباهج الإسكندريين . ويصف لنا استرابون المظاهر الصاخبة التى كانت تشاهد على المراكب المتنقلة آناء الليل وأطراف النهار فى هذه القناة ، بين الإسكندرية وكانوب[١] .

ولما كانت الإسكندرية ثغراً تجاريا عظيماً ومدينة صناعية كبيرة ، وذلك فضلا عن كونها عاصمة دولة كبيرة ، فإن سكانها لم يتألفوا منذ نشأتها من الأغريق والمقدونيين وحدهم ، بل سرعان ماغدوا خليطاً من مختلف الأمم . فقد عرفنا كيف أنها أنشئت فى بقعة كان يشغل جانباً منها عدد من القرى المصرية أو على الأقل قرية مصرية واحدة تدعى راكوتيس .

ويضاف إلى ذلك أن عدد المصريين هناك ازداد نتيجة لنقل سكان مدينة كانوب إلى الإسكندرية عندما كان كليومينيس الحاكم بأمره فى وادى النيل[٢] . وإلى جانب أولئك المصريين المستقرين هناك يبين أن الإسكندرية كانت تجتذب إليها الكثيرين من مواطنيهم ، مما حدا بفيلادلفوس إلى أن يحظر على المصريين الوافدين عليها من الريف أن يطيلوا إقامتهم فى العاصمة[٣] .

وتصور لنا أشعـــار ثيوكريتوس [٤] كيف كانت تتجاوب فى شوارع الاسكندرية فى أثناء حفلات البطولميايا أصداء مختلف اللهجات الأغريقية ، فقد

(1) Strabo, XVII, I, 16 - 17. (2) Ps - Arist., Oecon., 2, 33.

(3) Ps. - Aristeas, ad Philoc. Epist,, 109 - 111.

(4) Theocr., XV. 83, 93.

كانت الوفود الرسمية (theores) تحج إلى الاسكندرية في هذه المناسبات من كل أنحاء العالم الأغريقي لأنها كانت تعتبر في مرتبة الألعاب الأولمبية . وترينا الآنية الجنائزية التي تضم رماد جثث المبعوثين الرسميين أن بعضهم قد توفي في أثناء أداء واجبهم الرسمي[١] . ويرجح جوجيه أن شوارع الإسكندرية كانت لا تطن بكل اللهجات الأغريقية فحسب بل أيضاً بكل اللهجات الأفريقية والأسيوية[٢] . ويذهب برتشيا إلى أن سكان الاسكندرية في عصر البطالمة كانوا يتكونون من مثيل العناصر التي كانت تعيش فيها في خلال القرن الرابع للميلاد ، إذ يحدثنا خريسوستوموس (Chrysostomos) بأن أفواجاً من « الإغريق والإيطاليين والسوريين والليبيين والكيليكيين والأثيوبيين والعرب والبكتريين والسكيثيين (Scythians) والهنود والفرس كانت تتدفق على هذه المدينة » ، التي وصفها استرابون بأنها « خزان عام » ، وقال عنها فيلون إنها « عدة مدن داخل مدينة واحدة[٣] » .

ويقول ديودوروس ، إستناداً إلى قوائم السكان الرسمية في عام ٦٠ ق.م ، إن عدد المواطنين الأحرار في الاسكندرية كان يبلغ ٣٠٠٫٠٠٠ نسمة[٤] . لكن لاشك في أن عدد سكان هذه المدينة كان يزيد كثيراً على ذلك ، لأن المصريين واليهود والعبيد وكذلك كثيرين من الإغريق وأشباههم كانوا يعتبرون خارج هيئة المواطنين . ويستبعد أنه كان يوجد تزاوج بين الاغريق والمصريين في الاسكندرية ، إذ يرجح أن هذا التزواج كان يعتبر غير شرعي في الإسكندرية وبطوليميس مثل ما كان في نقراطيس[٥] .

ويصف پوليبيوس وفيلون الإسكندريين بأنهم شعب يسري في عروقه

(1) Breccia, pp. 222-3, figs. 113-6.

(2) Jouguet, Trois Etudes, p. 110.

(3) Breccia, pp. 31 - 32; cf. Theoc., Adoniazusae

(4) Breccia, p. 32.

(5) Bevan, p. 98.

دم خليط (Migades) ، لكن يبدو أن المقصود بذلك أن هيئة المواطنين الإسكندريين كانت تتألف من خليط من كافة الإغريق ، أى من الأيونيين والدوريين والأيوليين ، ومن الإغريق القادمين من بلاد الاغريق الأصلية ، وكذلك من المدن الاغريقية التى أنشئت خارج تلك البلاد[١].

ويقول پوليبيوس إن سكان الاسكندرية كانوا يتألفون من العناصر التالية : (١) المصريين ، وكانوا حاضرى البديهة ويميلون إلى الحياة الرتيبة (٢) الجنود المرتزقة ، وكانوا لا يخضعون لأحد ويميلون إلى فرض إرادتهم على الحكومة (٣) « الاسكندريين » ، وقد أظهروا شيئاً من الميل إلى الخروج على قواعد النظام ، لكنهم كانوا أهدأ من الجنود لأنهم وإن كانوا عنصراً خليطاً ، إلا أنهم كانوا أغريقا فى الأصل ، ولم ينسوا سبل الحياة الاغريقية العامة[٢]. ولاشك فى أن هذا التقسيم لم يكن صحيحاً ، وليس إلا وليد تصورات زائر إلى تلك المدينة حوالى عام ١٠٠ ق . م ، لأن پوليبيوس لم يذكر شيئا عن الفرق النظامية ولا اليهود . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن الفرق المرتزقة التى أحضرها البطالمة من الخارج كانت إذ ذاك أبرز العناصر الحربية فى مصر . ويحتمل أن مظهر اليهود الاغريقى فى لغتهم وزيهم جعل من العسير التفرقة بينهم وبين الاغريق . ويبدو أن پوليبيوس قد أطلق كذلك عبارة «الاسكندريين» على كل سكان المدينة من الاغريق سواء من كان منهم من فئة المواطنين أم لم يكن[٣].

إنه يتعذر علينا إقتفاء أثر التطورات التى مرت بتكوين السكان فى الاسكندرية لكننا نستطيع الجزم بأمرين : وأحدهما أنهم كانوا مجموعة جاليات من أجناس مختلفة . وإذا كان بعض هذه الجاليات تستمتع بقدر من الاستقلال الذاتى ومن

---

(1) Lumbroso, Archiv, V. p. 400.

(2) Strabo, XVII. 2. 12. (3) Bevan, pp. 100 - 101.

ثم يمكن اعتبارها جمعيات قومية (Politeumata) فإن ذلك لم يكن حال كل الجاليات ولا سيما الجالية المصرية[١] . والأمر الآخر أنهم كانوا دائما ينقسمون طبقات كانت أهمها :

أولا — طبقة المواطنين الكاملين (astoi) أو الاسكندريين (Alexndreis)، ويدل قانون الحرية الشخصية الوارد فى إحدى البرديات المشهورة[٢] على أن كلمة « إسكندرى » كانت مرادفة لكلمة مواطن (astos) ، وعلى أنه كان يمكن استخدام إحدى هاتين الكلمتين بدلا من الأخرى . فقد جاء فى هذا القانون « لا يجوز أن يكون إسكندرى عبداً لإسكندرى آخر ، ولا إسكندرّية أَمَةً لمواطن أو مواطنة من الإسكندرية » . وهذا النص نفسه يدل أيضاً على أنه لا مجال للزعم بوجود فارق بين « مواطنة » (aste) و « اسكندرية » (Alexandris)[٣] .

وقد كانت هذه الطبقة تتألف من أفراد أقدم الأسر الإغريقية وأعظمها شأناً ، وكانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة ، أى بالحقوق الخاصة مثل التزاوج مع المواطنين الإغريق (Epigamia) ، وامتلاك الأراضى فى المدن الإغريقية (Ges enktesis) وبالحقوق السياسية وبعض الإمتيازات الدينية . فقد كان يختار منهم أغلب الموظفين والكهنة[٤] ، هذا إلى جانب ما كانوا يتمتعون به من الامتيازات الهامة كالإعفاء من بعض الضرائب ومن أعمال السخرة . ومنذ عهد بطلميوس الأول كان هؤلاء المواطنون ، مثل مواطنى أثينا وغيرها من المدن الإغريقية ، ينقسمون إلى قبائل (Phylai) وأحياء (Demes) وكذلك إلى وحدات (Phratries)، كانت عبارة عن جماعات دينية لإقامة طقوس العبادة الأغريقية[٥] . وكان كهنة هذه الوحدات يؤلفون هيئة (hierothytai) يعقد المواطنون زواجهم أمامها[٦] . وكان كل مواطن

(1) Jouguet, Trois Etudes, p. 111.

(2) P. Halensis VIII, ll. 219 - 221, pp. 92, 124. 163.

(3) Braunstein, Die polit. Wirksamkseit der griech. Frau, Leipzig, 1911, p. 16

(4) Breccia, in B. S. R. A. A, 10, 1908, pp. 176 ff.; Perdrizet, Le fragmént de Satyros, B, S. R. A. A, 12, 1910, p. 56.

(5) P. Hib. 28 — Wilcken, Chrest. 25; Grundzüge 16.

(6) Wolff, Written and Unwritten Marriages, pp. 38 - 39.

يضيف إلى اسمه اسم الحى الذى سجل فيه . أما السيدات اللائى ينتمين بمولدهن إلى هذه الطبقة فإنهن كن لا يضفن إلى اسمهن اسم حيهن ، لكنهن كن يدعين اسكندريات (Alexandrides) أو مواطنات (Astai) . وعند بلوغ المواطن الرابعة عشرة من عمره كان يسجل فى أحد الأحياء[١] ويدمج فى جماعات الشبان (Ephebeia) ، فقد كانت هذه السن تعتبر فى العالم الإغريقى سن الرشد السياسى . ونحن لا نعرف شيئا عن جماعات الشبان فى مصر البطلمية ، لكن يحتمل أن الغرض منها كان فى الإسكندرية وبطوليميس ، مثل ما كان فى المدن الإغريقية الأخرى ، نوعا من التدريب العسكرى أو على الأقل الرياضى للشبان ، عندما يحين وقت تمتعهم بالحقوق السياسية . وينهض هذا إذن دليلا على أن تسجيل المواطن فى أحد الأحياء كان يؤيد تمتعه بحقوق المواطنة [٢] ، ولا سيما أننا نعرف أن الإمبراطور كلاوديوس أكد لأفراد « جماعات الشبان » الإسكندريين حقوقهم[٣].

وفى وثيقة بردية ، عثر عليها فى هيبه (Hibeh) [٤] وترجع إلى القرن الثالث ق . م ، نجد أنه فى مدينة ما ، لا بد من أنها كانت الإسكندرية أو بطوليميس ، كانت توجد خمس قبائل فى كل منها إثنى عشر حيا . ولا نعرف من أسماء قبائل الاسكندرية سوى اثنين ، وهما : قبيلة ديونيسياس (Dionysias)[٥] وقبيلة بطوليميس (Ptolemais)[٦]. ويحدثنا نص قديم بأن بطلميوس الرابع أعطى مكان الصدارة بين قبائل الاسكندرية جميعاً لقبيلة ديونيسياس[٧] .

ونعرف أسماء أحياء كثيرة يبدو أنها اشتقت عادة ، إما من اسم أو لقب إله ، أو بطل من أبطال الأساطير الدينية الاغريقية . فى قبيلة ديونيسياس ، نجد أسماء الأحياء مأخوذة من اسم ألثايا (Althaea)، التى أنجب منها ديونيسوس ديانيرا (Deianira)

---

(1) Taubenschlag, pp. 143 - 4.

(2) Jouguet, Vie, p. 11, (3) Jouguet, Journal des Savants, 1925, p. 11.

(4) P. Hibeh, 28.

(5) F. G. H., iii, p. 164, Fragment 21.

(6) Westermann, Vit. Script. Graec. Min., p. 50.

(7) Perdrizet, op. cit., p. 53.

ومن اسم ثستيوس (Thestios) والد الثايا ، ومن اسم ديانيرا نفسها ، وكذلك من أسماء أريادنى (Ariadne) وثواس (Thoas) وستافيلوس (Staphylos) وإفانثيوس (Evantheos) ومارون (Maron) ، وهى كلها أسماء شخصيات تتصل بقصص ديونيسوس . ونعرف كذلك حيا أخذ اسمه من اسم هرقل وآخر من اسم أكاكوس (Acacos) وثالثا من اسم تمنوس (Temenos) حفيد هرقل . وقد اشتقت أسماء أحياء أخرى من ألقاب ملوك البطالمة ، مثل إبيفانس وفيلومتور [١]

ثانيا — طبقة أنصاف المواطنين [٢] ، ويتبين من الوثائق أنها كانت تتألف من ثلاث فئات : ١ — فئة الذين لم يسجلوا بعد فى أحياء بعينها ورد ذكرها مقرونا بأسمائهم [٣] ، ٢ — فئة الذين لم يسجلوا بعد فى أحياء دون تحديد هذه الأحياء على الإطلاق « pepolitographemenoi » [٤] ، ٣ — فئة اسكندرى السلالة الذين لم يسجلوا بعد فى أحياء بذاتها ورد ذكرها مقرونا بأسمائهم .

ويرجح أن أفراد هذه الطبقة كانوا مواطنين جديد ، وترينا البردية المشهورة التى تتضمن بعض قوانين الإسكندرية ونظمها أنهم كانوا لا يتمتعون إلا بقدر محدود حتى من حقوق المواطنة الخاصة ، فقد كانوا لا يتقاضون إلا أمام محاكم الغرباء « Xenikon dekasterion »[٥] ، وكان لا يستطيع بيع أو شراء العقار إلا المواطنون المسجلون فى الأحياء[٦] .

ويبدو أن أفراد الفئتين الأولى والثالثة كانوا يمتازون على أفراد الفئة الثانية

---

(1) Bevan, pp. 99 - 100.

(2) Bickerman, Apropos des Astoi dans L'Eg. greco - rom., Rev - Phil., 3. Serie, I, 1927, pp. 364 - 5.

(3) P. Petr. III, 21b, 4, 10; 55a, 7: 132, 20.

(4) P. Halensis I, 158.

(5) P. Halensis I. 157 ff.

(6) P. Halensis, I. 245 ff.

بأنهم سيتمتعون على الأقل قبلهم بحقوق المواطنة كاملة ، وذلك لأن الأحياء التى سيسجلون فيها قد ذكرت إلى جانب أسم كل منهم مع النص على عدم تسجيلهم فيها بعد . ولعل تأخير هذا التسجيل يرجع إما إلى أن عدد أفراد كل حى كان محدودا ولذلك كان يتعين عليهم انتظار خلو أماكن فى كل حى ، أو لأنهم لم يستكملوا بعد الشروط اللازمة لتسجيلهم [١] .

ومن كان أفراد هذه الفئات الثلاث ؟ وما سر التفرقة بين أفرادها ؟ ليست لدينا معلومات تساعدنا على الأدلاء برأى حاسم فى هذهالمسألة ، لكنه يبدو لنا أن أفراد هذه الفئات كانوا جميعا أحدث عهدا بالمدينة من أفراد الطبقة الأولى ، غيرأن أفراد الفئة الأولى كانوا يتألفون من مهاجرين جدد تتوافر فيهم الشروط التى تسمح بتسجيلهم فى أحياء بعينها ، إلا أنهم لم يسجلوا بعد لعدم وجود أماكن شاغرة فى تلك الأحياء ، على حين أن أفراد الفئة الثانية كانوا يتألفون من أفواج جديدة ولميستكملوا بعدشروط التسجيل فى أحياء المدينة . أماأفرادالفئة الثالثة فيبدو أنهم كانوا سلالة المواطنين الاسكندريين الكاملين لكنهم لم يستكملوا بعد الشروط اللازمة لتسجيلهم فى أحيائهم .

ثالثا — طبقة المقدونيين ، وكانت طبقة أخرى ممتازة تتمتع بنفوذ كبير فى القصر وفى الجيش ، ولا غرو فإنها كانت تؤلف الارستقراطية العسكرية . وقد ورد فى المصادر القديمة ذكر نظام مقدونى عمّر مدة غير قصيرة فى بعض الممالك الهيلينستية وخاصة فى مصر وهو جمعية الجيش ، وكانت فى الأصل عبارة عن الأمة مدججة بالسلاح ومنتظمة فى صفوف الجيش ، ومن ثم كانت مصدر السلطات . وفى عهد الملوك الأقوياء كان نفوذ هذه الجمعية محدوداً ، لكنها كانت تستخدم سلطاتها عند خلو العرش فتوافق على وصية الملك الراحل وتبايع الملك الجديد . ولم يأت الشطر الثانى من عصر البطالمة حتى كانت هذه الجمعية قد فقدت أهميتها إذ يتعذر أن نجد لها ذكراً فى المصادر القديمة منذ عهد بطلميوس الخامس [٢] .

---

(1) Cf. Jouguet, Vie, pp. 12, 17, 25; P. Hal. pp. 91 - 2, 163.

(2) Jouguet. Assembleés d. Alex; B. S. R. A. A. 37, 1948, pp 12-14

ويشار إلى هذه الجمعية فى المصادر القـــديمة إما : بـكلمة المقدونيين [١] (hoi Makedones) ، أو بعبارة الجمعية العامة (Koine ekklesia)[٢] ، أو بعبارة الجمعيةالعامة للمقدونيين (Koine ton Makedonon ekklesia)[٣].

ولاشك فىأن المقدونيين كانوا يؤلفون جماعة قومية « politeuma » كانت هذه الجمعية أحد نظمها ، لـكننا لا نعرف شيئاً أكثر من ذلك عن هذه الجماعة القومية . ومع ذلك لا نستطيع قبول ما يراه البعض من أن مرد ذلك إلى أن هذه الجماعة لم تقم بدور هام فى التاريخ[٤] .

رابعاً — طبقة فرس السلالة ، وكانوا يؤلفون طبقة خاصـة لها بعض الامتيازات ، لـكنها لم ترتفع إلى مصاف الطبقات الثلاث الأولى . وكان عدد هذه الطبقة كبيراً ، ولا شك فى أنهم إصطبغوا سريعاً بالحضارة الإغريقية .

خامساً — طبقة عامة الإغريق ، وكانت تتألف من فقراء الإغريق الذين كانت جموعهم تفد باستمرار من كافة أنحـاء العالم الإغريقى ، ولم يحشروا فى زمرة المواطنين ، ولم يتمتعوا بحقوقهم ولا بامتيازاتهم .

سادساً — طبقة اليهود ، وكانوا يؤلفون جانباً كبيراً من سكان المدينة منذ بداية القرن الثالث قبل الميلاد ويتمتعون بدستور خاص بهم وكان لهم من الإمتيازات ما يعادل الإسكندريين وما يزيد على الفرس ، لـكنهم لم يتمتعوا بحقوق المواطنة .

سابعاً — طبقة المصريين ، وكانت تتألف من الصناع والعمال وبعض الجنود ،

---

(1) Diod. XVI, 3; XVII, 74, 3; XVIII, 36, 7; Arr. Anab. III, 26, 7; IV, 14. 2; VII. 8: Plut., Alex., 55; Eumenes, 8; 12; Polyaen. IV, 6, 74.

(2) Diod. XVII, 39, 4; XIX, 15,1.

(3) Diod. XIX, 51, 1; 61, 1 .

(4) Heichelheim, Die auswaertige Bevolkerung in Ptolem. aerreich. p. 38.

وتسكن فى حى راكوتيس وفى جزيرة فاروس. وقد تجرد أفراد هذه الطبقة حتى من مظاهر الحضارة الإغريقية ، وكانوا يعتبرون عنصراً أجنبياً عن هذه المدينة فلم يدمجوا فى هيئة المواطنين . لكنه كانت لبعض المصريين فى الإسكندرية مكانة ممتازة مثل كهنة السيرابيوم وأولئك المصريين المتأغرقين الذين عينوا فى البلاط على عهد البطالمة الأواخر مثل ديونيسيوس بتوسيرابيس [1] .

وكانت توجد إلى جانب هذه الطبقات جماعات مختلفة من الأجانب والعبيد والمعتوقين [2] .

وإذا كان الكل يتفق على أن إغريق الاسكندرية كانوا إغريقا فى حياتهم الاجتماعية وثقافتهم الأدبية والفنية ، فإن قلة الأدلة افضت إلى تضارب الآراء تضاربا شديدا حول حظ الاسكندرية من النظم السياسية التى كانت المدن الاغريقية تتمتع بها عادة . فيرى فريق من الباحثين أن الاسكندرية لم تتمتع بمظاهر الحكم الذاتى ، لأن البطالمة وقد خلفوا الفراعنة فى حكم البلاد اقتبسوا منهم حق الملوك الالهى ، ولذلك فانه لم يوجد فى مصر مواطنون أحرار بل رعايا خاضعون ؛ ولا بد إذن من أن مدن مصر الإغريقية لم تكن إلا صورة مزيفة للمدن الإغريقية ولم تتمتع باستقلالها الذاتى [3] . لكن قضى على هذا الزعم الكشف عن ثلاثة قرارات اصدرتها الجمعية الشعبية والمجلس فى مدينة بطوليميس [4] ، فقد ثبت بذلك أن هذه المدينة كانت تتمتع بالنظم السياسية الخليقة بمدينة إغريقية . ومن ثم لا يكون من الإسراف فى الرأى القول بأنه لا يعقل أن تكون عاصمة البطالمة بل عاصمة الحضارة الاغريقية فى العصر الهيلينستى قد عوملت أسوأ مما عوملت به تلك المدينة الرابضة فى قلب الصعيد برغم بعدها عن مقر السلطة المركزية .

---

(1) Diod. XXXI, 15a. (2) Breccia, p. 33.

(3) Mommsen, Roem Gesch, v, p. 557.

(4) Ditt., O. G. I. I, 47, 48, 49; Cf. Jouguet, Vie Municipale, p. 31.

ويرى البعض أنه كان طبيعياً ألا تتمتع الاسكندرية بمجالس دستورية لأنها كانت عاصمة البطالمة ومقرهم ، ولأن أهلها كانوا يميلون بطبعهم إلى الثورات ، فكان منح هذه المدينة مجالس دستورية يهدد سلطة الملوك على الدوام، ولذلك كان ينبغى الحد من استقلال المدينة الذاتى بعدم السماح بوجود مجالس دستورية فيها(١) . ويمكن الرد على ذلك بأنه عند إنشاء هذه المدينة لم يكن فى وسع أحد التنبؤ بأن أهلها سيتصفون بعد مايزيد على قرن بالشغب والميل إلى الثورات . ويمكن القول أيضا وكيف يحرم البطالمة الاغريق التمتع بمجالس دستورية ويمنحون الجاليـة اليهودية فى الاسكندرية مجلساً دستوريا ؟ ألم توجد وسيلة أخرى للحد من استقلال المدينة الذاتى سوى حرمانها حق التمتع بمجالس دستورية ؟ إن هذه المدينة لا تبدو لنا فى صورة جماعة واحدة بل على الأصح فى صورة مجموعة جماعات لا يربطها جميعا سوى قوة السلطة المركزية ، فقد كان يوجد إلى جانب هيئة المواطنين الاغريق جاليات عديدة من غير المواطنين . وكانت جالية اليهود أهم جاليات الاسكندرية جميعا بعد هيئة المواطنين الاغريق ، وقد كان فى وسع أى حاكم قدير استخدام إحدى هاتين الجماعتين لإخضاع الأخرى . ولا يبعد أنه كان فى وسع السلطة التنفيذية أن تجد أيضاً فى حامية الاسكندرية ورجال الحرس وموظفى البلاط أداة لتنفيذ إرادتها (٢) .

ويستدل بثلاث حجج أخرى على عدم تمتع الاسكندرية باستقلالها الذاتى أو بعبارة أخرى على عدم وجود مجالس دستورية فيها . وإحدى هذه الحجج ما اثبتته الوثائق من وجود قائد للمدينة(٣) (Strategos tes poleos) فى الاسكندرية . ويمكن الرد على ذلك بأنه من الجائز أنه كان لسلطة هذا القائد

(1) Bouche - Leclercq III, pp. 153 - 4.

(2) Jouguet, Vie, pp. 31 - 2. (3) Meyer. Archiv, III, p, 72.

نطاق غير النطاق الذى كان لحكام هيئة المواطنين ومجالسها ، فقد كانت فى الاسكندرية أعداد كبيرة من غير المواطنين . ويضاف إلى ذلك ما نعرفه من انه كان يوجد قائد فى برجام ، ومع ذلك لاشك فى أنه كان يوجد بها مجلس دستورى (Boule) (١) .

والحجة الثانية هى أنه لو وجدت مجامع دستورية حقا فى الاسكندرية لظهر أثرها وكانت خير معبر عن إرادة الاسكندريين فىالثوراتالتى وقعت فى بداية عهد بطلميوس الخامس ابيفانس والثورات التى أدت إلى خلع بعض البطالمة وارتقاء غيرهم العرش ، كما حدث فى عهد بطلميوس فيلومتور وإبوار جتيس الثانى وسوتر الثانى وبطلميوس اسكندر وبطلميوس أوليتس(٢) . ويرد على ذلك بأن المجالس الدستورية فى مدن مصر الإغريقية كانت مجالس محلية فقط لا يحق لها المساهمة فى أعمال لا تمس مدنها فحسب بل تعنى الدولة بأجمعها . ولا شك فى أن الملوك لم يعترفوا على الإطلاق لمجلسى الإسكندرية الدستوريين بحق التدخل فى مسألة ارتقاء العرش أو الوصاية ، على حين يبدو أن الدور الذى قام به «المقدونيون» (أى جمعية الجيش) كان قانونيا ، إذ أنه أمامهم توج الملكالصغيربطلميوس الخامس ، وأمامهم قرأ اجاثوكلس الوصية المزيفة التى جعلته وصيا ، ومنهم ومن الفرق الأخرى طلب اجاثوكلس فيما بعد النجدة ضد تلوليموس ، فقدكان ذلك تقليدا متوارثا منذ الوقت الذى كان فيه ملوك مقدونيا يحصلون على مبايعة الجيش لهم . وإذا كانت مبايعة الجيش للبطالمة أصبحت فى الظروف العادية إحدى التشكيلات الرسمية ، فانه كانت لها قيمة كبيرة فى الظروف غير العادية ، مثل التى صاحبت وفاة بطلميوس الرابع وارتقاء ابنه العرش، لأن الموقف العدائى الذى اتخذه الجيش من اجاثوكلس هو الذى أشعل نيران الثورة التى أسهم فيها كل سكان المدينة من الإغريق والمصريين أى المواطنين وغيرهم . ووسط هذه الثورة الجامحة لم يكن لاجتماع هيئة المواطنين أى فائدة ، وإذا كان قد حدث فعلا فلا بد من أنه كان قليل الأهمية إلى حد أن بوليبيوس لم يشر إليه فى وصفه المفصل لهذه الحوادث(٣) . وعلى كل حال فان عدم

(1) Jouguet, Vie, p. 30.

(2) Bouché - Leclercq, III, p. 153 (3) Jouguet, Vie, pp, 29 - 30.

وجود مجامع دستورية فى الاسكندرية عندئذ لا ينهض دليلا على أنه لم يوجد بها مجامع دستورية طوال عصر البطالمة .

والحجة الثالثة هى أن اسبارتيانوس(Spartianus)[1] يروى أن الإمبراطور سبتميوس سفروس هوالذى منح الاسكندرية مجلسها (Boule) ، ويضيف إلى ذلك أن الاسكندريين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت بدون مجلس « مثل ما كانوا يعيشون فى عهد الملوك » (Ita ut sub regibus) . ولما كانت توجد فى الممالك الإغريقية مدن بها مجامع دستورية مثل برجام وانطاكية فانه لاسبيل إلى ما يذهب إليه البعض من أن اسبارتيانوس لم يقصد بعبارة « مثل ما كانوا فى عهد الملوك » أن يقول « مثل ما كان الاسكندريون يعيشون فى عهد البطالمة » وإنما « مثل مايعيش رعايا الملوك » . لكن إذا صح أن الكاتب القديم كان يقصد فعلا « مثل ما كان الاسكندريون يعيشون فى عهد البطالمة » فاننا سنرى من القرائن مايشير إلى أن هذه العبارة تنطبق على شطر فقط من عصر البطالمة ، مما كان سببا فى اختلاط الأمر على اسبارتيانوس فجاءت عبارته شاملة عامة على نحو ما أسلفنا .

ومن ناحية أخرى يرى فريق آخر من الباحثين[2] أن الاسكندرية كانت مدينة إغريقية ، ولذلك لا بد من أنها كانت على الأقل فى بداية عهدها تتمتع بكل عناصر الحياة العامة فى المدينة الإغريقية ، أى بجمعية شعبية ومجلس بولى وحكام ومحاكم ، لكن نتيجة للأحداث العنيفة التى شهدتها المدينة حد البطالمة من استقلال المدينة الذاتى ، ومن ثم فقدت مجلسها .

وإذا ألقينا نظرة سريعة على دستور برقه[3] الذى عثر عليه حديثاً ونرجح أنه يرجع إلى عام ٢٤٨/٢٤٧ ق . م . فاننا نلاحظ أن هذا الدستور كان يتألف من العناصر الأساسية التالية : (١) هيئة المواطنين العاملين وكانت كبيرة العدد وتتألف من ١٠٠٠٠ مواطن ، (٢) جمعية شعبية يؤمها كل المواطنين ، (٣) مجلس مكون

---

(1) Spart., Vita Sever. 17.
(2) Jouguet, Trois Etudes, pp. 118 - 9.
(3) Cf Ferri, in Abh. d. Akad. d. Wiss. zu Berlin, 1926, no 5 inscr no 1.

من ٥٠٠ عضو يختارون بالإقتراع ، (٤) مجلس شيوخ (gerousia) يتألف من ١٠١ عضو تنتخبهم هيئــة المواطنين ، (٥) كاهن للاله ابولو تؤرخ الوثائق باسمه (eponymous) ، وتسعة أوصياء على القوانين (nomophylakes) وخمسة حكام (ephors) وإثنى عشر قائداً (Strategoi) . وكان القواد أكثر الحـكام أهمية ، فهم الذين كانوا يديرون دفة شئون الدولة ، وكانت وظيفتهم سنوية فيما عدا واحداً منهم فانه كان يتولى منصبه لمدى الحيــاة وكان هو الوالى .

ونحن لا نريد أن نعقد مقارنة بين برقة والاسكندرية وانما نريد أن نتخذ من عتمها هى وبطوليميس بمجامع دستورية قرينة على ميول البطالمة الأوائل وموقفهم تجاه النظم المألوفة فى المدن الإغريقية . وإذا قيل إنه لم يكن فى وسع البطالمة حرمان جمهورية ذائعة الصيت مثل برقة مجامعها الدستورية ، فانه يمكن القول أيضــاً إنه لم فى وسع الإغريق فى فجر تاريخ الاسكندرية أن يتصوروا مدينة إغريقية ليست لها مجامع دستورية .

وإذا جاز فرضا — وهو فرض بعيد الاحتمال — أن الإسكندر لم يمنح الإسكندرية المجامع الدستورية الخليقة بمدينة إغريقية ، فان المعقول أن يكون البطالمة الأوائل قد تلافوا هذا النقص بسبب حرصهم على توفير البيئة المناسبة لحياة الإغريق ، وذلك تشجيعا لقدومهم إلى مصر واستقرارهم فيها ولاسيما أنهم كانوا يمنون أنفسهم بأن تصبح الاسكندرية عاصمة العالم الهيلينستى وأعظم مراكز الحضارة الإغريقية . وكيف كان يتأتى للاسكندرية الفوز بهذه المـكانة فى نظر الإغريق إذا لم تتوافر فيها العناصر الأساسية التى لم يكن لأى مدينة إغريقية غنى عنها ؟

وفى متحف الاسكندرية نقش نشره برتشيا [١] وقام بلاومان [٢] بدراســته واستكمال ما فيه من فجوات وخرج من ذلك بأنه قرار أصدره مجلس الاسكندرية والشعب ، أى الجمعية الشعبية . ويعتقد جوجيه [٣] أنه يصعب استكمال النقش بحيث

(1) Breccia, Iscrizioni Greche e latine no 164 pp XXVI, 94.
(2) Plaumann, in Klio, XIII, 1913, p. 485.
(3) Jouguet. Les Assemblées d'Alex. B. S. R. A. A, 37, 1948, p. 5.

يعطينـــا معنى آخر . ومع ذلك فانه لا يجوز الإكتفاء بهـــذا النقش المهلهـــل للاستدلال على وجود جمعية شعبية ومجلس فى الاسكندرية ، ولا سيما أننـا لا نعرف عن يقين المـكان الذى وجد فيه [1] .

ويضفى على هذا النقش أهمية كبيرة ما يتضمنه خطاب الأمبراطور كلاوديوس إلى الاسكندريين رداً عليهم حين طلبوا إليه منحهم مجلساً (Boule) ، فقد جاء فى هذا الخطاب « أما أن المجلس كان مجمعـــاً مألوفاً بين ظهرانيكم على عهـــد ملوكـكم القدماء فهذا ما لا علم لى به ، لـكنـكم تعلمون جيداً أنه لم يكن لـكم مجلس على عهد الأباطرة الذين سبقونى . ومن الواضح أن هذا المطلب الجديد الذى تتقدمون به لأول مرة قـــد يكون مفيداً للمدينـــــة ولحـكومتى ، ولذلك فانى كتبت إلى إيميليوس ركتوس (Aemilius Rectus) لبحث الموضوع وموافاتى عما إذا كان يجب إنشاء هذا المجلس وطريقة تـكوينه إذا كان ثمة داع لذلك » [2] .

ومن اليسير أن نتبين من هذا الرد أن الاسكندريين استندوا فى طلبهم إلى أنهم كانوا يتمتعون بمجلس فى عهد ملوكهم القدماء . ورب معترض يقول ولمـاذا نستبعد أن يكون زعم الاسكندريين باطلاً . والرد على هذا يسير وهو أنه لم يكن فى وسعهم الـكذب على الأمبراطور خشية افتضاح أمرهم وما يلحق بهم من أذى نتيجة لذلك ، فقد كان أمراً شائعاً معروفاً أن الأمبراطور نفســـه باحث مؤرخ . وفضلا عن ذلك فان أعداءهم اليهود كانوا واقفين لهم بالمرصاد ولن يترددوا عن كشف أباطيلهم . ولعـــل أمبراطوراً عالماً مثـــــل كلاوديوس لم يجهـــل نظم الاسكندرية فى عهد ملوكها القدماء ، لـكنه ادعى الجهل لأنه لم يشأ أن تتخذ تقاليد الملوك القدماء سابقـــة تلزمه بما يجب إتباعه . ومع ذلك فانه لـكى لا يبدو متعسفاً وعد بالفصل فى مطلب الاسكندريين على ضوء المصلحة العامة وعهد فى بحث الأمر إلى الحاكم العـــام إيميليوس ركتوس . والواقـــع أنه لو كان لدى الإمبراطور أدنى شك فى صحة مزاعم الاسكندريين لاتخذ من ذلك ذريعة لرفض مطلبهم رفضاً قاطعا .

---

(1) Cf. Bell, The Alex. Senate, Aegyptus, XII, P, 79. fn. 1.

(2) Hunt and Edgar, Select Papyri II, no 212, P. 84, ll. 66. 72.

ومن ثم نستطيع اعتبار رد كلاوديوس دليلا على تمتع الأسكندرية بمجلس فى عصر البطالمة ، وسنداً قويا يظاهر القراءةالتى يقترحها يلاومان للنقش سالف الذكر .

ولما كان كلاوديوس يقتفى أثر سياسة أغسطس بدقة ، وكان الكل يسلم بأنه لم يكن للاسكندرية مجلس فى العصر الرومانى حتى عهد سبتميوس سفروس ، فانه لو كان أول الأباطرة أغسطس هو الذى ألغى مجلس الاسكندرية — وهو ما يعتقده البعض استناداً إلى عبارة جاءت فيما كتبه ديون كاسيوس — لكان أمر ذلك معروفا للاسكندريين وللامبراطور على السواء ، ولاستند الإمبراطور إلى ذلك واختلف رده تمام الاختلاف عما جاء فى خطابه المشهور [١] .

وماذا يقول ديون كاسيوس ؟ يميل كثيرون إلى تفسير الفقرة التى وردت فى ديون كاسيوس[٢] بأن أغسطس وقد أدرك ميل الإسكندريين إلى الثورات وعدم ثباتهم على حال الغى مجلسهم . والواقع أن ديون كاسيوس لم يقل فعلا أن أغسطس الغى مجلس الإسكندرية وإنما قال بالنص «أن أغسطس أمر الإسكندريين بمزاولة حياتهم السياسية دون أن يكونوا أعضاء فى مجلس » . ولما كانت هذه العبارة قد جاءت فى أعقاب جملة تحدث فيها ديون كاسيوس عن حرمان الأهالى من عضوية مجلس الشيوخ الرومانى فإن هذا قد حدا بشوربات[٣] إلى إقتراح تفسير طريف لهذه الفقرة وهو أن أغسطس حرم الإسكندريين من عضوية مجلس الشيوخ الرومانى . ولم يلبث هذا التفسير أن وجد أنصاراً يحبذونه[٤] لكننا لا نستطيع قبوله لعدم اتساقه مع سياق الحديث [٥] . فلم يبق إذن إلا التفسير الطبيعى : وهو أن يكون الأسكندريون قد طلبوا إلى أغسطس منحهم مجلساً لكنه أبى

---

(1) Bell, The Problem of the Alex Senate, Aegyptus, XII, 1932, pp. 183 - 4.

(2) Dio Cass. LI, 17.

(3) Schubart, Die Boule von Alex, B. I. F. A. O. XXX, pp. 407 ff.

(4) Bell, op. cit. p. 183.

(٥) راجع مقال الدكتور لطفى عبدالوهاب يحيى On The Question of the Alex. Senate فى مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية العدد ١٢ الصادر فى سنة ١٩٥٨ ص ٧٥—٧٦ .

(1) Medea Norsa and Vitelli, Da Papiri della Soc. Italiana, in B. R. A. A., no 25 and no. 27; P. S. I. X, fasc. 1; Bell, op. cit., pp. 137 - 8, 184.

عليهم ذلك . ولعلنا نجد صدى ذلك الطلب في وثيقة بردية [1] نشرت منذ عهد غير بعيد . ويرى ناشرو هذه البردية أنها عبارة عن جزء من وصف ، منقول من الوثائق الرسمية ، لمقابلة بين سفارة للإسكندريين والحاكم العام عقب الفتح الروماني حين كان أغسطس لا يزال في مصر وإنما خارج الإسكندرية . وإذا كان البعض يعتبر الوثيقة نصا أدبيا لا يمت إلى الوثائق الرسمية بصلة [2] ، فإن أكثر الباحثين يرون أن الوثيقة مستمدة من الوثائق الرسمية وتمثل مطلبا للاسكندريين [3] . وبينما يعتقد بعض الباحثين أن الإمبراطور الذي قدم إليه هذا الطلب هو أغسطس ، يعتقد البعض الآخر أنه كلاوديوس ، لكن الرأي الأول هو الأرجح في نظرنا ، ولا سبيل إلى الاعتراض عليه بأن كلاوديوس يصف مطلب الإسكندريين إليه بمنحهم مجلساً بأنه مطلب جديد يتقدمون به لأول مرة ، إذ يمكن الرد على ذلك بأنه لا يبعد أن يكون المقصود بذلك لأول مرة في عهده هو ، أو أن يكون مرور فترة تتراوح بين ٧٠ و ٧٥ عاما أسدل ستارا من النسيان على حادث غير ذي بال وقع بعيداً عن روما .

وهل طلب الإسكندريون الاحتفاظ بمجلس موجود فعلا ؟ أم إنشاء مجلس في مدينة لم يكن بها مجلس من قبل ؟ أم إعادة إنشاء مجلس كان موجوداً من قبل لكن لم يعد له وجود ؟ إن نص رد كلاوديوس يستبعد الفرضين الأول والثاني ، فقد استخلصنا من ذلك النص أنه كان في الإسكندرية مجلس وأن أغسطس لم يلغ هذا المجلس . وإذا كانت الإسكندرية في الأصل تتمتع بمجلس ، وكان أغسطس لم يلغ هذا المجلس ، وكانت الإسكندرية لا تتمتع بمجلس في عصر الرومان طوال القرنين الأول والثاني ، فلا بد إذن من أن يكون أحد البطالمة هو الذي ألغاه .

ومن عساه أن يكون هذا الملك ؟ ليست لدينا أدلة قاطعة نستطيع الاستناد

(1) Medea Norsa and Vitelli, Da Papiri della Soc. Italiana, in B. S. R. A. A., no. 25 and no. 27 ; P. S. I., X, fasc. 1; Bell, op. cit., pp. 173 — 8, 184.

(2) Oliver, Aegyptus, XI, 1931, pp. 167 — 8.

(3) Viereck, Aegyptus, XII, 1932, pp. 210 — 6 ; Bell, op. cit., pp. 177 — 8, 184; Jouguet, Assemblées, p. 8.

إليها للجزم في أي عهد ألغي مجلس الإسكندرية ، لكن لا يبعد أن يكون قد استحدث هذا التغيير أما بطلميوس الرابع فيلوباتور[١] الذي نعرف أنه أعاد تنظيم القبائل والأحياء في الإسكندرية ، [٢] أو على الأرجح بطلميوس ايوارجتيس الثاني الذي اضطهد الإسكندريين أشد الاضطهاد لمناصرتهم بطلميوس فيلومتور أول الأمر وزوجه كليوباترة الثانية فيما بعد . ولما كان الغاء المجلس يعتبر عقابا صارما لهيئة المواطنين فإنه يتفق وسلوك ايوارجتيس الثاني مع ارستقراطية الإسكندرية ، التي تشير القرائن [٣] إلى أن هذا الملك اضطهدها اضطهاداً شديداً [٤].

وعلى كل حال فإن ما اسلفناه من قرائن ينهض دليلاعلى أن الإسكندرية كانت تتمتع في عهد البطالمة الأوائل بمجلس دستوري . ويؤيد ذلك أيضاً ما تنم عنه بردية مشهورة من أن هذه المدينة كانت تتمتع باستقلالها القضائي [٥] ، إذ أن الإستقلال القضائي لا يتحقق إلا في ظل الاستقلال السياسي ، فهذه البردية التي لا تذكر شيئا عن المحاكم الملكية تحدثنا عن ثلاثة أنواع من المحاكم تعمل في الإسكندرية [٦]

(1) Schubart, Archiv V, 89.

(2) Perdrizet, op. cit., pp. 53 — 82.

(3) Cf. Strabo. XVII, 2, 12.

(٤) ونحن لا نستطيع الأخذ بالرأي الطريف الذي يذهب إليه أحد الباحثين المحدثين وفحواه أن إلغاء المجلس جاء نتيجة للتطورات الاجتماعية والاقتصادية في مصر حوالي منتصف عصر البطالمة بحيث افضت هذه التطورات إلى تصادم صوالح البطالمة والإغريق مما جعل الغاء البولى أمراً مرغوبا فيه . فنحن لانجد مبررا للقول بأنه منذ عهد بطلميوس الثاني اتجه البطالمة إلى اتخاذ مايكفل نقص امتيازات الإغريق الاقتصادية ، ولا نرى أن تكوين طبقة وسطى ثرية من الإغريق كان يتهدد مصالح البطالمة وإنما نرى أنه يخدمها بتوفير مختلف أنواع الملتزمين والضامنين .

وقد كانت الثورات القومية التي أعقبت اشتراك المصريين في موقعة رفح نذيراً كافياً للبطالمة لكي لا يعهدوا للمصريين ثانية بدور رئيسي في الجيش بدليل أنهم عدلوا عن تكوين قلب الجيش منهم وأن الأغريق استمروا يؤلفون غالبية الجيش وأرستقراطيته . ويجب ألا يفوتنا أن البطالمة وقد كانوا يدركون أن سلامتهم في اعتمادهم على الإغريق كانوا يدركون كذلك أنهم لايستطيعون المساس بمصالح الإغريق دون الاضرار بمصالحهم شخصياً .

(5) P. Halensis, pp. 162, 171.

(6) P. Halensis, pp. 166 — 8.

مستقلة عن الملك . فلا عجب أن كانت الدعاوى التى تقام أمامها لا توجه ولا ترفع إليـه . وكان النوع الأول يتألف من مدع عام « eisagogeus » ، ومحلفين « dikastai » يختار أحدهم للرياسة « proedros » . وكان النوع الثانى يتألف من محكمين « diaitetai » يعملون تحت إشراف حارس القوانين « nomophylax »[1] وكان النـوع الثالث يتألف من قضاه « kritai » يبدو أنه كان لهم رئيس « ho epi tou kriteriou » وكاتب « grammateus » . وإلى جانب محاكم المدينة ومواطنيها كانت محكمة القضاة الإغريق « Chrematistai »[2] ، وهى محكمة ملـكية متنقلة ، تنعقد أيضاً فى الإسكندرية ، مثل ما كانت تنعقد فى مدينة بطوليميس[3] التى كانت لها كذلك محاكمها الخاصة . ويبدو أن المحـكمة الملـكية كانت تنعقد فى المدن الإغريقية للفصل فى قضايا غير المواطنين .

وبما أنه لم يعد هناك مجال للشك فى أن الإسكندرية كانت تتمتع بمجلس دستورى فى بداية عهد البطالمة ، فإننا نستطيع فى ضوء ذلك تفسير عبارة « ملوككم القدماء » التى وردت فى رد كلاوديوس بأنها تعنى البطالمة الأوائل ، وكذلك تفسير ما سبقت الإشارة إليه عند مناقشة أقوال اسپارتيانوس من أن عبارته « مثل ما كانوا يعيشون فى عهد الملوك » صحيحة ومنطبقة على ذلك الجزء من عصر البطالمة بعد إلغاء المجلس .

وفى رأى بعض الباحثين أنه إذا كانت الإسكندرية قد منحت عند إنشائها مجلسا فإنها لم تمنح جمعية شعبية لأن ديمقراطيتها كانت ديمقراطية معتدلة ، لـكن البعض الآخر يرى بحق أن الاسكندرية وقد منحت مجلسا مثل بطوليميس لا بد من أن تـكون قد منحت كذلك جمعية شعبية . ونحن نميل إلى هذا الرأى ولا سيما أننا

---

(1) Taubenschlag, p. 369.

(2) P. Petr. III, 25 (3 B. C.) ; Enteuxeis 8 (218 B. C.).

(3) P. Grenf. I, 40 ; B. G. U. 1249.

نجد له سندا فى نقش بلاومان ، لـكننا لا نستطيع مسايرة أصحاب هذا الرأى فيما يذهبون إليه من أنه إذا كان البطالمة الأواخر قد ضاقوا ذرعا بالمجلس وألغوه فإنهم كانوا أرحب صدراً إزاء الجمعية الشعبية وأبقوا عليها إلى أن ماتت ميتة طبيعية عند الفتح الرومانى[١] . فنحن لا ندرى كيف تموت المجالس الدستورية ميتة طبيعية ، ولا سيما مجالس شعوب تتدفق حيوية ونشاطا مثل شعب الإسكندرية ، دون أن يلغيها الحـكام ؛ وليس هناك ما يشير إطلاقا إلى أن أغسطس ألغى الجمعية الشعبية فى الاسكندرية . وإذا صح ما يرويه ديون كاسيوس من أن يوليوس قيصر عقد اجتماعا للجمعية الشعبية وأخذ موافقتها على وصية بطلميوس الزمار[٢] ، ومن أن أنطونيوس قسم الجزء الشرقى من الامبراطورية الرومانية بين كليوبتره وأبنائها فى اجتماع عقده للجمعية الشعبية[٣] ، فانه يمكن تفسير ذلك بأنه فى تلك المناسبتين دعيت هيئة المواطنين للاجتماع . ووصف هذا الاجتماع بأنه اجتماع الجمعية الشعبية صحيح من حيث أن اجتماع الجمعية الشعبية لا يخرج عن كونه اجتماع هيئة المواطنين لـكن يصعب أن نتخذ من ذلك دليلا على وجود الجمعية الشعبية واجتماعها بانتظام فى الشطر الثانى من عهد البطالمة .

ولو أمكن تصور مدن ليس لها استقلال سياسى ولا استقلال قضائى ، أى ليست لها مجالس دستورية تتمثل فيها سيادة جماعة المواطنين ، ولا محاكم تستمد سلطتها من تلك السيادة ، لما أمكن تصور مدينة لا تتطلب إدارتها حكاماً وواجبات عامة . وقد كان ملء مناصب الحـكام والإضطلاع بالواجبات العامة يعتبران من أهم الحقوق والواجبات التى ينطوى عليها التمتع بحقوق المواطنة .

وغنى عن البيان أن طابع هذه الحقوق والواجبات يختلف فى المدن المستقلة عنه فى المدن غير المستقلة ، ففى الأولى تـكون هيئة المواطنين مصدر السلطة وهى

(1) Jouguet, Assemblées, pp. II ff.

(2) Dio Cass. XLII, 34.

(3) Dio Cass. XLIX, 41.

التى تختار الحكام ، أما فى الأخيرة فإن الحكام يكونون بمثابة مندوبى السلطة المركزية ، لكنهم يقومون بنفس المهام ويحملون نفس اللقب مثل حكام المدن المستقلة ، إلا أن طبيعة سلطتهم من الناحية القانونية مختلفة فى الحالتين لاختلاف مصدرها فى كل منهما .

ولا شك فى أن مدن مصر الإغريقية لم تكن دولا مستقلة ذات سيادة سواء أكانت تتمتع بمجالس دستورية أم لم تكن ، بل كانت مدنا خاضعة لسلطة الملك التى تتجلى قبل كل شىء فى اختيار الحكام . ولعله كان يتبع فى اختيارهم إحدى طريقتين : إما أن المواطنين يرشحون عدداً منهم يختار الملك من بينهم من يشاء ، وإما أن المواطنين يختارون من يريدون من الحكام بشرط أن يوافق الملك عليهم . لكن تدخل السلطة المركزية فى إدارة المدن لم ينته عند ذلك ، إذ كان لها أيضاً ممثلون فى كل مدينة [١] ، كما أن بعض الموظفين الملكيين كانوا يشتركون فى إدارة المدينة [٢] .

لكن هل كانت سلطة الحكام المحليين مقصورة على هيئة المواطنين أم تشمل كل سكان المدينة ؟ لا شك فى أنها كانت لا تشمل اليهود فى الإسكندرية ، لكننا لا نستطيع الجزم بأنها لم تمتد إلى باقى السكان الآخرين ، وإن كان من المحتمل أن المصريين وغيرهم ممن لم يكونوا مواطنين — فيما عدا الإغريق — كانوا يخضعون مباشرة لممثلى السلطة المركزية [٣] .

وتتبين من بردية من عهد بطلميوس الثانى أن حكام الإسكندرية كانوا يدعون أراكنة « archontes » لكن يصعب أن نتبين أنهم كانوا فى عصر البطالمة يؤلفون هيئة « Koinon ton archonton » على نحو ما هو معروف فى العصر الرومانى [٤] . ونتعرف فى هذه البردية على الحكام الآتيين :

(1) Jouguet, Vie, pp. 34 — 36 ; Mac. Imp., p. 306.
(2) Jouguet, Vie, pp. 41 — 42 ; Mac. Imp., p. 306.
(3) Jouguet, Vie, pp. 40 — 41.
(4) P. Hal., pp. 162 — 3.

أولا : نوموفيلاكس « Nomophylax » وكان يشرف على محكمة المحكمين « diaitetai » ويقوم فيها بدور يشبه ما يقوم به المدعى العام « eisagogeus » فى محكمة المخالفين ، فهو الذى كانت تقدم إليه جميع وثائق القضية وهو الذى كان يعلن الحكم وينفذه (١) .

ثانياً : تسمو فيلاكس « thesmophylax » ، ولا نستطيع أن نتبين شيئا عن مهام هذا النوع من الحكام(٢) أكثر من أنه كانت لهم صلة ما بالدوطة (٣) . ويظن أنه كان يوجد واحد من هؤلاء الحكام فى كل حى من أحياء الإسكندرية ، وأن وجودهم لم يكن مقصوراً على الإسكندرية (٤) .

ثالثاً : استينوموى « astynomoi » وكانوا حفظة الأمن فى المدينة (٥) .

رابعاً : أمناء الخزينة « tamiai » ويبدو مما ترويه البردية المشهورة أنهم كانوا يتسلمون الأموال المستحقة للمدينة (٦) .

وفى وثيقة من حوالى ٢٨٠ — ٢٥٠ ق . م . ورد ذكر حاكم آخر يدعى « gynaikonomos »(٧) . ويظن أن هذه الوثيقة المهلهلة كانت تتضمن فقرات من أحد قوانين مدينة من مدن مصر الإغريقية ، لعلها الإسكندرية التى يسود الرأى أن قوانينها كانت تماثل قوانين أثينا(٨) . وقد كان الحكام الذين يدعون « gyanikonomoi » جزءا من الجهاز الدستورى فى أثينا فى خلال حكومة دمتريوس الفليرى (٣١٧ — ٣٠٧ ق . م .) بصفتهم الأداة التى تطبق القوانين التى تحدد قواعد السلوك والانفاق . ولا يبعد أن يكون دمتريوس الفليرى

---

(1) P. Hal., l. 42, p. 57 ; P. Lille 29 ; Taubenschlag, p. 369., Zucker, Beitrage, p. 63.

(2) Preisigke, Fachwörter, S. V. Thesmophylax.

(3) P. Fay. XXII, ll 9 10, p. 126.

(4) P. Hal., l. 234, pp. 135 — 6.

(5) P. Hal., l. 237, p. 137.

(6) P. Hal., l. 244, pp. 143 — 4.

(7) P. Hibeh, II, 1955, p. 69, no. 196.

(8) P. Oxyrh. 2177, 13 - 14; P. Lille, pp. 125 — 6; P Hal., pp. 173 — 4.

قد استحدث هذا النظـام فى الإسكندرية عندما دعاه بطلميوس الأول إلى مصر فى عام ٢٩٤ ق . م . لإنشاء « دار العلم » . وإذا صح أن قوانين الإسكندرية بوجه عام كانت مماثلة لقوانين أثينا فلا يبعد أنه قد كانت لديمتريوس يد فى ذلك .

ويحدثنا استرابون [١] بأن كبار حكام الإسكندرية فى عهد الملوك كانوا : اكسيجيتس « Exegetes » وهيپومنماتوجرافوس «Hypomnematographos» وأرخيديكاستس ونوكترينوس ستراتجوس « Nukrterinos Strategos » . لـكن لا شك فى أن هذه القائمة غير كاملة ، وفى أن هذا الـكاتب خلط بين حكام المدينة المحليين وبين موظفى الدولة الملـكيين ، الذين كان مقرهم فى الإسكندرية وكان الهيپومنماتوجرافوس والأرخيد يكاستس من بينهم ، لأننا لا نعرف موظفين يطلق عليهم فى عهد البطالمة لقب هيپومنماتوجرافوس سوى سكرتيرى الملوك وسكرتيرى وزراء المالية (٢) .

أما وظيفة الأرخيديكاستس فهى إحدى مشاكل تاريخ مصر فى عهد البطالمة ، لأنه إذا كان البعض يتفق مع إسترابون ويرى أن هذا الحاكم كان موظفاً محلياً فى الإسكندرية [٣] ، فإن البعض الآخر يرى غير ذلك[٤] . ومما يجدر بالملاحظة أن وثائق العصر الرومانى ترينا أن الأرخيديكاستس كان يحمل لقباً ترجمته « المشرف على محاكم القضاة الإغريق والمحاكم الأخرى » ، وبما أنه من المسلم به أن مهام الأرخيديكاستس لم تـكن مقصورة فى العصر الرومانى على مدينة الإسكندرية ، وأنه لم توجد عندئذ محاكم للقضاة الإغريق ، فلا بد إذن من أن هذا اللقب كان أحد بقايا نظام القضاء البطلمى ، عندما كانت توجد تلك المحاكم التى كان يشرف عليها[٥] ، ولا بد أيضاً من أن نطاق عمل

---

(1) Strabo, XVII, c. 797 ; Bouché-Lecl., III, p. 154.

(2) Bouché-Leclercq, III, pp. 154 — 155.

(3) Mitteis, Grundzüge, II, p. 27 ; Koschaker, in Zeitsch. d. Savigny-Stiftung, XXVIII, pp. 245 ff. ; XXIX, pp. 1 ff.

(4) Schubart, Archiv, V. pp. 61 — 70.

(5) Jouguet, Vie, pp. 40. 168. 169 ; Bevan, p. 102.

الأرخيديكاستس كان يشمل فى عهد البطالمة **أيضاً** كل مصر . **ويؤيد هذا** الرأى ما يرجح من أن وثيقه بردية مشوهة من هرموپوليس بتاريخ ٢٤ يوليه سنة ٥٥ ق . م . كانت تحوى هذا اللقب[١] . لكن إذا صح هذا فلماذا لم يرد له ذكر فى الوثائق البردية من عصر البطالمة ؟ إنه لم يرد لهذا الموظف ذكر فى عصر البطالمة إلا مرة واحدة فى نقش يثبت مظاهر التشريف التى أغدقها أهل جزيرة ثيرا على شخص يدعى ديونيسيوس بن تيموناكس (Timonax) ، وصف بأنه أرخيديكاستس وبين الأصدقاء الأول للملك بطلميوس والملكة كليوبترة[٢] . ويحتمل أن هذا الشخص كان موظفاً قضائيا عينته حكومة البطالمة لجزيرة ثيرا ، ولم يكن له اختصاص فى مصر[٣] . ويحاول البعض تفسير صمت الوثائق المصرية عن ذكر هذا الموظف بأنه بالرغم من أن اختصاصه كان يشمل كل مصر ، فإن هذا الاختصاص كان مقصوراً على اختيار القضاة الذين كانت تتألف منهم المحاكم المختلفة ، ولم تكن له صلة بالمحاكم نفسها ولا باستئناف الأحكام[٤] . لكن إذا صح هذا فكيف يمكن إذن تفسير لقب « المشرف على محاكم القضاة الإغريق وعلى المحاكم الأخرى » ؟ لعلنا لا نعدو الحقيقة إذا اعتقدنا أن الأرخيديكاستس كان لا يفصل فى قضايا الاستئناف وإنما هو الذى كان يعدها للملك عند عرضها على محكمته ، ولذلك كان لا يرد له ذكر فى الوثائق . وعلى كل حال يبدو مما نعرفه أن استرابون قد أخطأ فى وصف الأرخيديكاستس بأنه من حكام الإسكندرية المحليين فى عهد البطالمة .

لم يبق إذن من الحكام الذين ذكرهم استرابون سوى الإكسيجيتس والنوكتربنوس ستراتجوس . ويوجد خلاف كثير حول اختصاصات الأول ،

---

(1) B. G. U. 1000 ; Bouché-Leclercq., III, p. 157.

(2) Homolle, B. C. H., II, 1878, p. 398 ; Strack, n. 169 ; O. G. I S. I, n. 136.

(3) Bevan, p. 102.

(4) Schubart, loc. cit.

وإن كنا نعرف أن اختصاصات الإكسيجيتس فى المدن الإغريقية ، مثل أثينا وإليوسيس وأولمبيا واسبرطة ، كانت تفسير الوحى وطلائع المستقبل وتطبيق التقاليد الدينية أو القوانين التى تستمد سلطتها من الديانة . وقد كان أول من تولى هذا المنصب فى الإسكندرية تيموثيوس ، الذى ساهم فى إنشاء عبادة سيراپيس[١] . وإذا كان اختصاص إكسيجيتس الإسكندرية مشابهاً فى الأصل لاختصاص نظرائه فى المدن الإغريقية ، فلا بد من أن اختصاصه قد اتسع كثيراً بمضى الزمن ، إذ يصف استرابون عمله بأنه كان « الإشراف على مصالح المدينة » ، وهو وصف غامض . لكن يبدو أن اختصاصه لم يعد مقصوراً على شئون الديانة ولا سيما أن استرابون يحدثنا بأن هذا الحاكم كان يرتدى رداء قرمزيا ويتمتع بمظاهر إجلال تقليدية ، مما يوحى بأن هذا الحاكم كان رئيس الحكام المحليين[٢] . وإذا قورنت أقوال استرابون عن الإكسيجيتس بما يصف به مرجع آخر[٣] كاهن الإسكندر والبطالمة المؤهلين من أنه كان « المشرف على المدينة ويرتدى تاجاً ذهبياً ورداء قرمزيا » فإنه يبدو لنا أن الإكسيجيتس كان أيضا ذلك الكاهن ، ولا سيما أن اختصاصات هذين المنصبين كانت قبل كل شىء دينية ، وأنه كان لهذين المنصبين مكانة سامية . ويؤكد هذا المرجع أنه كان من اختصاصات كاهن الإسكندر تطهير النهر والإشراف على زراعة أملاك التاج وعلى استخراج الزيت . وقد يكون هذا صحيحا ، إذا اقتصرت هذه المهام على منطقة الإسكندرية ، وكان الملوك قد منحوا الإسكندرية أملاك التاج هناك وتنازلوا عن احتكار إنتاج الزيت وبيعه فى هذه المنطقة . فإذا صح هذا وصح أن اكسيجيتس الإسكندرية كان أيضاً كاهن الإسكندر ، فإننا نجد هنا تفسيراً لقول استرابون الغامض بأن عمل الأكسيجيتس كان « الإشراف

---

(1) Bouché - Leclercq, III, pp. 159—160.

(2) Bevan, p. 103.

(3) Pseudo-Callisthenes, III. 33.

على مصالح المدينة » . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الإكسيجيتس كان أيضاً عميد دار العلم (Mouseion)[١] . وهـــذا محتمل لأن نقشا من عهد بطلميوس الثالث يحدثنا بأن شخصاً يدعى خريسترموس كان إكسيجيتس وعميد دار العلم[٢] ، ولأننا نعرف أن شخصاً يدعى يوليوس ڤستينوس (L. Julius Vestinus) كان فى عهد هادريانوس « رئيس كهنة الإسكندرية ومصر بأجمعها وعميد دار العلم » [٣].

أما عن النوكترينوس ستراتجوس (قائد الليل) فلا نعرف شيئاً ، وإن كان من المحتمل أن نرى فيه قائد المدينة(Strategos tes poleos) ، الذى وجد لقبه على لوحة من الجرانيت لايعرف تاريخها ولا المكان الذى وجدت فيه ، لكن يرجح أنها من عهد البطالمة الأواخر ، وأن الإسكندرية هى المدينة المقصودة [٤] . ويرى بعض المؤرخين أن هذا الحاكم كان فى بادىء الأمر الشخص الذى يحكم المدينة فى غيبة الملك ، لكن بمضى الزمن أصبحت وظيفته دائمة ، وأصبح يدعى « المشرف على المدينة » ، إلا أنه فى أواخر عصر البطالمة وفى عهد الرومان كان يدعى « قائد المدينة » . ويظن أن هذا الحاكم كان يشبه « حكمدار المدينة » (Praefactus Urbis) فى روما ، ولذلك يرجح أنه لم يكن قائد الإسكندرية العسكرى بل رئيس الشرطة فيها[٥] . وإذا صح أنه كان يوجد شبه بينه وبين « حكمدار مدينة » روما ، فإنه من المحتمل أنه كان يعين من قبل الملك للإشراف على المدينة ولم يكن حاكما يعينه المواطنون نفسهم[٦] . ومن المحتمل كذلك أنه كان يشرف على سكان المدينة الذين لم يكونوا فى عداد هيئة

(1) Mommsen, R.G. V, p. 568 ; Cf. Bouché-Leclercq, III, p. 161, fn. 2.

(2) B. C. H. III, 1879, p. 470; O. G. I. 104.

(3) C.I.G. 5900.

(4) Bouché-Leclercq, III, pp. 162—163.

(5) Breccia, p. 38.

(6) Bevan, p. 103.

المواطنين . وإذا صح هذا الاحتمال الأخير ، فلا بد من أنه كان يوجد ممثلون آخرون لسلطة الملك ، الذى كان الحاكم الفعلى المدينة .

ويبدو غريباً أن استرابون الذى يحدثنا عن الجمنازيوم لم يذكر رئيس الجمنازيوم (gymnasiarch) ، الذى لا بد من أنه كان من أهم الحكام المحليين ، لأن الجمنازيوم كان مقر حياة الإغريق الإجتماعية ورئيس الجمنازيوم كان الرئيس الإجتماعى لهيئة المواطنين(١). وفى العهد الرومانى عندما كانت تقع إضطرابات عنيفة ومصادمات بين إغريق الإسكندرية ويهودها ، كان رئيس الجمنازيوم هو الذى يمثل هيئة المواطنين الإغريق ويدافع عن قضيتهم فى روما أمام الإمبراطور(٢). فلا بد إذن من أنه كان لهذا الشخص مركز هام فى عصر البطالمة . وإذا كان استرابون قد أغفل ذكره فإننا نجده فى نقوش من الإسكندرية(٣).

* * *

إن جمال الإسكندرية وبهاءها وغناها قد أكسبتها شهرة واسعة ، استمر الكتاب القدماء يشيدون بها حتى بعد أن أخنى الدهر على هذه المدينة العظيمة وعفا الزمان على آثارها . فإن سيرياك من أنكونا (Cyriac of Ancona) ، وقد تأثر بما شهده فيها ، أطلق على أطلالها الباقية فى عام ١٤٣٥ « المدينة المجيدة » (Urbs nobilissima) . ويعتقد المقريزى أن الله عز وجل يشير إلى الإسكندرية عندما يذكر فى القرآن الكريم المدينة التى ليس لها مثيل . ويقول عنها أحمد بن صالح : « إنها الجعبة التى أودع الله فيها خير سهامه » .

وإذا توغلنا بين طيات الماضى ، فإننا نجد الكتاب فى عصر المسيحية وقبل

(1) Bevan, p. 104; Jouguet, Vie, p. 40.

(2) Wilcken, Zum Alex. Antisemitismus, Abh. d. sächs. Ges. d. Wiss. Phil. -- hist. Kl., XXVII, 1909.

(3) Neroutzos, L'anc. Alexandrie, p. 98, no. 10; Schubart, Klio, X, 57 8, n. 1.

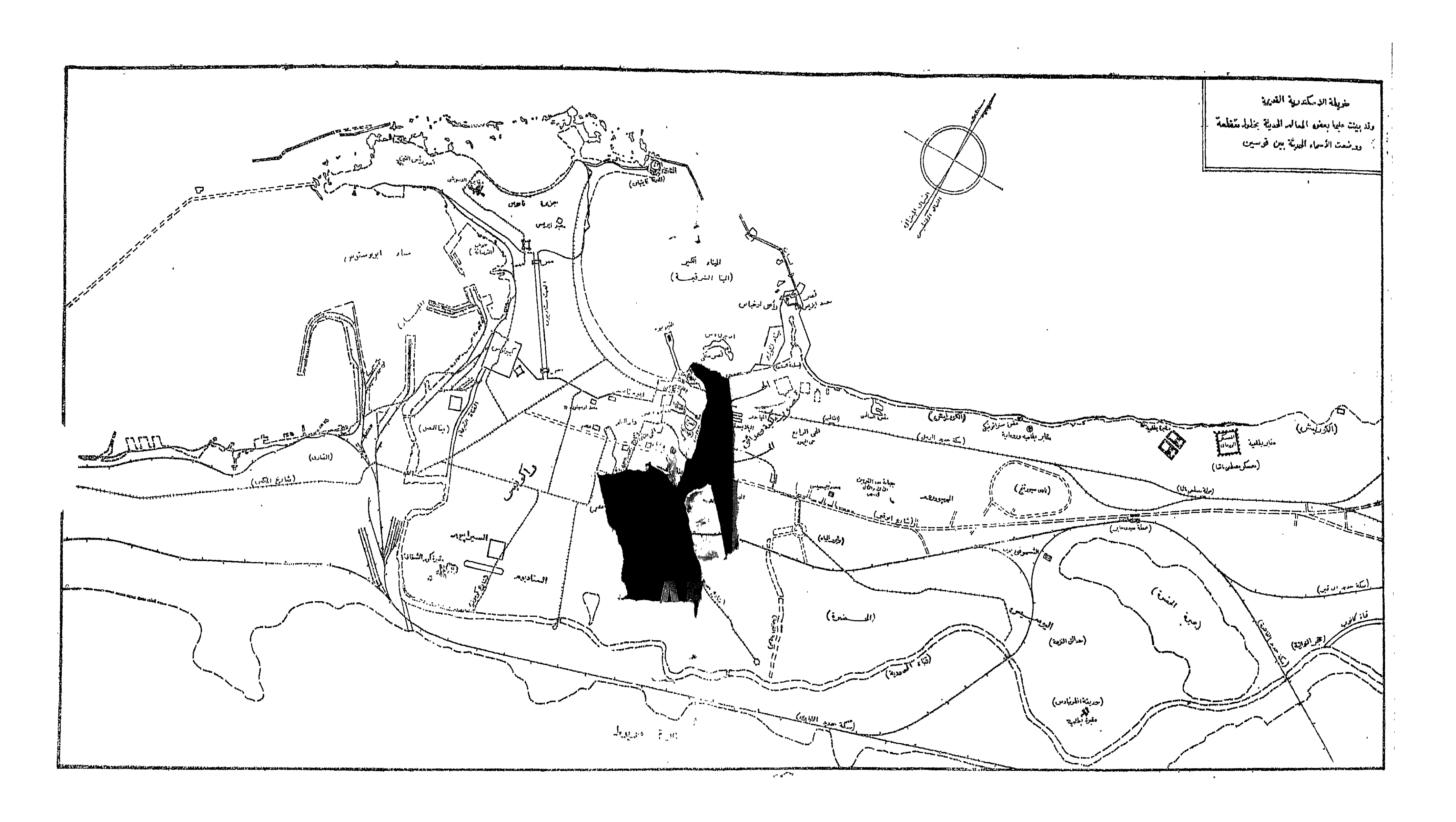
ذلك فى عصر الوثنية ، سواء أكانوا إغريقا أم رومان يكادون لا يذكرون الإسكندرية دون وصفها بما ينم عن عظمتها ومجدها وثرائها ، لأنها كانت فى نظر القدماء المدينة التى تحوى كل ما يمكن أن يحصل الإنسان عليه أو يرغب فيه . فيقول هيرونداس (Herondas) على لسان امرأة عجوز ، تتحدث إلى زوجة صغيرة رحل عنها زوجها إلى الإسكندرية : « لقد انقضت عشرة شهور منذ سافر ماندريس إلى مصر ، لكنه لم يرسل إليك كلمة واحدة . ولا شك فى أنه قد نساك وانتهل من منبع سرور آخر ! مصر ! (يقصد الإسكندرية) هناك حيث يوجد معبد الآلهة (ارسينوى) ، وكل شىء يمكن وجوده فى أى مكان آخر : ثراء وملاعب . ومجد وراحة وعظمة ومباهج وفلاسفة وذهب وشبان وملك كريم ودار للعلم وخمـــر وكل الأشياء الطيبة التى يمكن أن تتوق النفس إليها ، ونساء يفقن النجوم فى عددهن ويضارعن الآلهات اللائى إحتكمن إلى باريس ، فى جمالهن . . »[1] .

وكان أهل الإسكندرية يشتهرون بحبهم للعمل والمال وبميلهم للثورات وكل ما هو جديد وبشغفهم بالسخرية اللاذعة . وقد اشتهرت ألقاب السخرية ، التى كانوا يطلقونها على الملوك وفيما بعد على الأباطرة الرومان . ويشير إلى ذلك سنكا (Seneca) فيقول إن أهل الإسكندرية كانوا يحبون اللغو ويبرعون فى السخرية . ويقول الامبراطور هادريانوس عن أهل الإسكندرية ، إذا صح أنه مؤلف الكتاب المشهور الذى أرسل إلى أحد أقاربه : « لا يُبارى أهل الإسكندرية فى الإضطراب والغرور والأذى . ومدينتهم غنية ، تفيض بالخيرات ، ولا يوجد بها أحد عاطل ، فإنهم لا يعبدون سوى إله واحد هو : المال . . . » .

ويؤكد المقريزى أن أهل الإسكندرية كانوا جشعين ، ويصفهم كتاب

---

(1) Herondas, I, 23. A,


خريطة الإسكندرية القديمة
وقد بينت عليها بعض المعالم الحديثة بخطوط متقطعة
ووضعت الأسماء الحديثة بين قوسين
جزيرة فاروس
معبد ايزيس
الميناء الكبير
(الميناء الشرقية)
ميناء ايونستوس
رأس لوخياس
راكودس
السرابيوم
(الكورنيش)

آخرون بأنهم كاذبون وجريئون . وكان يجتذب الأجانب وأهل الأقاليم إلى الإسكندرية مباهج الحياة فيها أكثر مما كان يجتذبهم إليها علماؤها وأدباؤها ومعاهدها . ونستطيع أن نستدل على مفاسد الحياة فيها من أن قيصر كان لا يثق بجنوده الذين ينغمسون فيها . ويشبهها أحد الكتاب الحديثين بفلورنسا فى عهد أسرة مديتشى ، لأن وجه الشبه قريب جداً بين هاتين المدينتين فى النشاط الفنى والأدبى والثروة وحب الحياة البهيجة . ومن العجيب أن نلاحظ أن مطلع إحدى المقطوعات الشهيرة التى كان يترنم بها أهل فلورنسا يكاد يكون ترجمة مطلع إحدى المقطوعات التى كان ينشدها أهل السمر بأعلى أصواتهم فى شوارع الإسكندرية ، ومعناه « فلنأكل اليوم ونشرب لأننا سنموت غداً »[1] .

---

(1) Breccia, p. 35.

الاسكندر ووحى آمون

عندما استتب الأمر للاسكندر فى مقدونيا وبلاد الإغريق بادر إلى محاربة الفرس برغم كل ما كان يكتنف مثل هذه الحرب من صعاب . فقد كان تحت إمرة الفرس موارد تكاد لا تنضب فضلا عن تمتعهم بسيادة البحار ، على حين أن موارد الإسكندر كانت ضئيلة نسبياً ، ولا سيما أنه كان لا يستطيع الاعتماد على قوى الإغريق البرية أو البحرية . وقد استعاضت مقدونيا عن كل ذلك بما كانت تمتاز به من أنها أمة فتية قوية تتألف من جنود أشداء وتتسلح بأحدث الأسلحة والمعدات ويقودها ملك شاب يجمع بين المقدرة والجرأة ويشد أزره عدد من القواد المجربين .

ورأى الإسكندر أن الوسيلة المثلى للقضاء على سيادة الفرس البحرية هى الاستيلاء برا على قواعد الأسطول الفارسى الواحدة بعد الأخرى . ولذلك يبين أنه قرر ألا يستولى على شواطىء سوريا وفينيقيا فحسب بل على مصر وكذلك برقة ، فيضمن على هذا النحو سلامة مؤخرته ويترك الأسطول الفارسى بلا مأوى يلجأ إليه لإصلاح أى عطب يصيب المراكب أو بلد محالف يستمد منه المئونة أو المدد[1]. وقد كان فتح مصر ضروريا للإسكندر لأنه كان من ناحية بمثابة استكمال فتح فينيقيا ومن ناحية أخرى بمثابة ضمان لوضع بلاد الإغريق تحت رحمة الإسكندر ، لأن استيلاءه على مصر بعد الدردنيل كان يضع فى قبضته أكبر مصدرين تعتمد عليهما بلاد الإغريق فى استيراد ما تحتاج إليه من القمح . وفضلا عن ذلك فإن هذا الفتح كان يضع فى قبضته موارد مصر الغنية فيسهل عليه أن يتابع محاربة الفرس . ولعل عدم اطمئنان الإسكندر إلى مصر

---

(1) Bevan, Hist. Eg. under Ptol. Rule, p 1; Rostovtzeff, Hist. Anc. World, I, p. 332; Bell, Eg. from Alex. to Arab Conquest, 1948, p. 28.

لم يكن مبعثه خضوعها للفرس بقدر ما كان الخوف من أن تتخذها العناصر المعادية للإسكندر مأوى لهـــا ، أو الخوف من قيام ثورة وطنية فيها تقودها الارستقراطية المصرية — وكان لا يزال لها شأن كبير فى الدلتا — ويتحالف معها الإغريق ، فقد كان فى وسع مثل هذا الحلف إخضاع قبرص وفينيقيا وتهديد الإسكندر تهديدا خطيرا [1]. حقا إن استيلاء الإسكندر على فينيقيا قد أزال من طريقه الخطر الرئيسى الذى كان يتهدده لأن سفن فينيقيا وقبرص ، وكانت أفضل جزء فى الأسطول الفارسى ، انضمت عندئذ إلى الاسكندر ، غير أن اجيس (Agis) ملك اسبرطة كان لا يزال يعمل بنشاط على إثارة الحرب ضد الإسكندر [2]. وإلى جانب كل ذلك كان يوجد اعتبار سياسى له خطره فقد كان الإسكندر على وشك تكوين امبراطورية أغريقية أسيوية ، وكان لا يمكن تصور قيام مثل هذه الإمبراطورية دون أن يكون بحر إيجه بمثابة قطب الرحى فيها ، وكان يتعذر السيطرة على هذا البحر بل على شرق البحر الأبيض المتوسط دون السيطرة أولا على مصر [3].

وازاء كل ذلك فإن الاسكندر عندما دحر دارا الثالث ملك الفرس فى موقعة إسوس (Issos) فى خريف عام ٣٣٣ لم يتابع انتصاراته باقتفاء أثر الملك الأكبر الذى فر هاربا إلى بابل ، وإنما آثر أن يفتح أولا فينيقيا ومصر وبرقة . وما كاد يستولى على صور وغزة حتى يمم وجهه شطر مصر فبلغ بلوزيون (Pelousion) فى نوفمبر عام ٣٣٢ [4] وقد طوقته هالة من جلال انتصاراته الحديثة . ولم يجد مازاكس (Mazakes) ، الوالى الفارسى الذى كان يحكم مصر إذ ذاك ، مفراً من التسليم [5] لأنه أدرك أن المقاومة كانت غير مجدية

(1) Cf. Jouguet, Trois Etudes, p. 26 fn. 4.
(2) Wilcken, Alex. The Great, pp. 108 — 113.
(3) Cf. Ehrenberg, Alex, u Aegypten, Beiheft Alt. Orient, 7I, pp. 30 — 42.
(4) C. A. H. VI, p. 376. (5) Arr., Anab. III, 1, 1.

ولا سيما أن المصريين لم يخفوا عواطفهم نحو الإسكندر ، بسبب المصائب التى جلبها عليهم الفرس والمساعدات التى لقيها المصريون من الإغريق كلما حاولوا التخلص من ربقة الملك الأكبر[1] . وقد ظن المصريون أن الإسكندر قدم إليهم لينقذهم من بلائهم كما قدم الإغريق مراراً من قبل — إذ كان المصريون والإغريق حلفاء طبيعيين على عدوهم المشترك : الفرس — فرحبوا بالإسكندر دون أن يفطنوا إلى أن الإغريق لم يأتوا هذه المرة حلفاء وإنما ليفرضوا سيادتهم عليهم ويقيموا مكان الحكم الفارسى حكما قدر له أن يكون أشد بأسا وأطول بقاء .

ولما كان من بين الأسباب التى احفظت قلوب المصريين على الفرس أنهم انتهكوا حرمة الديانة المصرية ، فقد كان أول هم الإسكندر عندما حط رحاله فى منف هو أن يظهر احترامه للديانة المصرية فقدم القرابين فى معبد فتاح للآلهة الوطنية والعجل المقدس ابيس [2] ، بل يذكر مصدر قديم[3] أن الإسكندر رسم نفسه فرعونا فى معبد فتاح طبقاً للطقوس الدينية المصرية . ويشك بعض المحدثين[4] فى صحة هذه الرواية على أساس أن مصدرها عبارة عن مجموعة الأساطير التى نشأت منذ القدم حول الإسكندر ، وأن هذه الرواية اخترعت فى مصر لإرضاء الشعور القومى وإظهار الإسكندر فى ثوب خليفة الفراعنة الشرعيين . أما البعض الآخر من المحدثين فيرى أنه بالرغم من الشك فى قيمة هذا المصدر التاريخية فإن الفكرة ذاتها يمكن اعتبارها فوق مستوى الشك[5] . ولا يستبعد البعض صحة هذه الرواية وإن كان يرى أنه لم يكن هناك داع لإقامة طقوس التتويج ، وذلك لأن السماح

---

(1) Wicken, p. 113; Radet, Alex. Le Grand, p. 108

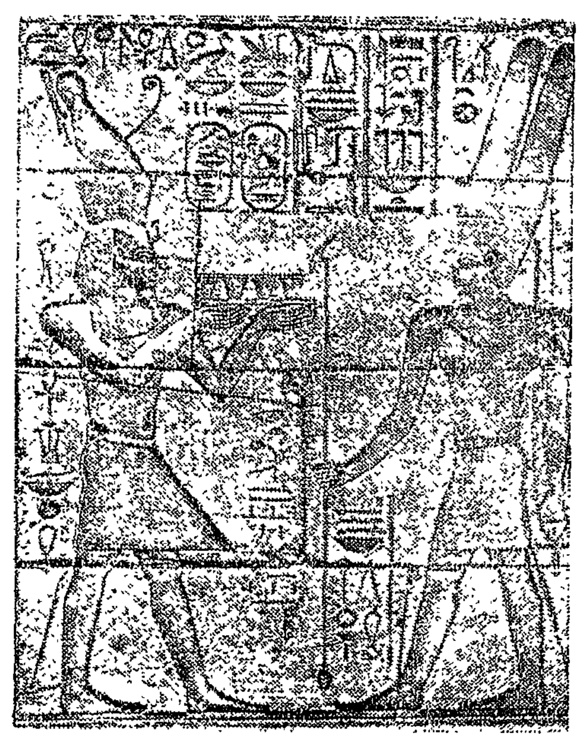
(2) Arr., III, 1, 1 – 4

(3) Pseudo — Callisthenes, A, 1, 34, 2.

(4) Bevan, p. 3, s.

(5) Wicken, p. 114.

للاسكندر بدخول قدس الأقداس باعتباره ملكا كان ينطوى على الاعتراف به منذ تلك اللحظة فرعون مصر الشرعى(١) . وهذا صحيح فى ذاته لأن فرعون وحده هو الذى كان يستطيع تقديم القرابين للآلهة ودخول قدس الأقداس وإن كان ينيب عنه عادة كبير الكهنة . لكن لما كان الاسكندر قد عنى بكسب عواطف المصريين بالظهور فى ثوب جدير بخليفة حقيقى للفراعنةالقوميين ، فإننا نرجح أنه حين ذهب إلى معبد فتاح فى منف لتقديم القرابين للآلهة المصرية قد توج أيضاً فرعوناً . وعلى كل حال فإننا نجد اسمه فى النقوش المصرية مشفوعاً بثلاثة من الألقاب الرسمية التى كان الفراعنة يحملونها منذ غابر الزمن(٢).



الأسكندر يرتدى ثيابا مصرية ويضع فوق رأسه تاجى الوجهين
ويقدم القرابين للآله آمون(معبد الأقصر)

(1) Jouguet, Nat. Eg. III, p. 2; Cf. Trois Etudes, pp. 15 — 17.

(2) Lepsius, Denk., Vol. IV, 4 C; Text III, p. 82; Sethe, Hierog. Urk., p. 8; Wilcken, p. 114; Jouguet, Trois Et., p .16.

وبعد أن فرغ الإسكندر من مهامه فى منف وضع أساس مدينة الاسكندرية[١]، وهى أول مدينة نعرف عن يقين أن الإسكندر أنشأها فى خلال حملته[٢] . وقد كان فى ضمير الدهر أن هذه المدينة ستصبح أعظم المدن التى حملت اسم الإسكندر بل أعظم عواصم العالم الإغريقى فى هذا العصر . ونحن نستبعد أن الإسكندر كان يفكر فى جعل الإسكندرية مقر امبراطوريته ، لأنه لو قصر امبراطوريته على الإمبراطورية الفارسية والعالم الإغريقى لكانت بابل بحكم موقعها افضل من الإسكندرية للاضطلاع بمهمة العاصمة . ولو صح ماقيل من أنه كان يريد فتح الغرب أيضاً[٣] لاتجه بتفكيره إلى أثينا بحكم ماضيها ومكانتها وموقعها . ولعل الأرجح أن الإسكندر ، وقد حطم منذ فترة قصيرة مدينة صور ، وكانت أكبر ميناء فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، كان يريد أن تكون الإسكندرية ثغراً مقدونيا يخلف صور فى العالم التجارى ، ولا سيما أنه لم يكن لمصر على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ميناء جدير بأهميتها وغناها ، وذلك بالرغم من أن علاقاتها مع عالم بحر إيجه كانت فى ازدياد مطرد منذ عدة قرون خلت . ولعل هدف الإسكندر لم يكن اقتصاديا فحسب بل كان حربيا وحضارياً بأن يجعل من الإسكندرية قاعدة بحرية تدعم سيطرته على بحر إيجه وشرق البحر الأبيض المتوسط ، ومركزاً لنشر الحضارة الإغريقية بين ربوع الشرق القديم .

وبعد أن وضع الإسكندر أساس مدينته الجديدة ، أخذ جزءاً من جيشه واتجه غربا فى محاذاة الشاطىء حتى وصل إلى پارايتونيون (Paraetonion — مرسى مطروح) حيث استقبل سفراء برقة ثم اتجه جنوباً وضرب فى بطن الصحراء حتى وصل إلى معبد آمون فى واحة سيوة . ويتساءل الناس عن سبب ذهاب الإسكندر إلى سيوة

(١) لا يأخذ أكثر الباحثين بما جاء فى ديودوروس (XVII, 52, 1) وكورتيوس (IV, 8, 1.) وجوستينوس (XI, 11, 3,) من أن الاسكندر أسس الإسكندرية فى طريق العودة من واحة سيوة .

(2) Arr., III, 1, 5.

(3) Cf. Diod. XVIII, 4; Tarn, J. H. S. 1921, pp. 1 ff.; 1939, pp. 124 ff.

عن طريق پارايتونيون مع أن الطريق الطبيعية من وادى النيل إلى سيوة كانت عبر وادى النطرون . ولا يمكن تفسير ذلك بأن الإسكندر قبل ذهابه مباشرة إلى سيوة لم يكن فى الوادى نفسه وإنما كان عند الأطراف الشمالية الغربية للدلتا من أجل تأسيس مدينته الجديدة ومن ثم كان أيسر عليه عندئذ أن يأخذ طريق باريتونيون ، إذ أن القرائن توحى بأن تأسيس الإسكندرية جاء عفو الخاطر ودون تدبير سابق . وإنما يمكن تفسير ذلك بما نعرفه من أن طريق پارايتونيون كانت الطريق الطبيعية التى يسلكها الإغريق فى ذهابهم إلى سيوة . ونحن نعرف كذلك أنها كانت أيضاً الطريق الطبيعية إلى برقة ، وأن الإسكندر كان يرغب فى الاستيلاء على كل شرق البحر الأبيض المتوسط لكى يترك أسطول أعدائه معلقاً فى الهواء ، ولاسيما أن برقة كانت أقليما هاماً يهدد سلامة حدود مصر الغربية إذا وقع فى قبضة يد قوية . ولا داعى لأن نذهب بعيداً فى التدليل على أهمية برقة لمصر ، إذ أن ما وقع على حدود مصر الغربية من أحداث الحرب العالمية الثانية مازال ماثلا فى الأذهان . فهل كان الإسكندر يعتزم إخضاع برقة ؟ أم أنه لم يعبأ بتركها مفتوحة أمام أعدائه ؟ أى هل يمكن أن يكون قد غفل عما وضعه البطالمة نصب أعينهم ؟ إزاء هذه الاعتبارات وما تذكره بعض المصادر القديمة من أنه عندما وفد الإسكندر على پارايتونيون وجد فى انتظاره سفراء برقة الذين أهدوا إليه بضع مئات من الخيول الممتازة دليلا على خضوع بلادهم له[1] ، نرجح أن الإسكندر كان ينشد السيطرة على برقة وأنه تعمد الذهاب إلى سيوة عن طريق پارايتونيون ليتخذ الطريق التى ألف الأغريق أن يسلكوها عند حجهم إلى معبد آمون ، وليقوم بمظاهرة عسكرية تلقى أنباؤها الرعب فى برقة فتبادر إلى إعلان خضوعها له إذ أنه لم يكن فى وسعها مقاومته ، وبالفعل قابله سفراؤها فى پارايتونيون وقدموا له فروض الطاعة .

---

(1) Cf. Diod. XVII, 49, 2; Q. Curtius, IV, 7, 9; Bevan, pp. 9 — 10; Wilcken, 123.

ومن پارايتونيون توغل الإسكندر فى قلب الصحراء وقطـــع المسافة حتى واحة سيوة فى إثنى عشر يوما تحدثنا كل المصادر القديمة [١] بأنها كانت حافلة بالأخطار والغرائب ، ممـــا اعتبر دليلا على عطف الآلهة على الإسكندر ، وإن كان من اليسير تفسير هذه الظواهر اليوم على أنها ظواهر طبيعية عادية [٢] . وقد كان الرأى السائد حتى منتصف القرن التاسع عشر هو أن معبد أم عبيده كان معبد الوحى المشهور ، لـــكنه منذ زار هاميلتون معبد أغورمى فى عام ١٨٥٣ اتجه الرأى إلى اعتبار هذا الهيكل معبد الوحى [٣] . وتدل بقايا هذا المعبد على أن بناءه قد أعيد فى عهد الحـــكم الفارسى وأنه كان يتألف من فناءين وصالة تقوم وراءها ، على نفس المحور ، قاعة قدس الأقداس وإلى جانبها الأيسر قاعة مربعة الشكل تقريبا وإلى جانبها الأيمن وخلفها دهليز ضيق . ولمـــا كان قد وجد فى الواجهة الخلفية للجدار الشرقى لقدس الأقداس المطلة على الدهليز ثلاث فتحات على ارتفاع ٦٦ سم من الأرضية وكذلك تجويفان قرب السقف ، وكانت هناك صلة وثيقة بين هذا الجزء من المعبد وبين الوحى ، فقد استخلص من ذلك أن الكلمات التى كانت تسمع فى البهو ويتصور الناس أنها صادرة عن آمون كان مصدرها فى الواقع كاهنا يختفى فى الدهليز [٤] .

وقدس الأقداس حجرة متوسطة الحجم كان يقوم فى وسطها مركب آمون المقدس الذى كان يستقر فيه تمثال الآله . ويحدثنا كورتيوس [٥] بأن تمثال آمون

---

(1) Diod. XVII, 49, 4 — 5; Strabo, XVII, 1, 43; Curt. IV, 7, 12—15 : Plut., Alex. XXVII, 1 — 2; Arr. , 3 — 4, 6.

(2) Cf Bayle St. John, Adventures in the Libyan Dese t, p. 69.

(3) J. Hamilton, Wanderings in North Africa, London, 1856, pp. 282 ff.; Rohlfs, Von Tripolis nach Alex., pp. 103 ff.; Steindorf, Durch die Libysche Wüste, pp. 118, 122; Z. A. S., 69, pp. 2. 3; Fakhry, Siwa Owasis, 1944, pp 83 — 5.

(4) Fakhry, op. cit., p. 88; Noshy, Annales de la Faculté des Lettres, II, 1953, p. 81 fn 1.

(5) Curtius, IV, 7, 23 .

سيوة كان كتلة مخروطية الشكل « Omphalos » تتكون من الزمرد وغيره من الأحجار الكريمة . وعندما عثر رايزنر « Reisner » فى نپاتا داخل المعبد الكبير لآمون على كتلة من الحجر الجيرى مخروطية الشكل بادر جريفيث إلى بيان وجه الشبه بين هذا الأثر وتمثال آمون سيوه على نحو ما يصفه كورتيوس وكذلك تمثال « omphalos » معبد الوحى فى دلفى ، واستخلص من ذلك أنه لا بد من أن أثر نپاتا يتصل بوحى نوبى هناك ، وأن فكرة صنع تماثيل للآلهة على هذا النحو مأخوذة من دلفى [1] . وقد اعتنق هذا الرأى وينرايت « Wainwright » الذى وجد شبها بين هذا الأثر وبين تمثال آمون سيوة وتماثيل مصرية مماثلة [2] . وأول الأمر أيد شتايندورف « Steindorf » فكرة جريفيث واستخلص من قرب الشبه بين أثرى سيوة ونپاتا وجود صلة قوية بين وحى آمون سيوة ووحى آمون الذى قيل بوجوده فى نپاتا [3] . غير أن شتايندورف لم يلبث أن ناهض هذا الرأى عندما رأى بنفسه أثر نپاتا وتبين له أنه فى شكل خلية نحل فى واجهتها نافذة (٢٤ر٠ × ٢٠ر٠ مترا) وفى قاعدتها تجويف (حوالى ٠٨٥ر٠ × ١٣ر٠ مترا) يسمح بوضع تمثال صغير . وقد خرج من ذلك بنتيجة تتلخص فى أن أثر نپاتا ليس تمثالا للاله آمون وإنما هيكل صغير صنع على شكل كوخ إفريقى كان يوضع داخله تمثال الآله ، وفى أن ذلك كان أيضا شأن تمثال آمون سيوة [4] .

ويعتقد ماسپرو أن تمثال آمون سيوة ، كغيره من التماثيل التى يصدر عنها الوحى ، كان مصنوعا بحيث يمكن تحريك رأسه أو ذراعيه أو يديه عندما يجذب الكاهن المختص حبلا معينا [5] . وقد اقتفى راديه « Radet » أثر ماسپرو

(1) J E. A. III, 221.

(2) Annales, XXVIII, 184.

(3) Z. A. S., 69, 23.

(4) J. E A., XXIV, 147 — 150.

(5) Maspero, Ann. Ec. Prat. Hautes Et., 1897, p. 9 et n. 6; Etudes de Myth. et d'Arch. eg., VI, 1912, p. 271.

فى هذا الرأى [١] ، لكنه لم يلبث أن عدل عنه ونادى بالرأى الآخر [٢] .

فأى الرأيين إذن أصح ، أو بعبارة أخرى أكان الشكل الذى صور فيه آمون سيوة تمثالا كتماثيل غيره من الآلهة ، أم أنه كان كتلة مخروطية الشكل ؟ إزاء وصف كورتيوس الذى لم ينقضه ما ورد فى غيره من المصادر القديمة ، وإزاء ذلك الأثر الذى عثر عليه فى نپاتا وأشباهه التى وجدت فى الكرنك [٣] ومدامود [٤] ومدينة هابو [٥] ومنف [٦] وأسيوط [٧] نشارك غالبية المحدثين فى ترجيح الرأى الثانى [٨] .

ومهما اختلف الباحثون حول شكل صورة الآله فانها ، وفقا لرواية ديودوروس[٩] وكورتيوس[١٠] ، كانت توضع فى مركب آمون المقدس ، وعند إجابة الوحى عما يوجه إليه من الأسئلة كان يحمل المركب وداخله صورة الآله عدد من الكهنة يدورون فى ارجاء المعبد ومن ورائهم الكاهنات يرتلن الأناشيد .

ويمضى ديودوروس فيقول إن عدد الكهنة الذين يحملون المركب فى هذا المهرجان كان يبلغ الثمانين ، وإنهم كانوا يطوفون فى المعبد على هدى توجيهات الآله لهم . ويحدثنا استرابون[١١] ، نقلا عن كاليسثينيس ، بأن إجابات الوحى كانت لاتصدر فى شكل كلمات ، مثل ما كانت عليه الحال فى وحى دلفى وبرانخيداى ، وإنما كان يُعبر عنها أساساً باشارات وإيماءات ، ومع ذلك فإن الكاهن الذى

---

(1) Radet, Alex. le grand, p. 120.
(2) Melanges Bidez, Ann. Inst. Phil. et Hist. Orien., II, 784.
(3) Daressy, Annales, IX, 1908, 64 — 9.
(4) Fouilles I FAO. II, lere Partie, Medamoud, 48 — 53, pl. VI,
(5) Daressy, op. cit., p. I, 11.
(6) Daressy, Annales, III, pp. 139 - - 40.
(7) Wainwright, loc. cit.
(8) Cf. Jouguet. Trois Et., p 22 fn. 1.
(9) Diod., XVII, 50.
(10) Curt. IV, 7.
(11) Strab. XVII, 1, 43.

كان يعبر عن النبوءات (Prophet) ويقوم بدور الآله قال للاسكندر فى وضوح إنه ابن زيوس .

وإزاء صمت رواية استرابون عن المهرجان الذى يذكره ديودوروس وكورتيوس يمكن افتراض أحد أمرين وهما :

إما أن المهرجان لم يوجد إلا فى خيال كلايتارخوس (Kleitarchos) الذى استقى منه ديودوروس وكورتيوس معلوماتهما ، أو أنه كان يوجد فعلا مهرجان . وفى هذه الحالة إما أن استرابون لخص رواية كاليسثينيس تلخيصا معيبا بحيث أغفل الإشارة إلى جزء اساسى من الطقوس أو أن استرابون برىء من ذلك ويجب البحث فى روايته عن هذه الإشارة .

إن الرأى السائد اليوم هو أنه كان يوجد مهرجان[١] . ويرى بعض الذين يعتقدون أن تلخيص استرابون معيب أن « الإيماءات والإشارات » كانت حركات المركب والتمثال وأن الكاهن كان يقوم بتفسيرها ؛ وفى رأى فريق آخر أنها كانت تصدر عن الكاهن الذى يعبر عن النبوءات ويقوم بدور الآله تفسيراً لحركات المركب والتمثال . لكننا لا نستطيع قبول هذين الرأيين لأنهما يتضمنان أن أمر إجابات الوحى كان فى الواقع متروكا لتصرف حملة المركب من كهنة كانوا بطبيعة الحال أقل مرتبة ودراية من الكاهن المعبر عن النبوءات على حين قصر دور هذا الكاهن على مجرد تفسير تصرفات مرءوسيه .

أما الذين يرون أن رواية استرابون لا يشوبها أى نقص ، فإنهم يجدون الإشارة إلى المهرجان فى كلمة (themisleia) وردت فى الفقرة التى تسبق مباشرة الفقرة التى أوردنا مجملها ، وهم يقترحون أن معنى هذه الكلمة فى هذا السياق ليس « إجابة الوحى » وإنما طقوس يقصد بها المهرجان . لكن يبدو لنا أن هذا التفسير غير مقبول لأن المعنى المقترح لا يتمشى مع سياق الحديث

(1) Jouguet, Trois Et., p 23 fn, 1, pp. 23 — 5.

فى تلك الجملة التى تتحدث عن « سماع » لا «مشاهدة» themisleia . وقبل أن ندلى برأينا فى هذه المسألة نحب أن نستعرض أولا ما لدينا من شواهد عن مصادر الوحى الأخرى فى مصر ولا سيما عن وحى آمون فى طيبة .

إن عدداً من وثائق طيبة الفرعونية[١] يدل على وجود مهرجان ، لكن بينما توحى بعض الوثائق بأن إجابات الوحى كانت تصدر عن التمثال الذى يحمل فى المهرجان ، توحى البعض الآخر بأنها كانت تصدر عن كاهن . وقد ورد فى بردية من عهد رمسيس الرابع أنه كان يعبر عن إجابات الوحى فى أثناء المهرجان بإيماءات وكلمات[٢] . وتشير بردية أخرى إلى أن إجابة الآله كانت على لسان أحد كهنته[٣] . ويرى البعض أنه لما كانت عدة وثائق توحى إلينا بأنه كانت لا تصدر عن تمثال الآله المستنبأ إيماءات فحسب بل كلمات كذلك ، فلا بد من أنه كانت تصل إلى اسماع الناس كلمات كانت بطبيعة الحال ينطق بها كاهن أدخل فى عقول الناس أن الاله قد تقمصه وأنه يقوم فعلا بدوره[٤] . ومن المحتمل أنه لأسباب بديهية كان الكهنة يتجنبون التعبير للناس عن إجابات الوحى بكلمات يلقون بها إليهم مباشرة ، ويلجئون بدلا من ذلك إلى وسيلة تتفق وماعرف عنهم من الأساليب الغامضة على نحو ما يتصور ماسپرو[٥] حين ينهى إلينا أنه كان يوجد فى بناء معبد خنسو إلى يسار قدس الأقداس وبالقرب من السقف تجويف لعله كان المكان الذى يختبىء فيه الكاهن الذى ينطق بإجابات الوحى .

ويؤكد تشرنى (Cerny) أن الأسئلة كانت توجه إلى الوحى إما شفويا أو كتابة[٦] . وبعد دراسة عدد من الأوسترا كا ونقش پينودجم (Pinodjem)

---

(1) Cerny, B. I. F. A. O. 35, pp, 41—58 ; Fachry, op. cit., p 43; Blackman, J. E A., XI, op. 249 — 55; XII, pp. 176 — 8 5.

(2) B. M Pap. 10335; Blackman, J. E. A XI, p. 253.

(3) B. M Pap. 10417; J. E. A. X11, pp. 184 — 5.

(4) Blackman, J. E. A , XI, pp. 254 — 5.

(5) Maspero, Art in Egypt, 1921, p. 234.

(6) Cerny, op. cit., p 41.

توصل هذا الباحث إلى رأى يقضى على الفكرة القائلة بأن تمثال الوحى كان مصنوعا بحيث يستطيع تحريك بعض أجزائه . فقد استخلص من الوثائق أن المستنبىء كان يوجه سؤاله إلى الوحى فى صيغتين تحمل إحداهما معنى النفى والأخرى الإيجاب ، وتوضع قطعة الشقافة التى تحمل الصيغة الأولى خلف تمثال الإله والقطعة التى تحمل الصيغة الثانية أمام التمثال . وبعد ذلك كان التمثال يتحرك نحو إحدى هاتين القطعتين للدلالة على أن إجابة الوحى بالنفى أو الإيجاب[1].

وإذا صح هذا الرأى فيما يخص الأسئلة المكتوبة ،فإننا نستطيع أن نتصور أنه فى حالة الأسئلة الشفوية كان المستنبىء يلقى سؤاله فى أثناء سير المهرجان ، فإذا تقدم التمثال كان معنى ذلك أن الرد بالإيجاب وإذا ارتد راجعاً كان الرد بالنفى .

وإذا كان هذا الرأى يقضى على الفكرة القائلة بأنه كان يمكن تحريك بعض أجزاء تمثال الإله ، فإنه لا يلقى ضوءا على الاشارات والإيماءات التقليدية . ونحن نعتقد أنه إذا كان فى وسع الكاهن المعبر عن النبوءات التعبير عن مشيئة الإله بكلمات ينطق بها ، فمن المؤكد أنه كان يستطيع التعبير عن هذه المشيئة بإشارات وإيماءات تبين لحملة تمثال الإله الاتجاه الذى يسيرون فيه . ومن ثم فإنه حين تتحدث النصوص عن الإشارات والإيماءات التى تصدر عن الإله أو تمثاله يجب أن يكون مفهوما أن المقصود بذلك هو الإشارات والإيماءات التى تصدر عن الكاهن المعبر عن النبوءات للإعراب عن مشيئة الإله وبيان الاتجاه الذى يسير فيه حملة التمثال .

والآن يمكننا أن نستخلص مما أسلفناه : أولا أن المهرجان كان جزءا لايتجزأ من طقوس استنباء الوحى ؛ وثانيا أن تمثال الإله كان لا يستطيع تحريك

(1) Cerny, op. cit., pp. 57 — 8

أى جزء من أجزائه ؛ وثالثا أن الكاهن المعبر عن النبوءات كان يقوم بدور الإله فتصدر عنه إجابات الوحى إما شفاها أو بإشارات أو إيماءات تعبر عن مشيئة الإله وتوجه حملة التمثال .

إننا لا نستطيع أن نجد أى شارة إلى المهرجان فى رواية استرابون ، لكن لما كانت القرائن تؤيد وجود المهرجان فإننا نستطيع أن نعزو الخلاف بين رواية استرابون ورواية كل من ديودوروس وكورتيوس إلى عيب فى رواية استرابون .

ونحن نرى أن الإيماءات والإشارات التى ورد ذكرها فى رواية استرابون كانت تصدر عن الكاهن المعبر عن النبوءات ، ويؤيد رأينا قول استرابون أن هذا الكاهن كان يقوم بدور الإله . ورب معترض يقول وما كانت إذن فائدة المهرجان إذا كان الكاهن يعبر عن مشيئة الإله ، ويوجه حركات حملة مركبه وتمثاله . يبدو لنا أن المهرجان لم يكن فى الواقع أكثر من مظاهرة يراد بها أن يلقى فى روع الناس أن إجابات الوحى كانت تصدر عن الإله نفسه الذى كان يعبر عن مشيئته بحركات مركبه . ويبين أنه فى بعض الأحيان كانت فى سيوة أيضا تعطى إجابات الوحى شفاها لأنه عندما سئل الإسكندر لماذا كان يقدم القرابين لمجموعة بذاتها من آلهة الهند أجاب بأن آمون قد أوصاه بالآلهة التى يقدم القرابين إليها [1] . ومن الجلى إنه كان لا يمكن أعطاء مثل هذه الإرشادات بالأشارات أو الايماءات أو التقدم نحو الأمام أو التراجع نحو الخلف . ولعل هذا يفسر فائدة الفتحات أوالتجويفين فى الواجهة الخلفية للجدار الشرقى فى قدس الأقداس ، فقد كان فى وسع الكاهن المعبر عن النبوءات أن يتكلم خلل أى واحدة منها فيدخل فى روع الناس أن الإله نفسه هو المتكلم .

ولما كان الإسكندر قد رسم فرعونا فى منف وأصبح تبعاً لذلك « ابن آمون

(1) Arr. VI, 19, 4.

رع » مثل من سبقه من الفراعنة ، فإن كبير الـكهنة الذى رحب بمقدمه عند وصول ركبه إلى معبد الوحى خاطبه بلقب « ابن آمون » (١) ودعاه وحده لدخول قدس الأقداس حيث سأل الوحى عما يريد الوقوف عليه وتلقى الإجابة عن أسئلته . أما رفاقه فإنه لم يسمح لهم إلا بدخول فناء المعبد فقط وذلك بعد تغيير ملابسهم ، وهناك القوا بأسئلتهم واجيبوا عنها (٢) .

وقد كان فرعون قبل زيارة أى معبـد يغتسل ويتطهر ويتطيب ويرتدى ثيابه الرسمية وخاصة تاج الوجهين . وإذا كان من المرجح أن الإسـكندر قد فعل ذلك فى منف ، فإنه عندما زار معبد آمون فى سيوة أحتفظ بملابسه العادية ، مما ينهض دليلا على أنه قد قام بهذه الزيارة باعتباره قبل كل شىء ملك مقدونيا والقائد الأعلى للاغريق ، وكذلك على أن الأهداف المحلية كانت تأتى عنده فى المرتبة الثانية بعد أهدافه الدولية (٣) .

وعندما خرج الإسكندر من قدس الأقداس وعاد إلى صحبه فى الفناء وسأله أصدقاؤه عما حدث لم يجب إلا بقوله إنه قد سمـع ما سره (٤) . وتدل إجابة الإسـكندر على أنه اعتبر رد الوحى على أسئلته سرا ، ولعله قد فعل ذلك لأمر فى نفسه أو ربما كان الكاهن الأكبر قد أفهمه أن التقاليد المصرية تقضى بذلك لأن الإله خاطب أبنه (٥) . وعلى كل حال فإن الإسكندر كتم السر ، إذ أنه كتب

---

(1) Curt. IV, 7, 25; Plut., Alex., XXVII, 6; Diod., XVII, 51, 1.

ومن المرجح أن الـكاهن الأكبر كان يعرف الإغريقية والا لاضطر الاسكندر إلى أن يصحب معه إلى قدس الأقداس مترجما ، ولو كان ذلك قد حدث فعلا لانتشر سريعاً بين الناس خبر كل ما دار هناك بين الاسكندر والوحى (Tarn, II, p. 348) . وفضلا عن ذلك فان معبد الوحى فى سيوة كان قبلة وفود لا تنقطع من مختلف أنحاء العالم الأغريقى . وإزاء هذه الصلات الوثيقة مع الإغريق لا بد من أن كهنته أو على الأقل بعضهم كانوا يلمون باللغة الإغريقية .

(2) Strabo XVII, 1, 43; Wilcken, op. cit. p. 125; Tarn, II, pp 347—8; Jouguet, Trois Et., pp. 24—5.

(3) Radet, Alex., p. 121.

(4) Arr III, 4, 5.

(5) Wilcken, p. 126.

بعد ذلك بقليل إلى أمه أوليمبياس بأنه أبلغ توجيهات سرية سيفضى بها إليها عند عودته إلى مقدونيا[١] ، غير أنه توفى قبل ذلك وحمل سره معه إلى القبر .

وإذا كنا لن نعرف عن يقين الأسئلة التى وجهها الإسكندر إلى الوحى والإجابات التى فاز بها ، فإنه لا يصعب استنتاجها فى ضوء مشروعاته التالية وإجاباته على أسئلة أصدقائه ، وكذلك فى ضوء العرف والتقاليد المصرية القديمة .

وبالرغم من أن الاسكندر قد كتم ما دار بينه وبين الوحى ، فان كلايتارخوس لم يلبث بعد انقضاء بعض الوقت أن كتب يقول إن الاسكندر سأل الوحى عما إذا كان قتلة أبيه قد عوقبوا وأن الوحى نهاه عن مثل هذا التساؤل الفاحش لأن أباه إله ولا يمكن أن يمسه سوء . وعندئذ سأله الاسكندر عما إذا كان كل قتلة فيليب قد عوقبوا فرد الوحى بالإيجاب . وبعد ذلك تساءل الاسكندر عما إذا كان سيصبح سيد العالم وكان الرد بالإيجاب[٢] . وإذا كان الشك يرقى إلى تصوير ما حدث داخل قدس الأقداس على هذا النحو المفصل لأن الاسكندر احتفظ بذلك سراً لم يبح به لأحد ، فاننا لا نرى سبيلا إلى الشك فى أن الوحى اعتبر الاسكندر ابن الاله الأكبر آمون ، لأن الاسكندر كان فرعونا ولأن كل فرعون منذ حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . كان يعتبر رسميا ابن الإله آمون رع . ولا سبيل إلى الشك أيضا فى أن الوحى قد منح الاسكندر السيطرة على العالم باسره ، لأنه كان جزءاً من طقوس الإله آمون أن يسأل الكاهن الاله باسم فرعون السيطرة على العالم بأسره فيمنحه الاله هذه السيطرة[٣] . ومن ثم يبين أن زيارة الاسكندر لمعبد الوحى فى سيوة قد تمخضت على الأقل عن الاعتراف بأصله الالهى وبحقه فى السيطرة على العالم أجمع . ويروى كاليسثينيس أنه فى عام

(1) Plut., Alex., XXVII, 5.

(2) Cf. Diod. XVII, 51, 2 — 3; Curt. IV, 7, 27; Just. XI, 11, 9; Plut. Alex., XXVII, 3.

(3) J. H. S., XLI, 1921, p. 2: C. A H. VI, p. 378.

٣٣١ جاء منف رسل من ميليتوس لينشروا فى الناس ما أعلنه وحى برانخيداى من أن الاسكندر ولد من أب سماوى ومن أنه سيسيطر على العالم أجمع . ويمضى كاليستينيس فيضيف أن وحى اريترای(Erythrae) أكد أصل الاسكندر السماوى وسيادته العالمية [١] .

وهل كان من باب الصدفة أن تعلن ثلاثة مصادر للوحى فى أوقات متقاربة أصل الاسكندر السماوى وتتنبأ ببسط سلطانه على العالم كله ؟ أم أن الاسكندر كان يستهدف الفوز بذلك من مصادر الوحى ، وأن هذه المصادر بحكم ما جبلت عليه من الاستجابة عادة إلى رغبات أصحاب السلطان لم تخيب رجاء الاسكندر ؟ لعلنا نستطيع الإجابة عن ذلك عندما نتبين الأهداف التى كان الاسكندر ينشدها من وراء حجه إلى معبد الوحى فى سيوة .

لا يجادل أحد فى أمرين : وأحدهما مكانة هذا المعبد ، الذى كانت تقوم صلات وثيقة بينه وبين الذين يقيمون على القرب منه أو على البعد عنه — فى برقة وقرطاجه وكذلك فى آسيا والمدن الأوربية الإغريقية ولا سيما أثينا واسبرطة — فقد كان هذا المعبد يتمتع منذ عدة قرون بشهرة عالمية تضارع ما كان لمعبد زيوس فى دودونا (Dodona) ومعبد أبولو فى دلفى (Delphi)[٢] .

ولا أدل على شهرة هـــذا المعبد من أن كرويسوس[٣] وكيمون[٤] والكيبياديس[٥] وليساندر [٦] استشاروا إله هذا المعبد . كما استشاروا أعظم آلهة الإغريق ، ومن أن الشاعر الكبير بندار (Pindar) أنشأ فى آمون سيوة قصيدة لم تصل إلينا . ومن أن الإغريق أمثال أهل إليس (Elis) واسبرطة وأثينا كانوا يوفدون الرسل لاستلهام آمون الوحى ؛ ومن أن يوريبيديس

(1) Strabo XVII, 1, 43; Cf. Tarn II, p. 357.
(2) Radet, Alex. p. 112.
(3) Herodot. 1, 46.
(4) Plut., Cimon XVIII, 8.
(5) Plut., Nicias XIII, 2.
(6) Plut., Lysander, XX, 6.

يتحدث عن « مقر آمون غير الممطر » كما لو كان مكاناً مألوفا للإغريق يهرعون إليه كلما كانوا فى حاجة إلى نصيحة إلهية[١] ؛ ومن أن الأثينيين أتموا قبل عام ٣٣٣ تشييد معبد للإله آمون فى أثينا[٢] وأطلقوا على مركبهم المقدس اسم « سالامينيا أمونياس Salaminia Ammonias »[٣] ؛ ومن أن أريسطوفانيس قد شاد فى رواية « الطيور » بمعبد آمون فى واحة سيوة[٤] ؛ ومن أن أفلاطون قد ذكر فى كتابه « القوانين » وحى آمون جنباً إلى جنب وحى دلفى ودودونا[٥] . وإزاء ما كان يتمتع به معبد آمون سيوة من مكانة عالية وافتقاره إلى هذه المكانة فى نظر المصريين وأقدام الإسكندر على زيارة هذا المعبد بدلا من معبد آمون طيبة صاحب المكانة العظمى لدى المصريين ، يبين أنه إذا كانت للاسكندر أهداف سياسية من وراء هذه الزيارة ، فلابد من أنه كانت لهذه الأهداف صبغة دولية، وأن احتفال الإسكندر بالرأى العام الإغريقى كان مقدما على احتفاله بالرأى العام المصرى .

والأمر الآخر الذى لا يثير جدلا أن الإسكندر كان يتغى غايتين من وراء حجه إلى معبد آمون سيوة ، وإحداهما إشباع ميوله للمخاطرة ورغبته فى اقتفاء أثر بطلى الأساطير الإغريقية برسيوس (Perseos) وهرقل (Hercules)، اللذين شاع الاعتقاد أن الإسكندر ينحدر من سلالتهما ، فقد ورد فى المصادر القديمة أن هذين البطلين تزودا بمشورة آمون سيوة قبل أن يقدما على جلائل أعمالهما[٦] . ويجب ألا يغرب على البال أن ما نعتبره اليوم قصصاً وأساطير كان فى نظر الإغريق

---

(1) Meyer, Alex. der Grosse, pp. 302 — 4; Radet, Rev Et. anc , 1925, pp. 201 — 2; 1926, 216; Mallet, op. cit. pp. 170 — 1; Jouguet , Nat. Eg. p. 4; Bevan pp. 8 — 9; C. A. H. VI, p. 377; Ehrenberg, pp. 30 ff.

(2) Ditt 281, ll. 15, 29; cf. 289 l. 19; 1029, l, 33.

(3) Arist., Pol. Ath. 61., C. A H. VI, pp. 377, 442.

(4) Aristoph., Orinthes, 619, 716.

(5) Plato, de leg. vol. I, Bk V, 738.

(6) Strabo, XVII 43, C. 814; Arr. III, 3, 1 — 2.

القدماء تاريخاً صحيحاً [١]. والغاية الأخرى هي استطلاع رأى الوحى فى نجاح مشروعاته [٢] ، أو بعبارة أخرى الحصول أمام الرأى الدولى العام على تأييد الإله آمون لهذه المشروعات ، التى يميل أغلب المؤرخين إلى اعتبار أنها كانت تنطوى على بسط سيطرته على العالم [٣] ، وإن كان البعض يستبعد ذلك [٤] . ويتفق أكثر المؤرخين ، قدماء ومحدثين ، على أنه عندما وصل الإسكندر إلى معبد الوحى كان فى استقباله عند المدخل كبير الكهنة الذى ناب عن الإله الأكبر فى تحيته ومناداته بلقب « ابن آمون » [٥].

لقد ذكرنا أن الجدل لم يثر حول توخى الاسكندر من وراء زيارته معبد آمون سيوة الغايتين اللتين سلفت الإشارة إليهما ؛ لكن أكانت هاتان الغايتان هما كل ما استهدفه الإسكندر من وراء هذه الزيارة ؟ هنا مثار الجدل ، ففريق يرى أن الاسكندر كان يريد استجلاء لغز مولده ، أو بعبارة أخرى أثبات صلة نسبه بالآلهة أمام الرأى الدولى العام [٦]، وفريق آخر ينكر أن الإسكندر ذهب إلى معبد سيوة لكى ينادى به « ابن آمون » وإن كان لا ينكر أن هذه المناداة قد حدثت فعلا [٧] . وقبل أن ندلى برأينا فى هذه المسألة يجدر بنا أن نستعرض بعض الاعتبارات الهامة .

ولا ريب فى أن استطلاع الاسكندر رأى الوحى فى نجاح مشروعاته كان من الممكن أن يتم بوساطة مبعوثين « theores » دون ما حاجة إلى تكليف نفسه

(1) Jouguet, Trois Etudes, p. 19.

(2) Jouguet, op. cit., p. 18; Tarn, Alex, II, 347, Wilcken, Alex. the Great, p. 121.

(3) Cf. Jouguet, op. cit. pp. 37 ff ; Wilcken, Alex. the Great, pp. 224 ff., p. 248.

(4) Tarn, 11, pp. 378 ff

(5) Diod. XVII, 51, 1; Quint. Curt IV, 7, 25: Just. XI, 11, 7; Plut. Alex. XXVII, 3; Tarn, p 347; Wilcken Berlin Akad. Abh., 1928, P. 576, 1930, p. 169 ; Larsen, Class. Phil., XXVII, 1932, p. 74; Jouguet, op. cit., p. 25.

(6) Radet, Alex., pp, III ff., Jouguet, op. cit. pp 19 ff.

(7) Wilcken, Alex, pp 125 — 9; Tarn, op. cit. 1, p. 43; II, pp. 347 ff.

عناء هذه الرحلة الشاقة ، وأهم من ذلك دون قضاء عدة أسابيع ثمينة فى هذه الرحلة فى وقت كانت مشاغل خطيرة تتطلب عنايته واهتمامه[١]. وإذا صح أن تحقيق هذه الغاية كان لا يستدعى ذهابه إلى أسيوة ، فهل كان تحقيق الغاية الأخرى ، إشباع ميوله للمخاطرة واقتفاء أثر برسيوس وهرقل ، وحده عاملا حاسما فى قيامه بهذه الرحلة ؟ لما كان المعروف عن الإسكندر أنه رجل شاعرى تستهويه المخاطر والأسفار ومشاهدة الآثار القديمة ، فإننا لا نستطيع إغفال أهمية هذا العامل ، وإن كنا نستبعد أن يكون الحافز الوحيد على الإقدام على مثل هذه المغامرة . ومن ثم فلا بد من أنه كان يوجد عامل آخر له من الأهمية ما لا يقل عن هذا العامل إن لم يزد عليه . فما هو هذا العامل ؟

تذكر بعض المصادر القديمة أن الشائعات تواترت بأن الاسكندر لم يكن ابن فيليب مما كان سبباً فى غضب هذا على أوليمبياس وزواجه من كليوبترا ، وفى أن أتالوس ، خال الملكة الجديدة ، وصم الاسكندر أثناء حفلات هذا الزواج بأنه ابن سفاح[٢] . وفى الوقت نفسه ذاعت شائعات أخرى تدور حول مولد الاسكندر الإلهى ، فقد ورد فى بلوتارخ أن ثعباناً كبيرا رؤى ممتداً إلى جانب أوليمبياس فى فراشها وأن ذلك كان سبباً فى تباعد فيليب عنها ، إما بدافع الخوف من أنها كانت تدبر له مكيدة أو بدافع الاحترام لرؤيته إلها يشغل فراشه[٣] .

ويذكر مصدر قديم آخر أن أوليمبياس اعترفت لزوجها بأنها لم تنجب الاسكندر منه وإنما من ثعبان ضخم[٤] ، فأفضى هذا الاعتراف إلى أقصاء أوليمبياس عن فيليب . وقد قيل إنه عندما تعددت أمام فيليب المظاهر التى تنبىء بعظمة وريثه أرسل فى استشارة وحى دلفى فأوصاه بتقديم القرابين

(1) Saint - - Croix, Examen Critique des historiens d'Alex., 2 éd., 1810, p. 293; Radet, Alex., p. 111; Jouguet, op. cit., p. 19.

(2) Athen. XIII, 557 d.; Plut. Alex.; IX, 4.

(3) Plut., Alex., II, 4.

(4) Justin, XI, 11, 3.

للإله آمون وبأن يتوجه بالعبادة لهذا الإله بوجه خاص . وقد تواترت شائعات أخرى فحواها أن فيليب فقد إحدى عينيه لاجترائه على النظر خلل ثقب فى الباب عندما كان زيوس إله ليبيا نائماً إلى جانب أوليمبياس بعد أن تقمص شكل ثعبان ، وأنه عند ما كان الاسكندر يفكر فى حملته استحثته أمه على القيام بها — وذلك بإفصاحها له عن سر مولده — وناشدته أن يظهر بالمظهر الذى يتناسب وأصله السماوى[1] .

وأذا كان من الخطأ قبول كل ماجاء فى هذه القصص ، فإنه من الخطأ أيضاً اعتبار كل ماجاء فيها من نسج الخيال أو أن ليس له سند من الواقع . وبيان ذلك أن أوليمپياس كانت شديدة الولاء للإله ديونيسوس التراقى الذى يعرف باسم ساباتزيوس (Sabazios) وكانت تقام له طقوس صاخبة . ويحدثنا ديموسثينيس[2] بأن طقوس هذا الإله كانت تتضمن عرضا للثعابين المقدسة يعقبه فى الليل حفل سرى كان أبرز مظاهره تصوير زواج رمزى بين الإله وتابعاته اللائى أطلعن على أسراره ، وذلك بوضع الثعبان المقدس داخل ملابس أولئك السيدات . فقد كان هذا الثعبان يعتبر الصورة المجسدة لساباتزيوس ، ويبدو أن وضعه داخل الملابس كان يعتبر رمزاً لوقوع المخالطة[3] . وهذه الثعابين المقدسة هى التى يروى پلوتارخ أن أوليمپياس كانت تحيط نفسها بها فيسير بعضها وراءها ويشاركها أحدها فراشها[4] ، وهذا دون شك هو الذى كان يقوم بدور الزوج الإلهى .

ولا يصعب إذن أن نرى أن قصة انجاب الاسكندر من الثعبان المقدس كانت وليدة هذه الألفة الغريبة بين أوليمپياس والثعبان المقدس ، أى وليدة معتقدات أوليمپياس وغيرها من أتباع ساباتزيوس . ولا يصعب كذلك أن نتصور أن معتقدات

---

(1) Plut., Alex. III, 1 — 2; cf. Radet, Notes. Rev. et. anc. XXVIII, 1926, pp. 222 — 3; Alex. le grand, pp. 114 — 5.

(2) Demosth., de Corona, 260.

(3) Radet, Alex., p. 119; Jouguet, Trois Et. p. 21; Clemens Alex., Protrept. II, p. 19.

(4) Plut., Alex. II, 4.

أوليمپياس سيطرت عليها إلى حد أن خيالها قد صور لها أنها أنجبت فعلا الإسكندر من الثعبان المقدس . وعند ما انتشر هذا الخبر كان ذلك فى نظر فريق من الناس مثارا للاعجاب وفى نظر فريق آخر مثارا للريبة والشك فى سلوك أوليمپياس . ومعنى ذلك أن تكون دعوى أوليمپياس هذه هى التى أفضت إلى اتهامها بسوء السلوك إلى حد الزعم بأنها أنجبت ابنها سفاحا . لكن من الجائز أيضا أن تكون مغالاة أوليمپياس فى احتفالها بطقوس ساباتزيوس هى مصدر اتهامها مما حدا بها لدفع هذه التهمة عنها إلى الزعم بأنها لم تنجب ابنها إلا من الثعبان المقدس . وعلى كل حال لا بد أن يكون قد وصل إلى سمع الإسكندر وعلمه رأى أصدقاء أمه وأعدائها فى مولده ، وأن يكون ذلك قد ترك فى نفسه على الأقل شكا حائراً فى حقيقة مولده (هل هو من صلب إله أم من صلب بشر) أو رغبة ملحة فى توكيد دعوى أمه فيثبت من ناحية أنه من نسل إلهى ، ومن ناحية أخرى أن شرف أمه فوق مستوى الشبهات .

ويبدو لنا أن هذا العامل النفسانى لا يمكن تجاهله أو اغفاله دون تجريد الاسكندر من انسانيته وكرامته ، وهذا ما لا يمكن أن يخطر ببال أحد .

وهل لم يكن لدى الاسكندر دافع آخر لإثبات صلة نسبه بالآلهة ؟ لقد كان أشهر فيلسوفين سياسيين فى شبابه هما ايسقراط (Isocrates) وارسطو ونعرف أن ايسقراط كتب إلى فيليب يقول إنه عندما يقهر ملك الفرس لن يبقى أمامه إلا أن يصبح إلها[1] ، ونعرف كذلك أن ايسقراط أوصى فيليب بإنشاء مدن فى آسيا لينزل فيها الذين أصبحوا لا وطن لهم [2] . وإذا كنا نعرف أن الاسكندر قام فعلا بتنفيذ هذه الوصية فهل يبعد أنه كان يعد العدة لتنفيذ الوصية الأولى باثبات أنه من نسل الآلهة ؟ وقد كان من تعاليم ارسطو أن الرجل

(1) Isoc., Ep. 3; Tarn II, pp. 365 — 9.

(2) Isoc., Phil., 106.

الذى يسمو على مواطنيه فى الكفاية والفضيلة يجب اعتباره آلها[١] . ولا جدال فى أن الاسكندر كان يعتبر نفسه ذاك الرجل ، ولا فى أن الأفكار التى أخذها الاسكندر عن أستاذه ارسطو لم يأخذها من كتبه وإنما منه شخصيا فى خلال السنوات الثلاث التى عاشاهاسويا فى ميزا (Mieza)[٢]. ومعنى ذلك أن الاسكندر، قبل أن يرتقى العرش وقبل أن يزور سيوة بفترة طويلة ، كان قد تعلم من أكبر مفكرين سياسيين فى عصره ضرورة تأليه الشخص الذى يسمو على سائر مواطنيه أويقهر آسيا . وهل معنى ذلك أنه لم يكن لمصر أثر فى الملكية الآلهية التى أراد الاسكندر إنشاءها ؟ هذا ما يصر عليه البعض[٣] لكن البعض الآخر يرون انه وإن كان تأليه الملوك الإغريق قد انبثق من الأفكار الإغريقة إلا أن هالة التقديس التى كان المصريون يحيطون بها ملوكهم ويرفعونهم بها فوق مستوى البشر كان لها دون شك أثر بعيد فى أفكار الاسكندر[٤] .

ولا جدال فى أن الاسكندر قبل أن يبرح أوربا كان يدرك تماما أنه على وشك تكوين إمبراطورية شاسعة تضم بين أرجائها مدنا إغريقية شديدة الحرص على استقلالها وحريتها ودولا شرقية ألفت الخضوع للملكية المستبدة . ولا جدال أيضاً فى أن السبيل الوحيدة لإخضاع هذين العالمين لنفوذه والتوحيد بينهما كانت تقديس شخصية الحاكم الذى يسيطر عليهما . ويبين لنا أنه إذا كانت فكرة التأليه قد نبتت عند الاسكندر نتيجة لإيحاء ايسقراط وأرسطو ، فلا بد من أن تكون مزاعم أوليمبياس عن أصله السماوى قد غذت هذه الفكرة حتى إذا مارس فرعونا فى منف ولمس بنفسه مكانة الحاكم المؤله ومدى سلطانه ترعرعت الفكرة وازدهرت إلى حد أنه شرع فى التمهيد لتنفيذها . وهكذا يتبين لنا أنه كانت لدى الاسكندر

(1) Politics III, 13, 1284.
(2) Tarn II, p. 368.
(3) Tarn II p. 362.
(4) Jougut, p. 46.

دوافع قوية ليثبت أمام الرأى الدولى العام أنه من نسل الآلهة . ولا شك فى أن الإغريق لم يعتبروا البنوة من إله مرادفة تماما للتأليه ، لكن لا شك أيضاً فى أن مثل هذه البنوة كانت تخلع على صاحبها طابعاً دينياً وتعده للتأليه[1] .

وإذا كنا قد استخلصنا هذه الرغبة بالاستنباط فإننا نستطيع أن ندلل عليها مما كتبه المؤرخ المعاصر كاليسثينيس ، إذ أن هذا المؤرخ عنى بوصف الاسكندر على أنه « ابن زيوس » وبالتبشير بالوهيته . ويقول «تارن» (Tarn) إنه لا يوجد مبرر للقول بأن كاليسثينيس كان مؤرخ بلاط الاسكندر ولا بأنه كان يكتب تحت إشراف الاسكندر بحيث أنه كان لا يكتب إلا ما يحب الاسكندر أن يكتب ، بل الواقع أنه كان يكتب ما يريد هو أن يكتبه ، لكنه كان يريد أن يكتب ما يظن أن الاسكندر يحبه وكان يتملق الاسكندر لتحقيق غرض شخصى[2] .

ومع ذلك لا يلبث تارن أن يحدثنا بأن هذا الشخص الذى أوغل فى تملق الاسكندر لتحقيق أغراضه الشخصية كان أول من رفض تلبية رغبة الاسكندر عندما طلب فى باكترا فى عام ٣٢٧ إلى الإغريق والمقدونين أن يتبعوا معه العادة الفارسية التى كانت تقضى على كل من يقترب من الملك بالسجود له وتقبيل الأض أمامه[3] (proskynesis) مما حمل الاسكندر على الاقلاع عن هذه الرغبة[4] . وفى رأينا أن كاليسثينيس كان مؤرخ بلاط الاسكندر وأن تصرفه فى مسألة السجود يبرأه من تهمة التملق .

وإذا تمشينا مع تارن وفرضنا جدلا أن كاليسثينيس لم يكن مؤرخ البلاط ، وأنه كانت له أطماع يريد تحقيقها ، وأنه أراد أن يكتب ما ظن أن الاسكندر كان يحب أن يكتب عنه ، فانه من المعقول أن نتوقع أنه حتى فى هذه الحالة لم يدخر

(1) Jouguet, pp. 3—21.
(2) Tarn II, p. 358.
(3) Arr. IV, 9, 9—12; Curt. VIII, 53; Cf. Arr. IV, 12, 3—5; Plut., Alex., 54.
(4) Tarn II, p. 360.

كاليسثينيس وسعا فى التحقق من رغبات الاسكندر . ومعنى ذلك أنه سواء أكان كاليسثينيس مؤرخ بلاط الاسكند أم لم يكن فإن ما كتبه يصور رغبات الاسكندر الحقيقية ، ولا سيا أن فحوى عباراته تتفق وما أعلنته مصادر الوحى الثلاثة .

وعندما اجتاز الاسكندر قمة كليما كس (Climax) فى الأطارف الغربية لجبال الطوروس بجوار البحر دون أن تقف الأمواج فى سبيله عزا ذلك إلى عناية الآلهة[1] . وبعد ذلك عندما ضل طريقه فى الصحراء فى أثناء رحلته إلى واحة سيوة وكاد يهلك هو وصحبه لولا أن هداه ثعبانان أو بعض الطيور عزا نجاته إلى عناية الآلهة أيضا[2] . ولاشك فى أنه لم يكن فى هذين الحادثين أمر غير مألوف ، إذ يبدو أن مرور الإسكندر عند قمة كليما كس قد تصادف أن كان وقت بداية الجزر ، ومن المعروف أن ظهور الثعابين أو الطيور فى الصحراء على مقربة من الأماكن المأهولة وفرارها أمام الضاربين فى الصحراء أمر يحدث كل يوم . لكن مبادرة الإسكندر إلى تفسير هذين الحادثين بأنه يرجع إلى تدخل العناية الإلهية يدل على إحساسه أو اعتقاده بوجود صلة قوية بينه وبين الآلهة التى تسهر عليه وترعاه .

وإزاء كل ما مر بنا نرى أن الاسكندر كان يعتقد قبل ذهابه إلى سيوة أنه ابن إله ، لكن لما كان هذا الاعتقاد يفتقر إلى تأييد مصدر محترم ليصبح عقيدة عامة فإنه ذهب إلى واحة سيوة لتحقيق هذا الهدف ، أى ليثبت هذه البنوة الإلهية أمام الرأى الدولى العام . وقد كان من الفطنة وإصالة الرأى ألا يكشف صراحة عن هدفه الحقيقى ، ومن ثم فقد روى أريانوس أن الاسكندر كان يريد اقتفاء أثر برسيوس وهرقل وكذلك « الاستفسار من آمون عن شىء خاص بمولده[3] » . وتشير رغبة الاسكندر فى الاعتماد على تأييد مصدر للوحى يتمتع بمكانة سامية فى الشرق وفى الغرب على السواء من أجل تحقيق هدفه إلى عزمه على نصب نفسه إلهاً عاماً للإمبراطورية .

---

(1) Arr. 1, 26, 2.
(2) Strabo, XVII, 1, 43; Arr. III, 3 — 5; Curt., IV, 7 — 15.
(3) Arr. III, 3. 1.

ويرى « تارن » أن مطالبة الاسكندر من حوله من الإغريق والمقدونيين بالسجود له كان تمهيداً لإقامة نفسه إلهاً عاماً للإمبراطورية[١]. ويرى چوجيه أن الاسكندر كان يستهدف من وراء ذلك التوحيد بين شعوبه وإقامة سلطانه على حق الملوك الإلهي[٢]. أما ڤيلكن فيرى فى ذلك إحدى خطوات سياسته التى كانت تهدف إلى المساواة بين الشرقيين والغربيين [٣]. وترى الباحثة ليلى روس تايلور أن حادث باكترا يتصل اتصالا وثيقاً بترتيبات الاسكندر الخاصة بتأليه نفسه[٤].

ونحن نعتقد أن الاسكندر لم ير فى عمله أكثر من التقدم خطوة أخرى فى سياسة المساواة والمزج بين الشرقيين والغربيين ، فإنه قبل ذلك أقام مازايوس (Mazaeus) واليا على بابل وتزوج من روكسانا إبنة أوكسيارتس واتخذ الملابس الشرقية رداء له . ويبدو لنا أن كاليسثينيس ، الذى قيل إن موقفه من هذه المسألة قضى عليهافى مهدها ، لم يرفى عمل الاسكندر أكثر من محاولةفرض عادة أسيوية على الإغريق كانت كريهة فى نظرهم ، وذلك بدليل ما ختم به كاليسثينيس كلمته فى هذه المناسبة ، عندما قال إن الإغريق والمقدونيين لن يقبلوا تمجيده على هذا النحو الذى يهدر الكرامة الإنسانية وإن كان مألوفا لدى الفرس منذ عهد قورش[٥]. ومن ثم يتبين لنا أن مرد كراهية الإغريق لهذه العادة لم يكن إلى أنها تنطوى على التأليه ، إذ لا نعقل أن يكون ذلك هو الدافع إلى تصرف كاليسثينيس الذى لم يدخر وسعاً فى التبشير بالوهية الاسكندر ، وإنما إلى أنها تنطوى على المذلة والإهانة والخضوع لحاكم مطلق . وإذا صح أن الإسكندر والإغريق كانوا يرون أن السجود يحمل معنى العبادة ، فلابد من أنهم كانوا يدركون كذلك أن رفضه معناه أيضا أن الإغريق يأبون تأليه الأحياء وتبعاً

---

(1) Tarn I, pp. 79 — 80; II, pp. 359 ff.

(2) Jouguet, Trois Et pp. 32 ff.

(3) Wilcken, Alex. the Great, pp. 168 — 9.

(4) Taylor, Proskynesis and the Hellenistic Ruler Cult, J. H. S. 47, 1927, pp. 53 — 62.

(5) Arr. IV, 11, 8 — 6.

لذلك تأليه الإسكندر . والقول بأن تصرف كاليسثينيس فى هذه المسألة جعل الإسكندر ينصرف عن محاولة ذلك ثانية(١) ، لابد من أن يستتبع انصراف الإسكندر عن محاولة تأليه نفسه لدى الإغريق . فكيف إذن أقدم الإسكندر بعد ذلك بثلاثة أعوام على أن يطلب التأليه فى عام ٣٢٤ لا من أصدقائه الملتفين حوله وإنما من المدن الإغريقية التى كانت تتألف منها عصبة كورنثا(٢) وتعترف بزعامته كارهة ؟ وكيف أن هذه المدن لم تأب ذلك على الإسكندر، بل أن المدن الإغريقية فى آسيا الصغرى سارعت من تلقاء نفسها إلى تأليهه (٣) ؟ وكيف يجوز عقلا أن يقال إن رغبة الإسكندر فى إقامة نفسه إلها عاما للإمبراطورية لم تستحق إلا محاولة باكترا الملتوية التى لم تكد تبدأ حتى توقفت إلى الأبد ، ثم يقال فى تفسير تصرفه عام ٣٢٤ إنه طلب إلى مدن العصبة تأليهه لأنه أمرها بأن تسمح للمنفيين منها بالعودة إليها ، وذلك لأنه وفقا لميثاق العصبة كان لا يصح له باعتباره رئيسها أن يصدر إلى أعضائها مثل هذا الأمر ، أما باعتباره إلها فقد كان ذلك من حقه لأن الميثاق كان يقيد إسكندر الملك لا إسكندر الإله(٤) ؟ ومن المسلم به أن إرغام المدن على قبول المنفيين كان أمراً كريها لديها ، ولو كان ما حدث فعلا فى باكترا هو محاولة فاشلة للتأليه ، لكان معنى ذلك أن الإسكندر لجأ إلى وسيلة كريهة وهى التأليه لحمل المدن الإغريقية على قبول أمر كريه آخر وهو قبول المنفيين . وهذا مالا يستقيم مع حسن السياسة ولا المنطق السليم .

وكيف نقبل أن مسألة إعادة المنفيين كانت تستحق منه أن يطلب تأليهه صراحة فى حين أن مسألة المسائل : وهى تنفيذ جوهر سياسته ، أى لم شمل العناصر المختلفة فى الإمبراطورية وحفظ كيان هذه الإمبراطورية ، لم تستحق أكثر من محاولة باكترا ؟ لقد كنا نفهم أن يقال إن الإسكندر لم يفكر إطلاقا

---

(1) Tarn II, p. 360.

(2) Diod. XVIII, 4; Tarn II, pp. 370 ff.; Jouguet, pp. 44 — 5.

(3) Jouguet, p. 45.

(4) Tarn II, p. 370.

فى اتخاذ الألوهية وسيلة لتحقيق أهدافه السياسية ، لكننا لا نفهم الاعتراف باستخدام الإسكندر هذه الوسيلة فى تحقيق أغراضه الثانوية فقط مع أنه من الجلى أنه كان يعجز عن تحقيق أغراضه الرئيسية دون الالتجاء إلى هذه الوسيلة. وصحيح أننا لم نسمع ثانية عن محاولة الإسكندر نصب نفسه إلها عاماً للإمبراطورية ، لكن لعل الأصح أن يقال إنه لم يحاول إطلاقا نصب نفسه إلها عاما للإمبراطورية ، وذلك لسبب يسير جدا وهو أن الإسكندر كان يستبقى عمل ذلك حتى يتم بناء الإمبراطورية ، لكن قبل أن يحدث ذلك كان الموت قد طواه .

الاتجاهات الجديدة فى سياسة مصر الخارجية

على عهد البطالمـــة

تتأثر سياسة مصر الخارجية بمجموعتين من العوامل : إحداها هى العوامل الطبيعية التى جعلت مصر أولا جزءاً من وادى النيل ، بل جعلت حياتها متوقفة على مياه هذا النهر ، وجعلت مصر ثانياً وفيرة الخيرات فى بعض النواحى ، مع فقرها الشديد فى بعض النواحى الأخرى ، وجعلت مصر ثالثاً حلقة الاتصال بين أفريقيا وآسيا وأوربا . ويترتب على ذلك أن تسعى مصر إلى تصريف ما يفيض على الحاجة من منتجاتها واستيراد ما تفتقر إليه ، وأن يكون لنشاط السياسة المصرية ثلاث جبهات : إحداها أفريقية والأخرى آسيوية والثالثة أوروبية . ومن الطبيعى أن يتباين اهتمام مصر بكل جبهة تبعاً للظروف الدولية المحيطة بها فى كل عصر . وهذه الظروف الدولية هى المجموعة الثانية من العوامل التى تتكيف بها سياسة مصر الخارجية .

وفى ذلك الصدر من عهد الفراعنة حين كانت مصر ، أو كادت أن تكون ، المركز الأوحد للحضارة ، كان طبيعياً أن تستأثر الجبهة الأفريقية بنشاط السياسة المصرية . أما حين قامت إلى جانب مصر مراكز للحضارة فى آسيا فإنه كان طبيعياً أيضاً أن يكون للجبهة الآسيوية كذلك شأن كبير فى السياسة المصرية ، ومن ثم لم تعد الجبهة الأفريقية تستنفد اهتمام السياسة المصرية . وعند ما أخذت تظهر فى شمال البحر الأبيض المتوسط مراكز جديدة للحضارة ، استرعت هذه المراكز فى الحال انتباه مصر لكنه لما لم يكن لهذه المراكز الحضارية الأوربية حينذاك شأن يذكر بجانب مراكز الحضارة الشرقية، فانه لم يكن للجبهة الأوروبية إلا حظ يسير من اهتمام ملوك مصر قبل العصر الصاوى . ومنذ ذلك الوقت أخذت أهمية هذه الجبهة تزداد باطراد حتى طغت على كل ما عداها .

وعلى عهد البطالمة كانت الظروف الدولية المحيطة بمصر قد تغيرت تغيراً محسوساً ، إذ أنه حين كان نجم الحضارات الشرقية آخذا فى الأفول ، كانت حضارة الإغريق تقفز إلى الأمام قفزات خاطفة أوصلتها سريعاً إلى ذروة المجد حتى تضاءلت إلى جانبها الحضارات القديمة طراً ، وغدا بحر إيجة أهم مراكز الحضارة فى العالم القديم . وقد ازدادت دعائم هذا المركز رسوخاً حين أنشأ الاسكندر امبراطوريته وأدخل فى حظيرتها كل مراكز الحضارة القديمة . وعندما توفى الاسكندر فى شرخ الشباب قبل أن تنظم وراثة العرش وطريقة الحكم فى تلك الامبراطورية واقتسمها قواده ، كان لذلك نتائج عدة يعنينا هنا من أمرها ثلاث : وإحداها أن عرش مصر آل إلى أسرة مقدونية الأصل إغريقية الحضارة . والنتيجة الثانية نشوب صراع عنيف بين هؤلاء القواد دام أربعين عاما تمخض آخر الأمر عن قيام ثلاث دول فتية على أنقاض الامبراطورية المقدونية : وهى دولة البطالمة فى مصر ، ودولة السليوكيين فى سوريا وبابل ، ودولة مقدونيا . والنتيجة الثالثة هى احتدام المنافسة بين هذه القوى الثلاث ، ولا سيما بين البطالمة والسليوكيين .

وحين كان خلفاء الاسكندر يصطرعون فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، كانت روما تجد فى بسط سيطرتها على الحوض الغربى فى هذا البحر . وهكذا نتبين ظهور عامل آخر جديد له خطره فى أفق السياسة الدولية . فما أثر كل هذه العوامل فى سياسة مصر الخارجية على عهد البطالمة ؟

غداة وفاة الإسكندر فى بابل عام ٣٢٣ ق . م . اجتمع قواده ليبحثوا مشكلة حكم الامبراطورية المقدونية . وبعد خلاف عنيف اتفقوا على أن يرتقى العرش شاب معتوه يدعى ارهيدايوس (Arrhidaeos) كان أخاً غير شقيق للإسكندر مع الاعتراف بحق جنين روكسانا (Roxana زوجة الإسكندر الفارسية) إذا كان ذكراً فى مشاركة فيليب الملك بمثابة شريك تحت الوصاية[1] . وبهذا الحل

(1) Bouché-Leclercq, His. des Lagides, vol. I. 9; Jouguet, Mac. Imp., p. 120; Nat. Eg., III, p. 6; Rostovtzeff, Soc. and Ec. His. Hell. World, pp. 3-4.

أمكن الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية ، لكنها لم تكن وحدة إلا فى الشكل فقط إذ أنها تقسمت فى الفعل بين قواد الإسكندر نتيجة لتقسيم ولايات الامبراطورية بينهم ليحكموها بصفة كونهم ولاة من قبل الأسرة المالكة المقدونية . وقد كانت الأطماع التى تجيش فى صدور أغلب هؤلاء القواد واضحة جلية ، ولذلك فإنهم لم يكونوا على استعداد لقبول أوامر الذين كانوا سيحكمون باسم الملكية متى توافرت لديهم القوة الكافية لتأييد رغبتهم فى الاستقلال . أما الوصاية فإنها آلت إلى برديكاس (Perdiccas) القائد العام للجيش . وسرعان ما أظهر برديكاس رغبته إلى جميع القواد الذين يحكمون ولايات الامبراطورية — رغبته فى أنه ينتظر منهم إطاعة الأوامر التى يصدرها باسم التاج ، فأخذ أكثرهم بأسا وقوة يستعدون لمقاومة هذه الأوامر[١] .

وقد كانت مصر من نصيب قائد فذ يدعى بطلميوس . فما كانت أهداف بطلميوس مؤسس أسرة البطالمة التى حكمت مصر من عام ٣٢٣ حتى عام ٣٠ ق . م . ؟ وما كانت أهداف خلفائه ؟ يختلف المؤرخون اختلافا بينا فى تفسير سياسة البطالمة الخارجية[٢] لكن مهما بلغ الاختلاف فى تفسير هذه السياسة ، فلا خلاف فى أمرين ، وأحدهما أن الجبهة الأوربية فى نشاط سياسة مصر الخارجية على عهد البطالمة قد غدت الجبهة الرئيسية ، والأمر الآخر أن البطالمة كانوا يريدون إنشاء امبراطورية . وسواء أكان بطلميوس الأول وخلفاؤه يريدون إنشاء امبراطورية عالمية أم امبراطورية بحرية فى شرق البحر الأبيض ، فقد كان يتعين أولا وضع الأساس الذى يقام عليه هذا الصرح ، أى بناء دولة قوية غنية مستقلة فى مصر .

ولا ريب فى أن بناء مثل هذه الدولة كان يحتم فصم عرى الامبراطورية

(١) ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ص ٢٤ — ٢٦

(2) Kornemann, in Klio, XVI, 1916, p. 229; Wilcken, Grundzüge u. Chrestomathie, vol. 1, p. 4; Schmöller's Jahrb. 1921, p. 61; Rostovtzeff., J. E. A., 1920, p. 172.

المقدونية ومكافحة كل من تحدثه نفسه باحيائها لحساب الأسرة المالكة المقدونية أو لحسابه خاصة . ولذلك فإن بطلميوس الأول اشترك فى عدة محالفات كانت أهمها ثلاث : إحداها ضد برديكاس الذى قضى عليه فى عام ٣٢١ لأنه أراد أن يلم شمث الامبراطورية ويوحدها [1] ، والمحالفتان الأخريان ضد انتيجونوس (Antigonos) الذى أصبح بدوره خطراً يتهدد سلامة الولاة الآخرين ، وانتهى الأمر بالقضاء عليه فى موقعة إبسوس (Ipsos)[2] عام ٣٠١ وبموته ماتت فكرة أحياء الامبراطورية المقدونية .

ووسط الأطماع التى تجيش فى صدور القواد ، كان فوز بطلميوس باستقلال مصر والمحافظة على هذا الاستقلال وإحراز مكانة سامية فى السياسة الدولية — كان كل ذلك يتطلب تجنيد جيش كبير وبناء أسطول قوى . ولما كانت تحت إمرة منافسى البطالمة جيوش وأساطيل من الطراز الأول ، إذ كانت مؤلفة من خيرة جنود العصر ، وأعنى المقدونيين والأغريق ، فقد اعتقد بطلميوس وخلفاؤه أنه لتحقيق سياستهم الخارجية ، بل المحافظة على كيان دولتهم لا بد من أن يكون لهم جيش وأسطول من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم ، ومعنى ذلك ضرورة استقدام الأغريق وأشباههم للخدمة فى قوات البطالمة المحاربة . ولما كانت ثروة مصر الطبيعية قاصرة عن الوفاء بحاجات الجيش والأسطول ، فإنه كان يتعين استيراد الأخشاب والمعادن اللازمة من الخارج ، لكن الطريقة المثلى لضمان الحصول على هذه الضروريات كانت الاستيلاء على بعض الأقاليم القريبة الغنية بالأخشاب والمعادن .

ولما كانت وفرة المال شرطاً أساسياً لبناء الجيوش والأساطيل ، وكانت مصر مع غنى مواردها الطبيعية لا تستطيع مواجهة المطالب الجديدة إذا بقيت

(1) Bouché-Leclercq I. pp. 18 ff.; Rostovtzeff. S. and E., p. 6.

(2) Bouché-Leclercq I, pp. 42 ff.; Rostovtzeff, S. and E., pp. 11—15.

شئونها الادارية وحالتها الإقتصادية على ما كانت عليه عنـد الفتح المقدونى ، فإنه لم تـكن هناك مندوحة عن إعادة تنظيم شئون الإدارة والنهوض بمرافق البلاد الإقتصادية واستغلالها استغلالا منظما دقيقاً وتصدير أكبر قدر ممكن من منتجاتها . وللقيام بهذه الأعمال الإنشائية الواسعة استشعر بطلميوس الأول وخلفاؤه الحاجة إلى رءوس أموال وإلى أعوان مخلصين يستطيعون فهم مراميهم والتفانى فى خدمتهم ، ومعنى ذلك أنهم كانوا يستشعرون الحاجة أولا إلى الإغريق لا لبناء جيوشهم وأساطيلهم فحسب ، بل أيضاً لإعادة تنظيم شئون البلاد الإدارية والإقتصادية ، فقد كانت تتوافر لديهم رءوس الأموال ، وكذلك الخبرة بأحدث الأساليب الإقتصادية ونظم التجارة السائدة فى عالم البحر الأبيض المتوسط . واستشعروا الحاجة ثانياً إلى السيطرة على الطرق البحرية لحماية مصر وتنشيط تجارتها الخارجية . فلا عجب أن اعتبر بطلميوس الأول وخلفاؤه سيادة بحر إيجة عماد كيانهم السياسى ومصدر قوتهم وأساس استقلالهم .

وإزاء كل هذه العوامل نرى أن بطلميوس الأول : (١) قد انسلخ عن الإمبراطورية المقدونية وأعلن نفسه ملـكا على مصر[1] . و (٢) استولى على برقة لحماية حدود مصر الغربية [2] . و (٣) استولى على جوف سوريا [3] (فلسطين وفينيقيا وجزء من سوريا) وقبرص وبعض الأقاليم الواقعة على شواطىء آسيا الصغرى فى كيليكيا وليـكيا وكاريا [4] ، وذلك لحماية حدود مصر الشرقية ، والحصول على المعادن والأخشاب التى يفتقر إليها وادى النيل ، والسيطرة على بعض منافذ الطرق التجارية الآتية من الشرق الأقصى ، وضمان سيادة بحر إيجة . و (٤) سبق الدول الحديثة إلى الاتجار بالحرية فإنه تحت ستار إنقاذ عصبة

---

(1) C. A. H. VI, 499; Bevan, pp. 27—8; Bouché—Leclercq I, pp. 71—2.

(2) Bouché — Leclercq I, pp. 16 — 17.

(3) Bouché — Leclercq I, pp. 28 ff.

(4) Bouché — Leclercq I, pp. 56 ff.

جزر بحر إيجة من ربقة أنتيجونوس ، طرد حاميات انتيجونوس من هذه العصبة ووضع مكانها حاميات بطلمية[1] للذود عن الحرية الإغريقية ، ثم سارع إلى بلاد البلوبونيز فوضع حاميات بطلمية فى سيكيون وكورنثا [2] حماية للحرية الإغريقية من أعدائها الظالمين ! ولا شك فى أنه كان يهدف من وراء ذلك إلى الفوز بسيادة بحر إيجة وكسب عطف الإغريق فيسيطر على الطرق التجارية فى العالم القديم ويحصل من العالم الإغريقى على ما يحتاج إليه من الرجال ورءوس الأموال .

ويجب أن يلاحظ أن السيطرة على عصبة جزر بحر إيجة كانت لا تكسب البطالمة إلا سيطرة جزئية اقتصادية وسياسية على بحر إيجة ، وأن استكمال السيطرة على هذا البحر كان يقتضى فرض حماية مصر على شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية والغربية ، وكذلك الاستيلاء على موانى فلسطين وفينيقيا [3] . وقد شيد بطلميوس الأول جانباً مهما من هذه الإمبراطورية ، وترك لخلفائه استكمال بنائها ، إذ أن السياسة التى وضع هو أساسها لم يحد عنها أحد من خلفائه الأوائل .

وهكذا يتضح لنا أنه على عهد بطلميوس الأول اتجهت سياسة مصر الخارجية اتجاهاً جديداً لم يكن لها به عهد من قبل ، فقد غدت الجبهة الأوربية أو إن شئت الجبهة الأوروبية الشرقية أو الجبهة الشمالية محور نشاطها الرئيسى . وقد أفضى هذا الاتجاه إلى اتجاه جديد آخر نحو آسيا . حقاً إن الجبهة الآسيوية كانت منذ أمد بعيد موضع اهتمام مصر ، لكن آسيا الصغرى لم تكتسب قبلا من الأهمية فى هذه الجبهة مثل ما أخذت تكتسبه منذ أيام بطلميوس الأول ؛ وفضلا عن ذلك فإن الاتجاه الآسيوى لم يكن يوما وثيق الاتصال بالاتجاه الاوربى للسياسة المصرية على النحو الذى نراه منذ بداية عهد البطالمة .

وعند ما ارتقى عرش مصر بطلميوس الثانى كانت دولته أقوى دولة فى العالم

---

(1) Jouguet, Nat. Eg. p, 21; Bouché — Leclercq I, pp. 63 — 4.

(2) Bouché—Leclercq I, pp. 65—6; C. A. H. VI, pp. 494—5; Jouguet, Nat, Eg. pp. 21— 22

(3) Rostovtzeff, S. and E., p. 29.

الهيلينستى . وكانت تليها دولة السليوكيين وكانت تشمل ولايات امبراطورية الإسكندر فى بلادما بين النهرين ، وأغلب الولايات الشرقية البعيدة ، وجانباً كبيراً من آسيا الصغرى وسوريا (فيما عدا جوف سوريا) . وكانت الدولة الثالثة هى مقدونيا وكانت تسيطر على بعض المدن الإغريقية فى شبه جزيرة البلقان .

وقد كانت لكل دولة من هذه الدول أهدافها ومراميها . أما مصر فان بطلميوس الثانى كان ينشد الهدف الأساسى نفسه الذى كان أبوه ينشده ، وهو الدفاع عن استقلال مصر الكامل ولعب الدور الأول فى حلبة السياسة ومضمار الاقتصاد فى العالم الهيلينستى ، وذلك بالسيطرة على بحر إيجة سيطرة تامة . والواقع أن عزلة البطالمة فى مصر كانت تضعفهم أمام دولة السليوكيين التى كانت فى قبضتها المدن الإغريقية فى الأناضول ، وأمام مقدونيا التى كانت تسيطر على إغريق البلقان ، على حين أن سيطرة البطالمة على الطرق التجارية كانت توفر لهم موارد جمة فى الرجال والأموال[1] .

وقد كان طبيعيا ألا يسلم السليوكيون باستيلاء البطالمة على جوف سوريا وشواطىء آسيا الصغرى ، لأن ذلك كان يحول دون أن يكون لهم أسطول كبير ويحرمهم منافذ الطرق الهامة الحربية والتجارية القادمة من امبراطوريتهم الآسيوية ، فيترتب على كل ذلك أن تصبح دولتهم مملكة شرقية بحت منعزلة تماما عن العالم الإغريقى . ولذلك لم يكن هناك مفر من أن يصطدم السليوكيون بالبطالمة اصطداماً عنيفاً .

ولم يكن فى وسع مقدونيا الاعتراف بسيطرة البطالمة على بحر إيجة لأنه كان يترتب على ذلك حرمانها السيادة على هذا البحر ، وتبعاً لذلك انتقال السيطرة على مؤنة بلاد الإغريق من قبضة مقدونيا إلى قبضة البطالمة المعادين لهم . ومن ثم فانه كان طبيعيا أن تناصب مقدونيا البطالمة عداء شديداً . وهكذا لم

(1) Rostovtveff, pp. 29—30.

يكن فى وسع بطلميوس الثانى تحقيق أهداف السياسة الخارجية التى وضع أبوه أساسها دون القيام بجهود عنيف . لـكن هذا لم يفت فى عضده أو على الأصح فى عضد زوجه أرسينوى، فقد : (١) وطد حدود مصر الغربية ، (٢) وأرسل حملة تأديبية إلى قبائل النبط فى البتراء وأخضع الأدوميين والبحر الميت وشرق الأردن[1] ، وذلك لضمان الحصول على التجارة الشرقية القادمة بطريق البحر الأحمر وبلاد العرب ، (٣) ويتصل بالهدف نفسه اهتمامه بالطرق التى تربط وادى النيل بالبحر الأحمر[2] ، (٤) ووطد حدود مصر الجنوبية واهتم بطرق أعالى النيل[3] (٥) ودعم سلطان مصر فى جوف سوريا ، (٦) واسترد ممتلكات مصر على شاطىء آسيا الصغرى الجنوبى وكان أبوه قد فقدها فى عام ٣٠٦ ، وأضاف إليها ممتلكات جديدة على شاطىء آسيا الصغرى الغربى[4] ، (٧) وبسط نفوذه على كريت ، وثبت سلطانه على عصبة جزر بحر إيجة[5] .

غير أن الهزيمة التى نزلت ببطلميوس الثانى فى خلال الحرب السورية الثانية سلبته سيادة البحار وكل ممتلكاته فى آسيا الصغرى وبحر إيجة ، فيما عدا كاريا وجزيرة ثيرا . ولذلك فإنه قد حاول أن يسترد بالمصاهرة ما فقده فى ميدان الحرب ، وذلك أنه تمكن من إقناع أنطيوخوس ملك سوريا بترك زوجه الأولى لاوديكى والاقتران من ابنته برينيكى ، على أن يكون أبناؤها ورثاء عرش أنطيوخوس[6] . وإذا كان بطلميوس قد منى نفسه من وراء هذا الزواج بفرصة تتاح له كى يتدخل فى شئون سوريا أو يجعل من امبراطورية أنطيوخوس صديقاً له أو عميلا ، فإن

---

(1) Jouguet, Mac. Imp. P. 246; Tarn, J. E. A, XV, pp. 14—16.

(٢) إبراهيم نصحى ص ٥٠ .

(3) Diod. I. 37.

(4) C. A. H. VII, pp. 703 - 4.

(5) Jouguet, op. cit. 246.

(6) C. A. H. VII, p. 715; Jouguet, Nat. Eg. III, pp. 53—4.

أنطيوخوس كان يطمع فى أن يحقق من وراء هذا الزواج استرداد جوف سوريا ، لكن الحوادث لم تحقق آمال الطرفين .

ويبين إذن أن الاتجاهين الجديدين اللذين ظهرا فى أفق السياسة المصرية على عهد بطلميوس الأول قد استمرا مسيطرين على هذه السياسة فى عهد بطلميوس الثانى أيضاً . بل لعل سيطرتها قد ازدادت قدراً ما فى عهد بطلميوس الثانى ، على نحو ما يتضح من اتساع نطاق فتوحه فى بحر إيجة وعلى شواطىء آسيا الصغرى .

لكن لعهد بطلميوس الثانى ميزة أخرى ، ففى عهده بدأ اتجاه جديد فى سياسة مصر الخارجية . وبيان ذلك أن مصر فى عهد بطلميوس الثانى كانت أول دولة هيلينستية أنشأت علاقات سياسية مع روما[1] ، ففى عام ٢٧٣ ق. م. أرسل بطلميوس الثانى بعثة إلى روما تمخضت عن عقد اتفاق بين الدولتين .

ويبدو أن هذا العمل كان جزءاً من سياسة عامة انتهجها بطلميوس الثانى مع الدول الغربية ، إذ تنهض الأدلة على وجود علاقات قوية حوالى ذلك الوقت بين مصر وسيراكوز ، أعظم دولة فى صقلية، وكذلك بين مصر وقرطجنة التى طلبت إلى بطلميوس الثانى إقراضها مبلغاً كبيراً من المال لمتابعة الحرب البونية الأولى ضد روما ، لكن بطلميوس الثانى رفض عقد ذلك القرض للاحتفاظ بالحياد الدقيق بين الفريقين المتحاربين . ومن المحتمل أن الدوافع التى أملت على بطلميوس الثانى سياسته الغربية كانت دوافع اقتصادية قبل كل شىء ، لأن الأسواق الغربية كانت تستطيع المساهمة بقدر كبير فى رخاء مملكته . فقد كانت روما تمتلك أغنى مناجم الحديد . وكان يوجد فى جنوب إيطاليا وصقلية وجزر ليبارى كميات كبيرة من الكبريت التى تحتاج إليها الصناعة المصرية ، وكذلك الزراعة وبوجه خاص زراعة الكروم . وكانت صقلية وقرطجنة غنيتين بالخيول التى تحتاج إليها جيوش

---

(1) C. A. H. VII. p. 823; Otto, Zur Gesch. d. Zeit d. 6. Ptol., Bay. Abh. XI. 1934, pp. 38 ff., 81, 90 ff., 133, 136; Rostovtzeff, S. and E., pp. 394. ff.

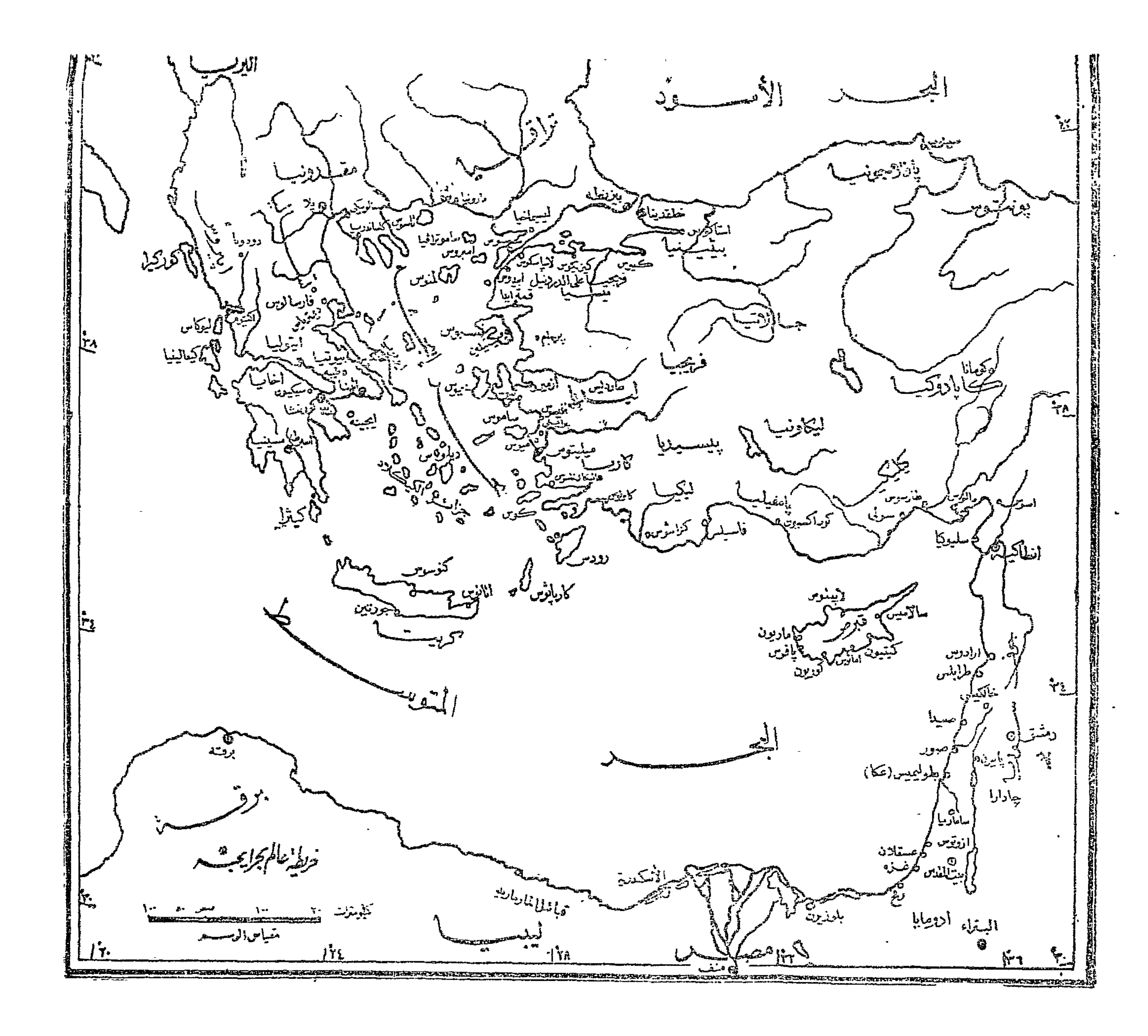
مصر . وكانت أسبانيا غنية بالفضة ،وكانت قرطجنة تحتكرها فى بداية العصر الهيلينستى . وكانت مصر فى حاجة كذلك إلى صفيح بريطانيا ، وكان يجىء إلى مسيليا وقرطجنة .

إن السياسة الخارجيــة التى وضع بطلميوس الأول أساسها وسار بطلميوس الثانى على نهجها أصبحت سياسة تقليدية لدى ملوك البطالمة الأوائل . وآية ذلك أن بطلميوس الثالث أيضا لم يـكد يرتقى العرش حتى وضع نصب عينيه تحقيق الأمانى والأهداف التى لم يستطع جده وأبوه تحقيقها جميعا . ومن ثم فإنه لم يستعد فقط الممتلـكات التى فقدتها مصر أيام أبيه فى كيليكيا وبامفيليا وليـكيا وكاريا وأيونيا بل أضاف إليها أملاكا أخرى فى تلك الأقاليم. واستولى أيضا على ممتلـكات جديدة فىأيوليا وعلى شاطىء الدردنيل وفىغاليبولى وتراقيا[١] . وقد حدا كل ذلك ببعض المؤرخين إلى القول بأن حصول مصر على ممتلـكات تمتد من كيليكيا إلى تراقيا يشير إلى أن البطالمة كانوا لا يستهدفون الإشراف على الطرق التجاريةالمؤدية إلى مصر فحسب ، بل يبغون أيضا الاستيلاء على كل بحر إيجه من أجل الحصول على سيادة العالم ، تلك الرغبة التى كانت الدافع وراء مشروعات كافة القوى المتنافسة فى العالم الأغريقى منذ بداية القرن الثالث[٢] . ونحن نرى أن الأمر لم يقتصر على تلك الممتلـكات الواسعة آنفة الذكر ، بل إن نفوذهم امتد كذلك إلى شواطىء بحر مرمرة وشواطىء البحر الأسود الجنوبية بفضل تحالفهم مع برجام وصداقتهم مع «العصبة الشمالية» فى آسيا الصغرى ، تلك العصبة التى كانت تناصب السليوكيين العداء . ونرى أيضاً أن البطالمة لم يستهدفوا فقط الأشراف على الطرق التجارية المؤدية إلى مصر ، بل كانوا يستهدفون أيضاً الاستيلاء على منافذ الطرق التجارية الآتية من أواسط آسيا ، وذلك للتحكم فى التجارة الشرقية الهامة ، ولضمان سيادة بحر إيجة ، لا من أجل الفوز بسيادة العالم ، وإنما من

---

(1) C. A. H. VII, pp. 718—9. Jouguet, Nat. Eg., pp. 57—8.

(2) Jouguet Mac. Imp., pp. 248—9.


البحر الأسود
تراقيا
مقدونيا
بيثينيا
فريجيا
كبادوكيا
ليكاونيا
پيسيديا
ليكيا
كاريا
بامفيليا
رودس
كنوسوس
كريت
كارپاثوس
قبرص
سلاميس
انطاكية
اسوس
طرابلس
صيدا
صور
دمشق
بطوليميس (عكا)
ساماريا
عسقلان
غزه
بيت المقدس
البتراء
البحر
المتوسط
برقة
ليبيا
الإسكندرية
مصر
منف
كيلومترات
مقياس الرسم

أجل تحقيق أغراضهم الخاصة باستقلال مصر وثرائها . ولاجدال فى أن امبراطورية البطالمة قد وصلت فى عهد بطلميوس الثالث إلى أقصى اتساعها ، لكن هذه الإمبراطورية لم تكن إلا امبراطورية بحرية ، وشتان مابين هذه الإمبراطورية البحرية وبين إمبراطورية عالمية .

وفى مستهل حكم بطلميوس الثالث عندما توفى أنطيوخوس الثانى ملك سوريا ونشب خلاف عنيف من أجل العرش بين زوجه الأولى لاوديكى وزوجه الثانية برينيكى شقيقة ملك مصر ، هب هذا الملك لنصرة أخته والدفاع عن حقوق ابنها(١) . ويكاد يكون مؤكداً أنه قاد جيوشه حتى سليوكيا على نهر الدجلة ثم أنفذ الرسل باسم برينيكى إلى حكام الولايات الشرقية يطلب منهم الطاعة فأذعنوا ، وبعد ذلك عين حاكما عاما على هذه الولايات وعاد إلى مصر لنشوب ثورة فى الدلتا(٢) . وإذا صح أن برينيكى وابنها كانا قد قتلا قبل زحف بطلميوس شرقا ، وأن ملك مصر قد تعمد إخفاء ذلك ، فلماذا كان الزحف ؟ ألأنه كان يطمع فى بسط نفوذه على الولايات الشرقية فى امبراطورية السليوكيين ؟ وإذا كانت هذه الآمال قد دارت بخلده فأليس من المعقول أنه كان يترك وراءه قوة كبيرة لدعم سلطانه فى تلك الأرجاء عندما اضطرته حوادث مصر إلى العودة سريعاً إليها ؟ لكن بطلميوس لم يفعل ، ورب معترض يقول : إن السر فى ذلك لم يكن الزهد أو التعفف ، وإنما حكم الظروف نفسها التى أضطرته إلى العودة . وقد كنا نقبل هذا الأعتراض لو لم نعرف أن بطلميوس الثالث لم يحاول شيئا من ذلك وهو فى أوج مجده يوم امتد سلطانه امتداداً واسعاً فى بحر إيجة ، ولا سيما عندما داخل الأنحلال إمبراطورية السليوكيين وتقطعت أوصالها ، مع أن الفرصة كانت مواتية له عندئذ لاقتطاع ما يشاء من الولايات الشرقية فى تلك الامبراطورية .

(١) ابراهيم نصحى ص ٦٥ — ٦٦

(٢) C. A. H. VII, p. 717; cf. C. I. G. 5, 127; Strack No. 39; Bouché-Leclercq I, pp. 260 2.

وليس لهذا سبب سوى أن البطالمة لم يفكروا إلا فى امبراطورية بحرية . غير أن عزوف بطلميوس الثالث عن اقتطاع ممتلكات جديدة من امبراطورية السيلوكيين لم يمنعه من تشجيع الخلافات التى دبت بين أفراد أسرة السليوكيين ، مثلما شجع الأضطرابات التى نشبت ضد غريمه الآخر ملك مقدونيا (١) ، بينما استمرت مصر محتفظة بحيادها الدقيق فى النزاع العنيف بين روما وقرطجنة وبعلاقاتها الودية مع الدول الغربية .

وهكذا يتكشف لنا أن بطلميوس الثالث اقتفى بدقة خطوات أبيه فى اتجاهات السياسة الخارجية نحو الشمال والشرق والغرب .

وعندما ارتقى بطلميوس الرابع عرش مصر ، وأطلق العنان لشهواته الجامحة ، اعتقد أنطيوخوس الثالث أن الفرصة قد سنحت لسلب مصر جوف سوريا ، غير أن بطلميوس ترك عبثه ومجونه وخف للدفاع عن امبراطوريته . ومن أجل ذلك أعاد تنظيم الجيش وأدمج للمرة الأولى فى قواته المقاتلة عدداً كبيراً من المصريين يعزى إليهم الفضل الأكبر فى الأنتصار فى موقعة رفح فى عام ٢١٧ على جيوش أنطيوخوس الإغريقية (٢) .

وعاد الملك المهزوم ليعمل بنشاط من أجل إعادة بناء امبرطوريته ، وسلب البطالمة جوف سوريا ، ذلك الاقليم الذى أصبح منذ عهدبطلميوس الأول سبباً دائما للنزاع بين هاتين المملكتين المتنافستين .

وفى الوقت نفسه وقف فيليب الخامس ملك مقدونيا جهوده على دعم سلطانه فى بلاد الإغريق ، والفوز بسيادة بحر إيجة . وكانت روما عندئذ تجد فى إفناءقوة قرطجنة وبناء صرح مجد شامخ لنفسها (٣) . وحين كانت ساحات البحر الأبيض

---

(١) ابراهيم نصحى ص ٦٧ وما بعدها
(2) Polyb. V, 63—66; Bouché-Leclercq I, pp. 301-314.
(3) Rostovtzeff, S.and E., pp. 49 ff.

المتوسط فى شرقه وفى غربه تشهد هذه الأحداث الجسام ، أى حين اعتلت مسرح السياسة فى العالم الهيلينستى ثلاث قوى فتية وثابة ، وهى روما وفيليب الخامس وأنطيوخوس الثالث ، قنع بطلميوس الرابع بذلك النصر الباهر الذى أحرزه فى موقعة رفح ، وانهمك أشد الانهماك فى حياة المجون والعبث التى شغلته حتى عن العمل على الاحتفاظ بسيادة مصر البحرية كاملة فى شرق البحر الأبيض المتوسط [(١)] . وحتى نشاط أنطيوخوس الخطر لم يستنهض همتـه وإن دفعه إلى محاولات فاترة للتقرب من مقدونيا . وإزاء الصراع الرهيب بين روما وقرطجنة احتفظ بحياد دقيق برغم كل ماحاولته سيراكوز فى عام ٢١٥ لاستدراجه إلى التحالف مع قرطجنة[(٢)] . وتدل هذه المحاولة على أمرين : وأحدهما أن بعض الأوساط الهيلينية كانت توجس شراً من انتصار روما على قرطجنة ، ومن ثم تنتظر من الدولة المصرية العظيمة موقفاً غير الموقف الذى اتخذته ، والأمر الآخر أنه كانت لاتزال لمصر مكانة عظمى بين الأغريق .

لقد عرفنا أنه كان للسياسة الخارجية التى اتبعها البطالمة الثلاثة الأوائل هدفان رئيسيان ، وهما استقلال مصر استقلالا تاما سياسياً واقتصاديا ، والتمتع بأكبر قسط ممكن من السيطرة على عالم بحر إيجة . وقد نجح أولئك البطالمة إلى حد بعيد فى تحقيق هذين الهدفين ، وكان لسياستهم الخارجية أول الأمر جبهتان ، فى الشمال والشرق ، ثم أصبحت لهـا جبهة ثالثة فى الغرب . أما منذ عهد بطلميوس الرابع فإن البطالمة لم يحاولوا إلا تحقيق الهدف الأول ، إذ أنهم اضطروا تدريجياً إلى طرح تحقيق الهدف الثانى جانباً إزاء ضغط القوى الفتية الوثابة التى مر بنا ذكرها ، وإزاء الضعف الـكامن فى أولئك البطالمة الأواخر وفى رجالهم الذين ألقيت إليهم مقاليد الحـكم ، وإزاء الثورات المصرية الخطيرة التى اندلع لهيبها فى البلاد ، وأخيراً إزاء الخلافات العنيفة بين أفراد أسرة البطالمة منذ عهد بطلميوس السادس .

---

(1) Polyb. XIV, 12.; cf. Bouché-Leclercq I, pp. 325 ff.

(2) Bouché-Leclercq, I, pp. 318 ff.

فلا عجب أن اتفق المؤرخون على اعتبار موقعة رفح حداً فاصلا بين العهد الذى بلغت فيه دولة البطالمة أقصى اتساعها وأوج مجدها والعهد الذى أخذت فيه عوامل الضعف والاضمحلال تدب إليها ، حتى سقطت هيبتها وذهبت سطوتها ، ففقدت أملاكها فى الخارج وتزعزع سلطانها فى الداخل ، وأصبحت تتناوبها الغزوات والثورات إلى أن انتهى بها الأمر إلى أفول نجمها وزوال استقلالها .

ويلاحظ أنه منذ موقعة رفح فى عام ٢١٧ حتى موقعة اكتيوم فى عام ٣١ ق.م. قد مرت سياسة مصر الخارجية فى أدوار ثلاثة :

أما الدور الأول فهو من موقعة رفح فى عام ٢١٧ حتى وفاة بطلميوس الخامس فى عام ١٨٠ ق . م :

حين أثار تخاوف مصر انكباب أنطيوخوس الثالث على لم شمل إمبراطوريته وتوسيع رقعتها ، عملت مصر على التقرب من مقدونيا وروما[1] ، لكن اضطرابات مصر الداخلية وخوار عزيمة حكامها وفسادهم شجعت أصحاب المطامع ، أعداءها منهم والحلفاء ، فإنه فى نفس الوقت الذى أحسن فيه فيليب استقبال بعثة مصرية أوفدت لتعقد معه معاهدة تتضمن شروطها زواج ابنته من بطلميوس الخامس ومساعدة فيليب لمصر ضد أنطيوخوس ، عقد فيليب مع أنطيوخوس فى عام ٢٠٣ / ٢٠٢ معاهدة مخزية على نحو ما يصفها بوليبيوس اقتسما بمقتضاها ممتلكات مصر الخارجية[2] . وهكذا سرعان ما فقدت مصر ممتلكاتها فى تراقيا وغاليبولى وآسيا الصغرى وجوف سوريا ، ولم يبق لهـا من ممتلكاتها سوى قبرص وبرقة[3] .

وقد خرجت روما فى عام ٢٠٢ من صراعها مع قرطجنة منتصرة وإنما منهوكة

(1) Bouché-Leclercq, I, pp. 342 ff.
(2) Polyb. XV, 20.
(3) Bouché—Leclercq I, pp. 351—3; C. A. H. VIII, pp. 150—1; Jouguet, Nat. Eg. III, p 125.

القوى . وهكذا فى الوقت الذى بدأ فيه فيليب وأنطيوخوس أعمال السطو على ممتلكات مصر ، كانت روما تستشعر الحاجة إلى فترة من الراحة والهدوء تسترد فيها أنفاسها وتضمد جراحها ، لكن أطماع فيليب وأنطيوخوس ألقت فى قلب روما الفزع والهلع . لقد غزا هانيبال إيطاليا ، فلماذا لا يقدم فيليب وأنطيوخوس على غزو روما ؟ ألم يعتزم الاسكندر الأكبر ضم الغرب إلى إمبراطوريته العالمية ؟ ألم ينضم بيروس (Pyrrhus) بعد ذلك إلى المدن الإغريقية فى جنوب إيطاليا ضد روما ، فأثبت بذلك أنه يوجد فى بلاد الإغريق رجال قادرون على أن يوحدوا ضد روما كل الذين يضيقون بسيادتها فى إيطاليا ؟ وإلى جانب كل ذلك لقد خرجت قرطجنة من الحرب البونية الثانية مهزومة لكنه لم يقض عليها ، وكانت تود دون شك أن تثأر لهزيمتها ، فهل كان يبعد أن يتحالف معها فيليب ؟ كانت كل هذه الأفكار تدور بخلد الرومان ، فهم لم يأمنوا يوما جانب الدول الهيلينستية الشرقية ، فقد كانت لها تقاليد حربية جليلة وكانت موطن أعظم الاختراعات فى فنون القتال . ولذلك لم يضع الرومان وقتاً طويلا قبل أن يشتبكوا مع فيليب ثم أنطيوخوس ويهزموهما الأول فى عام ١٩٧ والثانى فى عام ١٨٩ ، وذلك بحجة الدفاع عن حرية الإغريق وأملاك بطلميوس المسلوبة[١] .

ولما لم يكن من صالح روما أن ترى مصر قوية شديدة البأس فانها عندماهزمت أنطيوخوس — وكان قد استولى على الجانب الأكبر من امبراطورية البطالمة — وزعت ، بمقتضى معاهدة أباميا (Apamia) [٢] ، كل ما انتزعته منه بين رودس وبرجام لتتخذ منهما أداة لتنفيذ سياستها ولتوجد توازنا بين القوى فى الشرق باضعاف مصر وسوريا وتقوية رودس وبرجام ، وكذلك لتنشر الفرقة والانقسام بين القوى التى كان من الممكن أن تتحد ضد روما بدافع الخوف على كيانها إزاء ازدياد الأطماع الرومانية .[٣]

---

(1) Rostovtzeff, S. and E. pp. 52 ff.; Holleaux M.. Rome, la Grèce, et les monarchies hellenistiques au 3eme siècle av. J. C., Paris. 1921, pp. 60-96.

(٢) أنظر شروط المعاهدة فى Appianus, Syr. 44; Mithrid. 62; Diod. XXIX, 10; Livius XXXVII, 55—56, XXXVIII, 37—39; Polyb. XXII, 7.

(3) Jouguet, Nat. Eg , p. 132: Bouché-Leclercq I. pp. 392-3.

ومن ثم فإن مصر لم تفقد أغلب ممتلكاتها فحسب ، بل إنها ، وقد ارتمت فى أحضان روما تنشد حمايتها من أنطيوخوس ، مهدت السبيل لضياع استقلالها الذى كانت لا تزال تتمتع به شكلا وفعلا . وآية ذلك أنه عند ما توفى أنطيوخوس الخيف فى عام ١٨٧ وخلفه على العرش ابنه الضعيف سليوكوس الرابع ورأى بطلميوس الخامس فى ذلك فرصة لاسترداد جوف سوريا ، قرر اتباع سياسة مستقلة عن روما التى كانت قد خيبت آمال مصر منذ عهد قريب ولا يمكن أن توافق على مثل هذا المشروع . وبيان ذلك أنه حاول فى عامى ١٨٥ و١٨٣ عقد معاهدة تحالف مع العصبة الآخية [١] ، وكانت حليفة روما ، وإن كانت حليفة غير مطيعة ، وتشارك كل الإغريق تقريبا العواطف العدائية للرومان التى أصبحت تجيش فى صدورهم . وينهض هذا الاتصال بالعصبة الآخية دليلا على أن بلاط الإسكندرية كان يحاول إحياء سياسته التقليدية التى تنطوى على القيام بدور حامى حمى الحرية الإغريقية . وفى الوقت نفسه أنفذت الإسكندرية الرسل إلى بلاد الإغريق لتجنيد فرق جديدة من المرتزقة ، لكن وفاة بطلميوس الخامس فى عام ١٨٠ قضت على المفاوضات مع العصبة الآخية [٢] ، وتبعاً لذلك على مشروعات الإسكندرية ولو مؤقتا [٣] . فلم تجد روما ضرورة لأفهام مصر أنها هى وحدها الحكم الفاصل فى مسألة الحرية الإغريقية ، بل فى كافة مشاكل العالم الهيلينستى [٤] .

أما الدور الثانى فهو منذ ارتقاء بطلميوس السادس فيلومتور فى عام ١٨٠ حتى وفاة بطلميوس التاسع سوتر الثانى (لا ثيروس) فى عام ٨٠

مهدت الظروف فى هذا الدور لروما لكى تبسط سلطانها الفعلى على مصر ، وإن احتفظت مصر باستقلالها الأسمى . ويعزى تغلغل النفوذ الرومانى فى مصر

---

(1) Cf. Polyb. XXII 3, 5-6; 7, 1-2; 9, 1-12; XXIV, 6, 1—7.

(2) Polyb. XXIV, 6, 7.

(3) Bouché Leclercq, I, pp. 393-9.

(4) C A. H. VIII, p. 283; Bevan, pp. 273-4; Jouguet, Nat. Eg., pp. 132-4.

فى خلال هـذا الدور إلى عاملين : وأحدهما أنه فى مستهل هذا الدور غزا أنطيوخوس الرابع مصر نفسها ولم ينقذها من براثنه إلا تدخل روما التى أرغمته على الانسحاب من مصر ورد قبرص إليها (١) ، إذ لم يكن فى وسع روما السماح لأمبراطورية السليوكيين بالأتساع بحيث تضم مصر بين جوانبها لأن ذلك كان دون شك يهدد مركز روما فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، ويقضى على سياسة توازن القوى التى كانت روما تتبعها هناك . وفى الواقع أن روما لم تقض من قبل على أنطيوخوس الثالث لـكى تسمح الآن لانطيوخوس الرابع بالأستيلاء على دولة البطالمة ، ومن ثم يتضح جلياً أن روما لم تنقذ مصر حباً فيها أو انتصاراً للاستقلال والحرية وإنما إشفاقاً على نفسها من قوة أنطيوخوس .

والعامل الآخر هو استحكام النزاع بين بطلميوس السادس وأخيه الأصغر بطلميوس الثامن واتخاذهما روما فيصلا وحكما فى هذا النزاع الدموى الذى استغلته روما لتحقيق أغراضها ، فاستفحل خطبه منذ ذلك الوقت بين أفراد أسرة البطالمة ، وسجل التاريخ صفحة حوادثه بين أقسى وأروع ما سجله عن أمراء أعمت أبصارهم وأضلت بصائرهم ألوان الترف والنعيم التى شبوا فى أحضانها ، وأفسدت نفوسهم وألهبت شهواتهم مظاهر السلطة المطلقة التى نشأوا فى كنفها ، وضروب الخلاعة والاستهتار التى عاشوا فى ظلها ، فـكانوا مزيجاً من الرذائل التى تتولد فى جو فاسد مسمم قوامه سلطان لا يحد ، وشعب ذليل مستكين يكاد لا يملك حق التألم ، وحاشية فاسقة لا تعنى بغير اللهو والقصف ، وجرثومة عليلة منـكرة هى ثمرة تزاوج الأخوة بأخواتهم .

ورغم هذه الأحداث الداخلية الجسيمة ، وكابوس النفوذ الرومانى الثقيل ، فان مصر لم تنس جوف سوريا ، وحاولت مراراً استغلال الاضطرابات التى كانت تقطع أوصال إمبراطورية السليوكيين لاستعادة ذلك الجزء الجميل من ممتلـكاتها

---

(1) Polyb, XXIV, 11; Diod. XXXI, 2; Livius, XLIV, 19; XLV, 12; Bouché Leclercq II, pp. 21-7.

السابقة لكنها باءت بالفشل(١) . وفضلا عن ذلك فانها فقدت أيضاً برقة ، إذا أن بطلميوس الثامن ايواجتيس الثانى كان قد نزل عنها لابنه غير الشرعى بطلميوس ابيون وهذا أورثها لروما فى عام ٩٦(٢) .

أما الدور الثالث فهو منذ وفاة بطلميوس التاسع سوتر الثانى فى عام ٨٠ حتى موقعة أكتيوم فى عام ٣١ ق . م

وقد بلغ من ازدياد نفوذ روما فى مصر أنه منذ وفاة بطلميوس التاسع فى عام ٨٠ ق . م . أصبح مصيرها متعلقاً بمصير الصراع الحزبى فى روما : إذ أن زعماء حزب الشعب كانوا يطالبون بضم مصر إلى الامبراطورية الرومانية استنادا إلى وصية زعموا أن بطلميوس الحادى عشر أورث مصر وقبرص بمقتضاها للأمة الرومانية ، وإن عجزوا عن إبراز هذه الوصية فى خلال المناقشات التى دارت حولها مدى عشرين عاما . غير أنه لم يغب عن أحـــد أن الدافع وراء مطالبة الزعماء الديمقراطيين بضم مصر كان الرغبة فى الافادة من ثروتها لكسب رضاء العامة فى روما . أما نبلاء الرومان فانهم كانوا يناهضون مطالب الديمقراطيين وذلك من أجل الاحتفاظ بسلطتهم ومن أجل الاغتراف من موارد مصر ، فقد كانت مصلحتهم فى ترك المسألة معلقة لكى يستبقوا ملك مصر تحت رحمتهم ويرغموه على إشباع أطماعهم (٣) . وقد بقى مصير عرش بطلميوس الثانى عشر (الزمار) فى كفة القدر إلى أن ابتاع تأييد الزعيم الشعبى يوليوس قيصر بمبلغ كبير يعادل تقريباً أكثر من مليون وربع مليون جنيه ، فصدر قانون تعترف فيه روما بهذا الرجل التعس ملكا على مصر وحليفاً وصديقاً للشعب الرومانى(٤) . وهكذا أتت النجاة لبطلميوس من الجانب الذى أقض مضاجعه مدة طويلة ، لكن

(1) Jouguet, Nation Egyptienne, pp. 145 ff.

(2) Liv., Epit., LXX; Bouché-Leclercq II pp. 188-9; Jouguet, Nat Eg. p. 151.

(3) Bouché — Leclercq, II, pp. 128 — 33; Jouguet, Nat. Eg. pp. 192 — 4; Cary, pp. 370 — 71; C. A. H., IX, pp. 475 — 86.

(4) Suet., Caes., 54; Cf. Cicero, Ad Att. II, 5 — 16; Bouché — Leclercq ,II pp. 135 — 7; Cary, 376.

روما لم تلبث أن سلبت مصر قبرص(١) . ولم يكن استيلاء روما على قبرص إلا عملا من أعمال السطو الصارخة ، إذ لم يكن له أى مبرر إلا غنى هذه الجزيرة وجشع روما . وبضم قبرص إلى روما بعد برقة لم يبق من دولة البطالمة إلا مصر ، وحتى مصر لم يبق لهـا من الاستقلال إلا اسم أجوف .

وحين وصلت مكانة أسرة البطالمة إلى الحضيض حتى بدا محققاً أنها ستزول فى ظرف سنين قلائل كما زالت من قبل أسرة السليوكيين ، شاء القدر أن تشرق شمس البطالمة من جديد إشراقاً يخطف الأبصار قبل أن تغيب إلى الأبد ، فكان إشراقاً أشبه شىء بصحوة الموت . إذ عندما كانت دولة البطالمة تعالج سكرات الموت ، ارتقت عرش مصر كليوبترة السابعة وسرعان ما رأت سلطانها لا يمتد على ممتلكات البطالمة القديمة فحسب ، بل كذلك على أقاليم لم يحلم بها أحد من البطالمة الثلاثة الأوائل . ولما كان أولئك البطالمة الأوائل رجالا فانهم أقاموا دعائم امبراطوريتهم على قوة سواعدهم ، لكن الآن وعندما لم تعد لقوة مصر الحربية قيمة تذكر إلى جانب قوة روما ، وعندما لم يعد فى وسع أى ملك متربع على عرش مصر إنقاذ دولته المتداعية بأى قوة يملكها ، كان القابض على صولجان مصر إمرأة ، فاستخدمت فى السياسة والحرب سلاحا فتاكا جديداً — أو بلغة العصر الحديث سلاحا ذريا — هو سلاح المرأة الفاتنة التى تمكنت من استخدام قوة روما أداة لتنفيذ أغراضها(٢) .

فقد سيطرت أولا على يوليوس قيصر الذى يبدو أنه ، وقد استسلم لهوى كليوبترة فى الوقت الذى كان يتطلع فيه إلى إقامة نفسه ملكا ، كان يرى أن كليوبترة خير من تصلح لمشاركته سلطانه الواسع ، أو بعبارة أخرى كان يفكر فى أن يتم نعمة الله عليه بالزواج من تلك الملكة . ولا عجب أن علت كليوبترة نفسها بأوسع

---

(1) Liv., Epit., CIV; Dio Cassius, XXXVIII, 30; Bouché-Leclercq II, pp. 277-8.

(2) Bevan, pp. 359 — 60: Jouguet, Nat. Eg. pp. 204 — 5.

الآمال ، وبدا لها عندئذ أن صلة أسرتها بمصر لم تكن فى أثناء القرون الثلاثة التى خلت إلا مرحلة انتقال للتربع فوق عرش امبراطورية عالمية لا تكون مصر إلا إحدى ولاياتها . لكن نبلاء الرومان لم يلبثوا أن أجهزوا على هذه الآمال عندما أجهزوا على قيصر فى عام ٤٤ ق . م .[1]

ومع ذلك لم تنقض بضع سنين حتى انتعشت آمال كليوبترة مرة أخرى عندما أوقعت فى شباكها صيداً جديداً : وهو مارك أنطونيوس الحاكم المطلق فى النصف الشرقى من الامبراطورية الرومانية ، الذى وضع نفسه وكل ما يملك تحت إمرة كليوبترة ، فقد تزوجها وقسم بينها وبين أولادها كل الولايات الرومانية فى آسيا[2] . ولما كان أنطونيوس وكليوبترة لم يقنعا بالنصف الشرقى فى العالم الرومانى فإنهما أخذا يستعدان لمنازلة أوكتافيوس للفوز بالنصف الغربى أيضاً وحكم العالم الرومانى بأجمعه . وهكذا بدا لكليوبترة بعد عشر سنين من تبديد أحلامها بمقتل قيصر ، أنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من أن تصبح إمبراطورة العالم . لكن شتان مابين الأمانى العذبة والواقع الأجاج ، فقد حطم أوكتافيوس كل تلك الآمال فى موقعة أكتيوم ، ولم يلبث أن دخل الإسكندرية فى العام التالى وضم مصر إلى الامبراطورية الرومانية .

ويحق لنا أن نتساءل : أكان كل مايدور بخلد كليوبترة أطماعاً جامحة فقط أم كان وراء ذلك أيضاً هدف أسمى وأنبل ؟ أو بعبارة أخرى : أكانت تشارك خيال أحد أنصارها الذى تصور فيها الزعيم الذى قيض له أن يقود ثورة الشرق ضد روما ، ثورة المظلوم على الظالم ، لا للانتقام لكل الإهانات التى نزلت بأسرتها فحسب ، بل لإنشاء عالم أفضل من العالم القديم ، بإنزال روما من عليائها إلى الحضيض ، لتأخذ بيدها ثانية وقد طهرتها الهزيمة من أوضارها ، فتشترك

(1) Bouché—Leclercq II, pp. 218 — 23; Bevan, pp. 368 — 9; Jouguet, op. cit., pp. 217 — 8.

(2) Dio Cassius XLIX, 41; Plut., Anton., 54; Bouché — Leclercq II, pp. 277 — 9; Jouguet, 229 — 30; C. A. H. X, pp. 80 — 2.

فى عصر ذهبى يتخلص فيه العالم من الشرور والحروب ، وتنتهى إلى الأبد العداوة بين الشرق والغرب ، فيقفان سويا على قدم المساواة فى كنف العدالة وفى ظلال المحبة والأخاء ؟ ليس هناك أمل فى أن نقف على كل نوايا كليوبترة ، لكنه إذا صح أنها بلغت فى نبل تفكيرها حد محاولة تحقيق آمال الإسكندر ، فإن هذا يكسبها دون شك كل تقدير وإجلال ، وإن لم يكن مقدراً لها النجاح فى محاولتها(١).

ويستوقف النظر فيما عرضناه إعراض البطالمة عن الجبهة الجنوبية ، التى كانت موضع عناية الفراعنة منذ أقدم العصور . وإذا كان هذا لا يدهشنا بالنسبة للبطالمة الأواخر الذين اكتنفتهم المخاطر من كل جانب حتى شلت حركتهم ، فكيف نفسر ذلك بالنسبة للبطالمة الفاتحين ، ملوك الأسرة الأوائل ؟ لقد مر بنا أن البطالمة الأوائل انصرفوا بوجه عام إلى تكوين امبراطورية بحرية حول شواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقية وبحر إيجة ، مدفوعين إلى ذلك بعدة عوامل ، أهمها ظروف النضال مع خلفاء الإسكندر الأكبر على اقتسام الامبراطورية المقدونية ، وطبيعة أصلهم ونشأتهم ، وما بينهم وبين الأغريق من اوشائج حتى أنهم جعلوا جل اعتمادهم على الأغريق فى تشييد صرح دولتهم ، وتقديرهم أن امبراطورية تتألف من أقاليم تمت بصلة إلى الحضارة الأغريقية وتقع بالقرب من مراكز هذه الحضارة تكون أبقى لهم على الدهر وأجدى عليهم ، وخير نصير لهم فى تحقيق ما كانوا يهدفون إليه من لعب الدور الأول فى سياسة البحر الأبيض المتوسط الدولية . ولا ريب فى أنهم قد استشعروا أن مكانتهم الدولية — فى عالم تعتبر فيه الحضارة الإغريقية أرفع الحضارات طراً — كانت تتوقف إلى حد كبير على ظهورهم فى ثوب رافعى لواء الحضارة الإغريقية ، بخلع مسحة ولو ظاهرية من هذه الحضارة على دولتهم . وإذا كان ذلك أمراً ميسوراً فيما يخص مصر ،

(1) C. A. H., X, pp. 82 - 3.

فإنه كان ضرباً من المحال فيما يخص كل وادى النيل . ولعل البطالمة أن يكونوا قد قدروا أن تحقيق وحدة وادى النيل ، كان من الممكن أن يحمل فى طياته خطراً داهما عليهم باعتبارهم ملوكا إغريقاً أخرجوا من أفق تفكيرهم بناء دولة قومية ، وذلك لأن وحدة الوادى بما تنطوى عليه من إحياء سيرة الفراعنة العظام ومجد وادى النيل القديم قد تفضى إلى بعث أمة وادى النيـــل من جديد ، فيتلاشى فى أرجاء بلادها الفسيحة رسل الحضارة الإغريقية ، ولا يلبث أن يرتقى فرعون وطنى عرش وادى النيل . ومن ثم فإن البطالمة بوجه عام اكتفوا بالمحافظة على سلامة حدود مصر الجنوبية وعقد أواصر الصداقة مع مملكة الجنوب ، والاهتمام بتجارة الجنوب والشرق ، وخاصة عن طريق البحر الأحمر . وقد ازداد هذا الاهتمام بالتجارة الشرقية الوافدة عن طريق البحر الأحمر منذ فقد البطالمة منافذ التجارة الشرقية التى كان ينتهى عندها طريقا الشمال والوسط ، أى منذ فقدوا شواطىء آسيا الصغرى وجوف سوريا .

ويتضح إذن من كل ما مر بنا أنه إزاء الظروف التى اكتنفت البطالمة اتخذت سياستهم الخارجية وجهات جديدة صوب الشمال والشرق والغرب ، فقد قدروا أنه كان يمكنهم الاستغناء عن وحدة وادى النيل بإمبراطوريتهم البحرية وبالعلاقات التجارية التى أنشأوها مع الغرب وكذلك مع الشرق . لكن يبين أن التوفيق قد أخطأهم فى هذا التقدير ، فمن ناحية كلفهم إنشاء هذه الأمبراطورية جهوداً مضنية وأموالا طائلة ، ودفعهم إلى ممالأة الأغريق على حساب المصريين واستنزاف موارد البلاد واستثارة عداء الكثيرين عليهم .

ومن ناحية أخرى عندما اشتد ساعد منافسيهم وأخذت روما تتسع باطراد فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، فقد البطالمة إمبراطوريتهم البحرية ولم يجدوا فى داخل دولتهم عضداً كافياً حتى للاحتفاظ بملكهم من العدوان الخارجى . وهكذا استنفد البطالمة قوتهم وأضاعوا ثروتهم فالتهمت روما دولتهم لقمة سائغة .

أسطول البطالمة الحربى

كان الهدف الرئيسى للسياسة الخارجية التى نهجها البطالمة الأوائل هو المحافظة على استقلال مصر التام ، وضمان قيامها بالدور الأول فى العالم الهيلينستى فى حلبة السياسة وفى مضمار الاقتصاد . وكانت الوسيلة المثلى لتحقيق هذا الهدف هى إحراز سيادة بحر إيجة ، فتسيطر مصر على الطرق التجارية فى العالم القديم . وكان ذلك ينطوى على إقامة امبراطورية بحرية شبيهة بإمبراطورية أثينا الغابرة . وقد أفلح بطلميوس الأول سوتر فى بسط سيطرته على عصبة جزر بحر إيجة ، ونجح بطلميوس الثانى فيلادلفوس فى دعم هذه السيطرة . ولما كانت السيطرة على عصبة الجزر لا تكسب مصر إلا سيادة جزئية على بحر إيجة من الناحيتين الإقتصادية والسياسية ، فإنه لاستكمال هذه السيادة حاول فيلادلفوس بسط حمايته على شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية والغربية ، ونشر نفوذه على المدن التجارية الكبرى القائمة على مضايق الدردنيل وبحر مرمره والبسفور والشواطىء الجنوبية للبحر الأسود . وحيث أنه كان يتهدد سلامة هذه الإمبراطورية الايجية سيطرة قوة أخرى على الموانى الكبرى فى فينيقيا وفلسطين وما يتوافر لديها من موارد بحرية ، فإن البطالمة — حالما أتيحت لهم الفرصة — استولوا على فلسطين وفينيقيا وجزء من سوريا ، وحاولوا — بقدر ما سمحت لهم الظروف — الاحتفاظ بسيادتهم على هذه الأقاليم . ومن أجل المحافظة على سيادة مصر فى بحر إيجة ، والحيلولة دون ازدياد قوة ملوك مقدونيا البحرية اضطر سوتر وفيلادلفوس وخلفاؤهما إلى محاولة دعم نفوذهم فى أهم الموانى الأغريقية [1] . وقد عنى البطالمة أيضا بحماية حدودهم الغربية ، ولذلك فإن سوتر ما كاد يحط رحاله فى مصر حتى استولى على برقة [2] .

---

(1) Rostovtzeff, Soc. and Econ. Hist. Hell. World, p. 29.

(2) Bouché — Leclercq, Hist. Lagides, I, pp. 16 — 17,

ومنذ ذلك الوقت حرص هو وخلفاؤه على الاحتفاظ بهـذا الإقليم . وفضلا عن ذلك فإن مصر لاتطل على البحر الأبيض المتوسط فحسب ، بل تطل أيضا على البحر الأحمر ، ولم يهتم البطالمة بتنشيط علاقاتهم التجارية مع الشمال والغرب فقط ، بل أيضاً مع الجنوب والشرق[1] . لـكن فوز البطالمة بسيادة بحر ايجة ملك عليهم عقولهم وتغلب فى نظرهم على كل ماعداه ، فقد كانوا يعتبرون سيطرتهم على بحر إيجة دعامة كيانهم السياسى ومصدر قوتهم وعماد استقلالهم ، فإن بقاءهم منعزلين فى مصر كان يتركهم ضعافا عاجزين أمام سوريا التى تسيطر على إغريق الأناضول ، وأمام مقدونيا التى تسود أغريق البلقان ، فى حين أن سيطرتهم على الطرق التجارية فى بحر إيجة وسوريا كانت توفر لهم موارد عظيمة من المـال والرجال وحرية فى النشاط والعمل تهيىء لهم ما يبتغونه من الثراء والقوة[2] . اللازمين لتحقيق هدفهم السياسى .

ويتضح مما أسلفناه أن تحقيق هذا الهدف كان ينطوى على مناهضة مصالح مقدونيا وسوريا ، وكذلك على حرمان كثير من الجزر الإغريقية فى بحر إيجة والمدن الإغريقية فى آسيا الصغرى استقلالها العزيز عليها . ومن ثم كان تحقيق ما يستهدفه البطالمة يتطلب مجهوداً حربياً عنيفا مستمراً ، يتولاه جيش قوى وأسطول كبير .

وعندما توفى الإسكندر الأكبر ، لم تقسم إمبراطوريته فحسب بل قسم أيضاً جيشه ، وكان يتـكون من ثلاث مجموعات : أولاها ، الفرق المقدونية التى كانت تحت أمرة أنتيپاتروس فى بلاد الإغريق ، وثانيتها ، الجيش الذى اضطلع بعبء الحملة فى الشرق ، وثالثتها حاميات الولايات فى طول الإمبراطورية وعرضها[3] . وعندما قسم جيش الإسكندر بين قواده ، احتفظ أنتيپاتروس بالقوات التى كانت تحت قيادته ، وأخذ پرديكاس ، فيما يبدو ، جيش الحملة ، وآل إلى كل من القواد

(١) إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ص ٣٩١ — ٤٠٥ .
(2) Rostovtzeff, op. cit., pp. 29, 30.
(3) Droysen, Hist. de l'hell., Paris, 1883—5 p. 130.

الآخرين حامية الولاية التى فاز بها[1] . ونحن لانعرف عدد قوات ولاية مصر ولا كيفية تكوينها عندما أقيم عليها بطلميوس واليا فى عام ٣٢٣ ، وإن كنا نعرف على الأقل أنه بعد مافتح الإسكندر مصر ترك فيها جيشاً وأسطولا[2] . وعلى كل حال فإن القوات التى كانت تعتبر كافية لاستبقاء مصر فى حظيرة الإمبراطورية المقدونية ، فى الوقت الذى كانت فيه جيوش هذه الإمبراطورية تجتاح كل شىء أمامها ، لم تكن كافية لتحقيق أهداف بطلميوس ، ولذلك فإنه كأغلب القواد الآخرين ، اتخذ من القوات التى وجدها فى ولايته نواة لبناء قوات أكبر من ذلك وأعظم .

وليس هنا مجال الإفاضة فى كيفية تكوين الجيش ، لكنه لابد من الإشارة إلى مايجمع عليه المؤرخون من أن البطالمة الأوائل ، على الأقل ، جعلوا جل اعتمادهم فى بناء جيوشهم على المقدونيين والإغريق وأشباههم ، الذين تطوع بعضهم فى خدمة البطالمة — أملا فى الفوز بالمنح والامتيازات — وكونت منهم الفرق النظامية ، وباع البعض الآخر خدماتهم لملوك مصر وكونت منهم الفرق المرتزقة . ولاشك فى أن البطالمة الأوائل اعتمدوا إلى أقصى حد على المقدونيين والإغريق وأشباههم ، لثقتهم فى كفايتهم وبسالتهم فى ميادين القتال ، فقد كانوا خيرة جنود العصر ، كما أن جيوش منافسيهم كانت لاتتألف إلا من هذا الطرازمن الجنود[3] . وفضلا عن ذلك فإن البطالمة كانوا لايستطيعون الإعتماد على المصريين، إما لارتيابهم فى مقدرتهم الحربية ، أو فى إخلاصهم الطاعة لهم ، أو لرغبتهم ، ككل دخيل مغتصب ، فى ألا ينتشلوا الأمة المصرية من وهدة الاضمحلال التى تردت فيها .

وذلك لأن الجيش فى كل دولة وفى كل عصر قلب الأمة النابض ، ورمز

---

(1) Lesquier, Les inst. milit. de l'Eg. sous les Lagides, p. 1.

(2) Arrian, Anab. III, 5, 3 ff.

(3) Rostovtseff, op cit., pp. 262 — 3; C. A. H. VII, p. 118.

حيويتها وعنوان مجدها . لكن لابد من أن أولئك البطالمة كانوا يخشون أيضا إغفال أمر الجنود المصريين كلية ، وذلك لكي لاينشر أولئك الجنود روح التذمر فى البلاد فيثور المصريون ، يوم كان البطالمة فى أشد الحاجة إلى الهدوء والسكينة داخل دولتهم[1] .

فكيف حل البطالمة الأوائل هذه المشكلة ؟ يبدو لنا أنه من العسير علينا اليوم أن نعرف على وجه التحقيق الدور الذى قام به الجنود المصريون فى جيش البطالمة قبل عصر بطلميوس الرابع فيلوباتور ، لكن ديودوروس يحدثنا بأنه فى موقعة غزة (عام ٣١٢) كان جيش بطلميوس الوالى يضم عددا كبيراً من المصريين ، كان بعضهم يقوم بأعمال النقل ، والبعض الآخر مسلحاً ويمكن استخدامهم فى القتال[2] . وترينا بعض وثائق القرن الثالث محاربين مصريين فى حيازة كل منهم اقطاع مساحته خمس أرورات [3] . ويحدثنا بوليبيوس بأن تسليح المصريين فى عهد بطلميوس الرابع كان عملا صائبا فيما يخص الحاضر ، لكنه كان بدعة خطيرة تهدد المستقبل [4] . فهل تدل عبارة ديودوروس على أن بطلميوس الأول اضطر فى أزمة عام ٣١٢ إلى استخدام المصريين فى الجيش ، ثم عدل بعدذلك عن هذه التجربة ، حتى أنه عندما أشرك فيلو باتور المصريين فعلا فى القتال فى موقعة رفح اعتبر ذلك خروجا على التقاليد البطلمية ؟ أم أن البطالمة الثلاثة الأوائل لم يدمجوا المصريين فى صلب الجيش ، بل عهدوا إلى بعضها بأعمال النقل وما أشبه ذلك من الأعمال الثانوية ، وسلحوا بعضها الآخر بالأسلحة الخفيفة أو بأسلحتها المصرية العتيقة استعداد للطوارىء فى حالة الضرورة القصوى ، حتى أنه عندما أدمج فيلو باتور المصريين فى صلب الجيش وسلحهم بالأسلحة المقدونية اعتبر ذلك

---

(١) إبراهيم نصحى س ٤٦١ .

(2) Diod., XIX, 80, 4.

(3) Cf. Lesquier, op, cit., pp 172 ff.

(4) Polyb., V, 107, 1 — 3.

بدعة خطيرة ؟ وعندنا أن الاحتمال الثانى أدنى إلى الصواب ، استناداً إلى ماتنطوى عليه عبارتا ديودوروس وپوليبيوس من المعانى ، وإلى صغر مساحة إقطاعات الجنود المصريين حتى موقعة رفح ، لأن ذلك يدل دلالة قاطعة على ما كان للمصريين من الأهمية الثانوية فى الجيش البطلمى .

وإذا كان المصريون قد أدمجوا فى صلب الجيش على عهد فيلو پاتور ، فإنهم كانوا يؤلفون فرقاً مستقلة بهم ، واستمروا يكونون جزءاً مستقلا من الجيش حتى نهاية القرن الثانى على الأقل ، بل حتى نهاية أسرة البطالمة فيما يبدو[1] . وفضلا عن ذلك فإنه قد بقى للأجانب من رجال الجيش القدح المعلى من ناحيتى الغلبة فى العدد والمكانة والامتيازات[2] .

نستخلص إذن مما مر بنا أن المقدونيين والإغريق كانوا خيرة جنود العصر ، وأن منافسى البطالمة كانوا يؤلفون جيوشهم من هؤلاء الجنود ، وأن البطالمة بوجه عام والأوائل منهم بوجه خاص كانوا يعتمدون فى تكوين جيوشهم على هذا الطراز من الجنود ، وأنه إذا كان المصريون منذ عهد بطلميوس الرابع قد أدمجوا فعلا فى الجيش وسلحوا بالأسلحة المقدونية ، فإن الغلبة قد بقيت للأجانب من حيث العدد والمكانة والامتيازات . والآن ماذا كان من أمر الأسطول ؟

لقد أسلفنا أن سياسة البطالمة الخارجية كانت تستهدف السيطرة على طرق التجارة فى بحر إيجة وفى البحر الأحمر ، بل بناء امبراطورية بحرية ، وأن أهداف هذه السياسة كانت مناهضة لمصالح سوريا ومقدونيا ولتمتع الكثير من الجزر الإغريقية فى بحر إيجة والمدن الإغريقية فى آسيا الصغرى باستقلالها ، ومن ثم كان يتعين أن يكون للبطالمة أسطول كبير . وقد نجح البطالمة الأوائل فى بناء

---

(1) Lesquier, op. cit., pp. 7 — 8, 19 — 20, 28.

(٢) ابراهيم نصحى ص ٧٥٧ .

هذه الإمبراطورية البحرية ، التى بلغت أوج اتساعها على عهد بطلميوس الثالث أيوارجتيس ، واحتفظت مصر بهذه الإمبراطورية إلى أن ضاعت كل ممتلكاتها الخارجية ، ماعدا قبرص وبرقة ، على عهد بطلميوس الخامس إبيفانس . وفضلا عن ذلك فإن البطالمة الأوائل قد تمتعوا بسيادة البحار فى فترات من عهد بطلميوس الأول والثانى والثالث . وحتى بعد انهيار امبراطورية البطالمة ، كانت مصر لا تزال فى حاجة إلى أسطول قوى لحمـــاية تجارتها البحرية التى كانت لا تزال نشيطة[١]، بل أنها ازدادت عندئذ نشاطا فى البحر الأحمر . وبيان ذلك أن المجهودات التى كان البطالمة الأوائل يوجهونها إلى آسيا الصغرى وسوريا من أجل السيطرة على منافذ الطرق التجارية القادمة من الشرق تحولت منذ عهد بطلميوس الثامن ايوارجتيس الثانى فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد إلى « طريق الجنوب » ، فأخذت المراكب المصرية تجوب البحر الأحمر ، وبعد أن كانت لا تتخطى بوغاز باب المندب اجترأت إذ ذاك على اجتياز هذا البوغاز ، ووصلت إلى الاقليمين اللذين كانا ينتجان العطور وهما : حضرموت فى جنوب بلاد العرب ، وبلاد بنت على شاطىء الصومال[٢]. ويحدثنا بوسايدونيوس (Poseidonios) بأنه فى عهد بطلميوس الثامن أبحر ايودوكسوس (Eudoxos) فى رفقة بحار هندى إلى الهند[٣]، فكان أول اغريقى وصل إلى الهند دون الاستعانة بالطرق البرية . وقد ساعد على رواج تجارة مصر الشرقية إنهيار مملكة سبأ فى عام ١١٥ ق . م[٤] ، ومساعدة روما لمصر على حساب سوريا وفلسطين[٥] ، واستكشاف هيپالوس (Hippalos) طرق الاستفادة من الرياح الموسمية حوالى

---

(1) Rostovtzeff, op. cit., p. 1256.

(2) Préaux, L'econ. royale des Lagides, pp 358 — 9.

(3) Strabo, 90 — 102.

(4) Tarn, Hell Civ., p. 214.

(5) Joseph. Ant. XIV. 249 — 50.

عام ١٠٠ ق . م[١] مما يسر اجتياز باب المندب بل الإبحار إلى الهند مباشرة . والواقع أنه إزاء نقص موارد البطالمة الأواخر وازدياد مطالب إيطاليا من منتجات بلاد العرب والهند فى أواخر القرن الثانى ، اكتسبت التجارة الشرقية فى نظر البطالمة الأواخر أهمية لم تكن لها من قبل[٢] . وليس أدل على ذلك من إنشاء منصب جديد فى أواخر القرن الثانى وبداية القرن الأول قبل الميلاد ، وهو منصب « قائد البحر الأحمر والمحيط الهندى » (epi tes Erythras kai Indikes thalasses)[٣] . وكل هذا يشير إلى اهتمام البطالمة الأواخر بتأمين البحار الشرقية ، وإلى وجود أسطول لهم يقوم بحماية التجارة فيها ، وإلى قيام علاقات منتظمة بين مصر والهند أكسبت البحرين الأحمر والهندى أهمية لم تكن لهما من قبل[٤] . وفى الواقع لدينا أدلة على مجىء تجار هنود إلى مصر ، مثل نصب الموتى التى وجدت فى الاسكندرية وعليها رموز هندية[٥] .

وفى الوثائق التى ترجع إلى أواخر عهد بطلميوس الخامس إبيفانس ترد لأول مرة الإشارة إلى وجود سفن من الأسطول الملكى فى النيل . ومرد ذلك إلى الاضطرابات التى أخذت تسود البلاد منذ أواخر العهد السابق ، مما أدى إلى ضرورة اتخاذ ما يكفل سلامة التجارة النهرية . ومن أجل ذلك أنشئت فى عهد بطلميوس الرابع أو الخامس فرقة من المحاربين المصريين (Machimoi) لتقوم بتأمين سلامة السفن فى النيل ، ومن ثم أطلق على أفرادها „Naukleromachimoi„ ونحن نعتقد أن الأصح ترجمة هذه الكلمة بالمحاربين البحريين لا بالمحاربين الذين يحرسون الملاحين .[٦]

ومن ثم يتبين لنا من القرائن التاريخية أنه كان للبطالمة ، ولا سيما لأوائلهم ، أسطول عظيم لعب دوراً هاما فى تاريخ العصر الهيلينستى ، الذى شهد سباقا

(1) Jouguet, Nat. Eg III. p. 171.
(2) Tarn. p 215.
(3) Rostovtzeff, p. 928; O. G I. S. 186, 190.
(4) Jouguet, Nat. Eg. III, pp. 169 — 170.
(5) Petrie, Jour. R. A. Soc., 1898, p 875.
(6) Rostovtzeff, p. 715.

فى التسلح البحرى شبيها بما نراه اليوم[1]. وقد كان أحد أسباب إعجاب الناس إذ ذاك ببطلميوس فيلادلفوس قيامه بإنشاء أنواع جديدة من السفن الحربية ؛ ويروى أثينايوس أن هذا الملك قد بز الملوك الآخرين فى الأسلحة البحرية[2].

وتنهض الأسانيد الأثرية أيضاً دليلا على عظمة أسطول البطالمة ، فقد عثر فى الدلتا على قطعة من الفسيفساء ، محفوظة الآن بمتحف الاسكندرية ، صورت فيها الاسكندرية باعتبارها سيدة البحار . فقد رمز إلى الاسكندرية بسيدة على رأسها تاج بحرى ، وعلى كتفيها عباءة حربية ، وفى يدها اليسرى رمز الانتصارات البحرية ، وكان يحمل عادة فى المهرجانات التى تقام فى هذه المناسبات ، وهو عبارة عن زخرفة خشبية كان يزين بها مؤخر السفن . ويرجح روستوفتزف أن هذه الفسيفساء ، التى قد ترجع إلى فترة متأخرة فى عصر البطالمة ، منقولة عن قطعة فنية أقدم عهداً وأعظم شأناً من هذه الفسيفساء ، ابتكرها أحد فنانى الاسكندرية للاشادة بالمجد البحرى الذى أحرزه البطالمة الأوائل[3].

وقد عثر فى بيت ريفى رومانى بالقرب من ليتيس ماجنا (Leptis Magna) على لوحة من الفسيفساء يعتقد روستوفتزف أنها تصور « الميناء الملكى » داخل الميناء الكبير (المينا الشرقية اليوم) ومدخل قصر البطالمة ، وأن هذه الفسيفساء — التى ترجع إلى القرن الثانى الميلاد — منقولة عن نموذج يرجع إلى عصر البطالمة ويهدف فيما يبدو إلى تمجيد سيادة البطالمة البحرية وازدهار تجارتهم فى كنف أسطولهم العظيم[4].

وبالرغم من كل ما نعرفه عن عظمة أسطول البطالمة والدور الكبير الذى لعبه هذا الأسطول ، مما يقطع بأنه كان للبطالمة ، ولا سيما لأوائلهم ، أسطول ضخم ،

---

(1) Préaux, L'economie royale des Lagides, p. 37.
(2) Athen., V, 203. d.
(3) Rostovtzeff, op. cit, pp. 254, 1360, pl. XXXV.
(4) Rostovtzeff, pp. 352, 1042 — 3, pl. XL, 2.

فإن معلوماتنا عن هذا الأسطول طفيفة جداً[١]. فنحن لا نعرف عن قوة أسطول البطالمة في العهود المختلفة أكثر مما يرويه ديودوروس[٢] من أن عدد سفن بطلميوس الأول في موقعة سلاميس (عام ٣٠٦) كان ١٤٠ سفينة ، بينما يقول بلوتارك[٣] أنه في هذه الموقعة كان تحت إمرة بطلميوس ١٥٠ سفينة وتحت إمرة أخيه منلاوس ٦٠ سفينة ، ومما يذكره أثينايوس وابيانوس عن معدل قوة أسطول فيلادلفوس . وقد ورد في كتاب اثينايوس[٤] ، نقلا فيما يبدو عن كاليكسينوس ، أن عدد أكبر السفن التي لدى هذ الملك كان يبلغ ٣٣٦ سفينه ، وذلك فضلا عن ٤٠٠٠ سفينة « كانت ترسل إلى الجزر والولايات الأخرى التابعة له وكذلك إلى ليبيا » . أما أبيانوس[٥] فقد ذكر أنه كان تحت إمرة هذا الملك « ألفان من سفن النقل والسفن الصغرى و ١٥٠٠ سفينة حربية و ٨٠٠ سفينة بها حجرات وشي صدرها وعجزها بالذهب ، فقد كان الملوك أنفسهم يستخدمونها عند ذهابهم إلى المعارك البحرية » . وقد لاحظ أحد المؤرخين المحدثين[٦] أن مجموع سفن فيلادلفوس وفقاً لما ذكره اثينايوس (٤٠٠٠ + ٣٣٦ = ٤٣٣٦) يتفق تقريباً مع ما ذكره ابيانوس (٢٠٠٠ + ١٥٠٠ + ٨٠٠ = ٤٣٠٠) . ويميل هذا المؤرخ إلى الاعتقاد بأن سفن فيلادلفوس الحربية كانت ٣٣٦ سفينة ، بل يتشكك في أنها كانت تصل إلى هذ العدد . ومن الجلي أن هذا الرأي متأثر بالعبارة التي وردت في أثينايوس ، وإن كان أثينايوس لم يحدد سفن فيلادلفوس الحربية بهذا العدد . وفضلا عن ذلك كيف كان هذا العدد من السفن الحربية يكفي فيلادلفوس للتمتع بسيادة بحر إيجة في وجه مقاومة

(1) Lesquier, op. cit, p. 255

(2) Diod. XX, 49, 2.

(3) Plut, Demetr., 16. 1.

(4) Athen, V. 203. d.

(5) App., Prooemion, 10.

(6) Tarn, Antigonos, Gonatas. pp. 456 - 7

منافسيه الأشداء ، مع الاحتفاظ بسلامة شواطئ مصر وسلامة ممتلكاته الخارجية فى هذا البحر وضمان خضوعها له ، وكذلك سلامة الملاحة فى البحر الأحمر ، التى كان يتهددها قراصنة النبط [١] . ومع ذلك إذا كان يصعب علينا أن نعتقد أن فيلادلفوس ، برغم وفرة موارده وما تمتع به من سيادة بحرية وممتلكات خارجية وما كان عليه من تبعات جسام فى البحرين المتوسط والأحمر لم يمتلك إلا ٣٣٦ سفينة حربية ، فإنه يصعب كذلك أن نقبل تلك الأرقام الضخمة التى ذكرها اثينايوس وابيفانيوس ، ولا سيما أنه لاسبيل إلى التأكد من صحتها . وإزاء ذلك فإن كل ما يمكننا أن نستخلصه فى اطمئنان مما ذكره هذان المؤرخان هو أن أسطول فيلادلفوس كان يتألف على الأقل من أربع فئات من السفن وهى :

١ — فئة لخوض المعارك .

٢ — فئة لحماية ممتلكات مصر الخارجية .

٣ — فئة لنقل الجنود والرسائل والمواد الحربية والغذائية .

٤ — فئة لنقل الملك وحرسه وحاشيته .

ومن الجائز أنه كانت توجد فئة خاصة لتأمين طرق الملاحة أو أنه كان يعهد فى هذه المهمة إما إلى الفئة الأولى أو الفئة الثانية .

وكيف كوّن البطالمة أساطيلهم ؟ لقد أسلفنا أن الإسكندر ترك فى مصر بعد فتحها قوات برية وبحرية ، وأنه مهما كان عدد هذه القوات فإنها لم تكن كافية لتحقيق أغراض بطلميوس ، ولذلك فإنه مثل أغلب قواد الإسكندر الآخرين اتخذ من القوات التى وجدها فى ولايته نواة لبناء قوات أكبر من ذلك وأعظم [٢] .

---

(١) ابراهيم نصحى ص ٣٩٩ .

(2) Lesquier, op. cit., p. 2; Rostovtzeff, p. 263.

ويبدو طبيعيا أن نفترض أن الملك كان يبنى جانبا من الأسطول على نفقة الدولة . وإذا كان يعوزنا الدليل المـادى على ذلك من عهد بطلميوس سوتر ، فإن وثيقة بردية محفوظة فى أكسفورد ولم تنشر بعد وترجع إلى عام ٢٥١/٢٥٠ ق . م . تحتوى على أمر من فيلادلفوس إلى وزير ماليته أبولونيوس ليقطع عدداً كبيراً من الأشجار لبناء سفن حربية(١) .

ويستخلص من إحـدى الوثائق البردية(٢) ومن أحد المراجع القديمة(٣) أن جانباً آخر من الأسطول كان سفنا يستـــأجرها الملك . ولم يكن ذلك أمراً غريبا ، فقـد كان الملك يستأجر المحاربين الذين يتقنون فنا معيناً من فنون الحرب . وفضلا عن ذلك فإنه كان شائعاً بين ملوك العصر الهيلينستى نظام استئجار السفن والبحـــارة من المدن ، وأحياناً استئجار وحدات بحرية من القراصنة (٤) .

وتشير القرائن إلى أن جانباً ثالثاً من الأسطول كان يتألف — وفقا للنظام الذى ابتدعته أثينا — من السفن التى كان يفرض على الأثرياء من المواطنين إعدادها وتقديمها للملك . فقد شاع هذا النظام خارج أثينا فى كل عصر واتبعه الاسكندر الأكبر نفسه (٥) . حقاً ليست لدينا إلا وثيقة بردية واحدة (عام ٢٥٨/٢٥٧ ق . م .) خاصة بتطبيق هذا النظام فى إحدى مدن الامبراطورية البطلمية وهى مدينة هاليكارناسوس (٦) ، لكن ، كما يقول فيلكن (٧) ، من العسير أن نتصور أن هذه المدينة كانت تتحمل وحدها هذا العبء دون غيرها من سائر

(1) Rostovtzeff, p. 1318.

(2) Lesquier, p. 257, fn 4; P, Lond. 1, 106.

(3) Polyb V, 89, 4

(4) Rostovtzeff, p. 1579; C. A. H VII, p. 118.

(5) Wilcken, in Raccolta Lumbroso, 1925, pp. 97 — 8.

(6) C. Zen. P. 67; Annales XXII, pp. 209 ff.; P. C. Zen. 59036; Hunt - Edgar, Select, Papyri II, 410; Raccolta Lumbroso, pp. 93. ff.

(7) Op. cit, p 97.

الثغور الأغريقية التى فى حظيرة الإمبراطورية البطلمية . ومن المعقول أن نتصور أيضاً أن البطالمة قد فرضوا هذا العبء كذلك على مواطنى الثغور الفينيقية وعلى مواطنى مدن مصر الاغريقية [١] . ولا شك فى أن هذا العبء لم يفرض على المصريين أيضا ، لاشفقة بهم وإنما لأنه لم يكن فى وسعهم ، على الأقل على عهد البطالمة الأوائل ، الاضطلاع به بسبب فقرهم وقلة مواردهم مع كثرة الالتزامات الأخرى التى أرهقهم البطالمة بها .

وعندما سيطر البطالمة على عصبة جزر بحر إيجة كان أسطول هذه العصبة يكون جزءاً مهما من أسطولهم [٢] .

أما عن رجال الأسطول فيجب أن نلاحظ أنهم كانوا يتألفون من عنصرين رئيسيين وهما عنصر المجدفين والبحارة ، وعنصر المحاربين . ووفقا للنظم المتبعة فى كافة أنحاء العالم القديم ، كان العنصر الأول يتألف من أدنى طبقات السكان [٣] . ولما كان البطالمة قد وضعوا المصريين فى أسفل الدرك ، وكان طبيعيا أن يتبع البطالمة النظم المألوفة ، فلابد من أن العنصر الأول فى أساطيلهم كان يتألف من المصريين . ويتأيد ذلك بما ورد فى القرار الذى صدر فى العام التاسع من عهد بطلميوس الخامس ابيفانس (شهر مارس عام ١٩٦ ق.م) وحفظه لنا حجر رشيد المشهور ، فإن هذا القرار يتضمن إعفاء مزارعى المعابد وعبيدها من الخدمة فى الأسطول [٤] . ويبدو معقولا أن البطالمة لم يفرضوا هذه الخدمة على مزارعى المعابد دون غيرهم من سائر فئات المزارعين . لكن البطالمة الأواخر ، وقد وهنت قواهم ولمسوا قوة الكهنة المصريين وأخذوا يتقربون إليهم بشتى الوسائل ، لم يعفوا إلا مزارعى المعابد وعبيدها من الخدمة فى الأسطول . وإذا كان هناك شك فى أن بطلميوس

(1) Rostovtzeff, p. 334.

(2) Rostovtzeff, p. 333.

(3) Lesquier, p. 256.

(4) Cf. Mahaffy, Empire of the Ptolemies. p. 320; Bevan, pp. 264 — 5 Lesquier, pp. 256 — 7.

الرابع — ليتقرب إلى المصريين بوجه عام والـكهنة بوجه خاص — قد توج على نهج الفراعنة لأول مرة في عهد البطالمة ، فلا سبيل إلى الشك في أن بطلميوس الخامس قد فعل ذلك في شهر نوفبر عام ١٩٧ ، أى خمسة أشهر قبل ذلك القرار الذى ورد فيه هذا الإعفاء . وتشير إحدى الوثائق إلى أن المساجين أيضا كانوا يشتركون في تـكوين العنصر الأول من رجال الأسطول [١] . ويبين أن بعض المرتزقة كانوا يستخدمون كذلك لهذا الغرض [٢] .

ويرى لسكيبيه أن جنود الأسطول أيضاً كانوا يؤخذون من المصريين ولـكن من تلك الطبقة الممتازة ، طبقة المحاربين المصريين (machimoi) . ويستند هذا الرأى إلى أن باوسانياس [٣] يحدثنا ، في خلال الـكلام عن دور أمير البحر البطلمى باتروكلوس (Patroclos) في أثناء حرب خرمونيدس ، بأن باتروكلوس طلب إلى الاسبرطيين مهاجمة انتيجونوس ورجاله المقدونيين على أن يقوم هو بالهجوم عليهم من الخلف ، وإلا فانه لايكون من الانصاف لرجال أسطوله المصريين منازلة المقدونيين في البر .

فلنناقش أولا الحجة التى يعزوها باوسانياس إلى باتروكلوس ويستند إليها لسكيبيه ، وفيما يبدو أيضا غيره من المحدثين [٤] . أمن المعقول أن يـكون البطالمة الأوائل — الذين لم يثقوا في كفاية المصريين الحربية ومقدرتهم على منازلة المقدونين ، ومن ثم لم يعتمدوا عليهم في تـكوين جيوشهم — قد اعتمدوا عليهم في تـكوين قواتهم المحاربة البحرية مع العلم بأن أغلب ، إن لم يكن كل ، معارك الأسطول البطلمى كانت ضد إغريق ومقدونين ؟ أليس ما عزاه باوسانياس إلى باتروكلوس يدل دلالة قاطعة على عدم ثقة البطالمة وقوادهم في كفاية المصريين

(1) P. Petrie III, 43, 1. 3.

(2) P. Grenfel. I, 9, I. 2; Lesquier, p. 257, fn. 4.

(3) Paus. III, Laconia, VI, 5.

(4) Bevan, p. 175; C. A. H. VII, p 118.

الحربية ؟ ومعنى ذلك أن حجة باتروكلوس غير مقبولة . وإذا صح أن جنود الأسطول كانوا فعلا من المصريين ، فلا بد من أن البطالمة لم يقدموا على ذلك إلا بعد أن أثبت المصريون كفايتهم ومقدرتهم على منازلة المقدونيين وغيرهم واقتنع البطالمة وقوادهم بذلك . وفى هذه الحالة أيضا تبطل حجة باتروكلوس ، وإلا فانه يكون معنى كلامه أن البطالمة وقوادهم ، بالرغم من عدم ثقتهم فى كفاية المصريين الحربية ومقدرتهم على منازلة المقدونيين ، قد كونوا جنود أسطولهم من المصريين . وإذا جاز هذا ، وهو أمر غير مقبول فى نظرنا ، فما كانت إذن فائدة مثل هذا الأسطول للبطالمة الذين كانت قوات منافسيهم البحرية تتألف من المقدونيين والاغريق ؟ ولماذا إذن ذهب باتروكلوس لنجدة أثينا مع علمه تمام العلم بأن الأعداء الذين سيجابههم كانوا من المقدونيين وبأن رجاله غير أكفاء لمنازلتهم ؟ وهكذا يتبين لنا شيئان : واحدهما أن حجة باتروكلوس لم تكن إلا عذراً منتحلا لتبرير سياسة سيده الذى لم يكن متحمسا للتعرض للمخاطر من أجل قضية لم يكن ينتظر من ورائها أى منفعة ؛ والآخر أنه لا يمكن الاستناد إلى هذه الحجة فى القول بأن جنود أسطول البطالمة ، وخاصة الأوائل منهم ، كانوا من المحاربين المصريين .

وإذا كان لا يمكن الجزم بأن المصريين قد اشتركوا فعلا وباستمرار فى جيوش البطالمة قبل موقعة رفح فى عام ٢١٧ ق . م ، بل يساعد على الاعتقاد بأن هذا الاشتراك لم يحدث أن مساحة اقطاعاتهم حتى هذا التاريخ لم تزد على خمس أرورات ثم زيدت هذه المساحة بعد ذلك . وإذا كنا نعرف أن بطلميوس الرابع فيلوپاتور لم يعتمد على المصريين فى موقعة رفح إلا مضطراً حين كانت المخاطر تحف به ، ولم يكن فى وسعه تجنيد عدد كاف من المقدونيين والاغريق[1] ، وكنا نعرف أيضاً أن أحداً من البطالمة الأوائل لم تضطره الظروف إلى ذلك فى

---

(١) ابراهيم نصحى ص ١٦٥ و ١٦٦ .

تكوين القوات البحرية ، وكنا نعرف كذلك أنه حين أقدم بطلميوس الرابع على الاعتماد على المصريين وصف القدماء عمله هذا بأنه « بدعة خطيرة » مما يقطع بأن أحداً من أسلافه لم يسبقه إلى ذلك ، فإننا نستبعد أن يكون البطالمة الأوائل قد اعتمدوا على المصريين فى تكوين جنود الأسطول . وفضلا عن ذلك فإنه عندما كون فيلوپاتور قلب جيشه فى موقعة رفح من المصريين — وبذلك أتاح لهم الفرصة لإثبات كفايتهم الحربية — وأحرزوا نصراً مبيناً فى هذه الموقعة على القوات المقدونية والإغريقية ، أذكى هذا الفوز روح الوطنية الكامن فى صدورهم وأعاد إليهم ثقتهم بأنفسهم فأصبحوا لايتهيبون الثورة على طغاتهم . ويسلم المؤرخون منذ عهد پوليبيوس[1] بأن ثورات المصريين على البطالمة منذ عهد بطلميوس الرابع ترجع إلى انتصارهم فى موقعة رفح . ولاجدال فى أن البطالمة الثلاثة الأوائل كانوا أكثر صلفا وتعنتا فى معاملة المصريين من البطالمة الأواخر ، ولاجدال أيضاً فى أن أسطول البطالمة الثلاثة الأوائل قد قام بأعمال باهرة جداً ، فلو صح الزعم بأن جنود هذا الأسطول كانوا من المصريين لـكان لهذه الانتصارات من الأثر فى نفوس المصريين مثل ما كان لانتصار رفح . لـكننا لانجد دليلا على تذمر المصريين من حالهم على عهد أولئك البطالمة أكثر من الاحتجاج والإضراب عن العمل والفرار إلى المعابد للاحتماء بالآلهة[2] ، وذلك على عهد بطيموس الثانى ، ومن القيام بثورة واحدة غير خطيرة على عهد بطلميوس الثالث . ولم تكن هذه الثورة نتيجة لانتصار بحرى رائع وإنما فيما يبدو من جراء ما أصاب المصريين من إرهاق نتيجة للاستعدادات الـكبيرة لفتوحات بطلميوس الثالث فى أواسط آسيا ، وكذلك نتيجة للمجاعة التى يذكرها قرار كانوب[3] .

وإزاء ما تقدم إذا كان من الجائز أن جانباً من المحاربين البحريين فى أسطول البطالمة الأوائل كانوا مصريين ، فاننا لا نستطيع التسليم بأن كل أولئك الجنود

(1) Polyb. V, 107, 1 — 3.

(2) Peremans, in Rev. Belge de Philc. et d'Hist., 1933, pp. 1005. ff; Chron. d'Eg., 1936, pp. 159 ff.

(٣) ابراهيم نصحى ص ٧٦٨ و ٧٦٩ .

البحريين كانوا مصريين . والواقع أنه يأخذنا العجب حقاً إذا كان أولئك البطالمة ، الذين وضعوا جل اعتمادهم على المقدونيين والإغريق فى تكوين قواتهم البرية ، لم يعتمدوا على الأغريق والمقدونين إلى حد كبير فى تكوين قواتهم البحرية أيضاً . أما منذ عهد فيلوپاتور ، أى منذ سمح للمحاربين المصريين بالاشتراك الفعلى فى جيوش البطالمة ، فاننا لا نستبعد أنهم قد استخدموا أيضاً جنوداً فى الأسطول . لـكن إذا كانت لم تصبح لهم حتى فى ذلك الوقت الغالبية بين رجال الجيش ، فمن المعقول أيضاً أنهم لم يصبحوا غالبية جنود البطالمة البحريين . ولذلك نعتقد أنه على عهد البطالمة ، الأوائل منهم والأواخر ، كان جل ، إن لم يكن كل ، جنود البطالمة البحريين من الإغريق ومن على شاكلتهم ، وأن كل جنود الأسطول النهرى كانوا ، من المحاربين المصريين ، وأن كل مجد فى الأسطول البحرى — أى الأداة الدافعة فى هذا الأسطول — كانوا من الزراع والعمال المصريين والمساجين . ويؤيد هذا الرأى أن ديودوروس يحدثنا بأنه عقب موقعة غزة فى عام ٣١٢ وضع بطلميوس الأول أسرى الحرب فى الوحدات البحرية (nauarchiai)[1] ، وأن وثيقة بردية[2] من عام ١٥٩ ق . م . ترينا بين محاربى الأسطول رجالا من الجزر الإغريقية .

أما أجر جنود الأسطول فليست لدينا عنه أى معلومات ، فهل كانوا يعاملون معاملة جنود الجيش ، أى هل كانوا يمنحون اقطاعات مثلهم ومثل كثير من موظفى الدولة ؟ أم أنهم كانوا يعطون مرتبات كالإغريق من رجال الشرطة فى القرن الثالث مثلا ؟ لقد حدا بالبطالمة إلى اتباع نظام منح الإقطاعات ولا سيما لرجال الجيش دوافع عدة لعل أهمها أنه لم يكن من الحـكمة ولا فى الإمـكان تسريح الجيش بعد كل حرب وإعادة تـكوينه قبل الحرب التالية ، لأن أسواق الجنود المرتزقة كانت فى بلاد معادية للبطالمة . ومن ناحية أخرى

(1) Diod. XIX, 85, 4.

(2) Klio, XV, pp. 376. ff.

كان يسبب لهم متاعب جمة ويكلفهم نفقات كثيرة الاحتفاظ بجيش قائم من الجنود المرتزقة يقضون معظم وقتهم عاطلين فى الثكنات . وكان منح الجندى قطعة من الأرض يقوم على استغلالها يربطه بمصر فيتخذها وطنا له وتنشأ بينه وبين الملك علاقات قوية دائمة ، وبذلك يستطيع الملك الاعتماد عليه دائما فى تكوين جيشه وتأييد ملكه ، وادخال وسائل اقتصادية جديدة فى مصر ، وزيادة عدد الأيدى العاملة ، ونشر الحضارة الإغريقية فى أنحاء البلاد [1] . ولا شك فى أن هذه الدوافع نفسها لم تغب عن البطالمة عند تكوين الأسطول ، وكان طبيعيا أن تؤدى بهم إلى اتباع النظام نفسه مع رجاله . لكننا لم نجد فى وثيقة بردية واحدة ما يدل على أن رجال الأسطول كانوا أيضا من أرباب الاقطاعات ، مما يثير الشك فى أن البطالمة قد اتبعوا معهم أيضا نظام الاقطاعات ، فهل يرجع صمت الوثائق إلى الصدفة وحدها أم إلى اختلاف النظام ؟ إن أغلب الإقطاعات التى منحها رجال الجيش كانت من الأراضى التى استصلحها البطالمة فى الفيوم ، ويرجح المؤرخون أن أعمال الاستصلاح لم تكن مقصورة على الفيوم ، بل امتدت إلى مناطق أخرى تشبه الفيوم [2] ، وخاصة فى الدلتا ، حيث كانت تكثر الأراضى المنبسطة الواطئة التى تغمرها المستنقعات وتغطيها الحشائش والأدغال [3] . فهل كانت المنطقة المخصصة لاقطاعات رجال الأسطول فى الدلتا لقربها من الموانى ، ولم تصل إلينا الوثائق البردية الخاصة بأرباب الاقطاعات من رجال الأسطول لأن طبيعة أرض الدلتا لم تساعد على الابقاء على هذه الوثائق ولا على انتشار أعمال التنقيب هناك ؟ هذا محتمل ، ويؤيد هذا الاحتمال قلة معلوماتنا عن الأسطول

---

(1) Rostovzeff, A Large Estate, pp. 135—6; Soc. and Econ. Hell. pp. 284, 287; Préaux, pp. 265—6.

(2) Edgar, Zeno Pap. in Mich., p. 32.

(3) C. A. H. VII, p. 132.

بسبب ندرة ما وصل إلينا من الوثائق البردية عنه . وعلى كل حال إذا جاز أن جنود الأسطول كانوا يمنحون إقطاعات ، فانه من المعقول أن المجدفين والبحارة كانوا يعاملون معاملة العمال ، أي يشتغلون لقاء أجر معين .

ونحن لا نعرف كذلك شيئاً عن عدد رجال الأسطول بنوعيهم ولا عن تشكيلاتهم ، ولكنه يفهم من عبارة ديودوروس التي سبقت الاشارة إليها أن سفن الأسطول كانت تنقسم إلى وحدات ، كل منها تحت إمرة قائد بحري . فقد ورد في هذه العبارة أنه عقب غزوة عام ٣١٢ وضع بطلميوس أسرى الحرب في الوحدات البحرية (nauarchiai) [1] ، ونعرف من النقوش والمراجع القديمة أسماء عدد كبير من قواد (nauarchoi) هذه الوحدات [2] . ولا بد من أن عدد وحدات الأسطول البطلمي كان يختلف تبعاً للعهود المختلفة ، بل تبعاً للظروف المختلفة في عهد واحد . وبطبيعة الحال كانت لهذه الوحدات قواعد بحرية متعددة كانت أهمها الأسكندرية ، وسلاميس بجزيرة قبرص ، وجزيرة ثيرا ، ومن المحتمل أيضاً برقة [3] . ولما كان اهتمام البطالمة بتجارة البحر الأحمر قد حدا بهم منذ عهد أولهم إلى القيام بسلسلة من البحوث الكشفية لمعرفة الشواطيء والشعوب وموارد الثروة أولا في البحر الأحمر وفيما بعد في المحيط الهندي ، وإلى القيام بتأسيس عدد كبير من الثغور والمستودعات على الشاطيء الأفريقي للبحر الأحمر من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، وكنا نعرف أنه قد كان للبطالمة أسطول حربي لتأمين الملاحة في هذا البحر [4] ، فلا بد من أن هذا الأسطول قد اتخذ من بعض هذه الثغور قواعد له .

---

(1) Diod. XIX, 85, 4.

(٢) راجع القائمة بأسماء هؤلاء القواد والقائمة بأسماء حكام قبرص في كتاب ليسكييه سالف الذكر ص ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٥١ .

(3) Lesquier, p. 258.

(٤) ابراهيم نصحى ص ٣٩٨ — ٤٠٤ .

ولانعرف شيئاً كذلك عن مراتب ضباط الأسطول أكثر من أنه كان على رأس كل سفينة ضابط (trierarchos) — لا يبعد أنه كان له مساعد (hypotrierarchos) — وأنه كان على رأس كل وحـــدة بحرية قائد (nauarchos) ، يظهر أنه كان إلى جانب مهامه البحرية يتولى حكم تلك المنطقة من ممتلـكات مصر الخارجية ، التى كانت توجد فيها قاعدة وحدته ، وكذلك قيادة الجنود البريين فى تلك المنطقة ، على نحو ما كان حال حاكم جزيرة قبرص البطلمى . لـكننا لانجد الجمع بين هذه المهام المختلفـة ، باستثناء قبرص ، إلا فى القرن الثانى قبل الميلاد أى فى الفترة التى أخذ فيها نفوذ مصر الخارجى يتقلص أمام نفوذ روما فى شرق البحر الأبيض المتوسط . ويبدو أنه كان يساعد قواد الوحدات ضباط لانعرف مرتبتهم مثل زينون مساعد القائد البحرى باكخون (Bacchon)[١] .

وقد كان الملك البطلمى القائد الأعلى لقواته البرية والبحرية ، شأنه فى ذلك شأن الفراعنة وفيليب المقدونى والإسكندر الأكبر من قبل . وكان بعض البطالمة يتولون فعلا قيادة قواتهم البرية ، لـكنهم كانوا عادة ينيبون عنهم أحد قواد الجيش ليتولى القيادة العامة دون منحه لقباً يميزه عن غيره من القواد ودون أن يكون لعمله صفة الدوام[٢] . ويبدو أن الحال كان مماثلا لذلك فيما يخص الأسطول ، أى أن الملك كان يعهد فى تولى القيادة العامة إلى أحد قواد الوحدات البحرية . فقد أسلفنا أن الأسطول كان يتألف من عدة وحدات (nauarchiai) ، وأنه كان على رأس كل وحـــدة قائد (nauarchos) ، ونعرف وأن كلا من تيموستثينس وپاتروكلوس كان أميراً للبحر ، وأنه لم يكن لأحدهما لقب آخر عدا لقب (nauarchos) .

---

(1) Lesquier, p. 259.

(2) Lesquier, pp. 67 — 9.

البحر الأحمر فى عهد البطالمـــة

البحر الأحمر فريد فى موقعه ، فإن هذا الطريق المائى الذى شاءت الطبيعة أن يكون حلقة الاتصال بين البحار الشرقية والبحار الغربية ، يقع عند التقاء ثلاث قارات من العالم القديم ، فهو يمتد من البحار الجنوبية صوب البحار الشمالية حيث ينتهى بخليجين ، يتجه أحدهما نحو مصر والآخر نحو فلسطين ، كما لو كان الله — جلت قدرته — قد أراد أن يترك الخيار للانسان بعد أن أوحى إليه بالفكرة ليشق لنفسه السبيل .

وقد كانت الملاحة فى هذا البحر شاقة عسيرة على سفن العصور القديمة ، فخلال شهور طويلة تسود فيه درجة حرارة مرتفعة ، وتهب عليه رياح عاصفة تعوق السير إلى الشمال . هذا إلى أنه على كثرة ما فى هذا البحر من الجزيرات والأعشاب المرجانية ، قلما يجد الملاح فيه مأوى أمينا يلجأ إليه ، فشمالى عدن لا توجد موانىء جديرة بالاسم . وقد ترتب على ذلك أنه لم يكن من المتيسر دائماً أن تستمر السفن فى شق عباب هذا البحر حتى نهايته ، بل كثيراً ما كانت تضطر إلى الالتجاء إلى الشاطىء الشرقى أو الغربى فى مكان ما ، حيث تفرغ حمولتها وتستكمل البضائع رحلتها بالطريق البرى . ولم تكن اليابسة أكثر رفقا بالتجار من البحر ، فقد كانوا يواجهون فى الشرق مشاق الصحراء العربية ، وفى الغرب متاعب جبال الحبشة ثم النوبة .

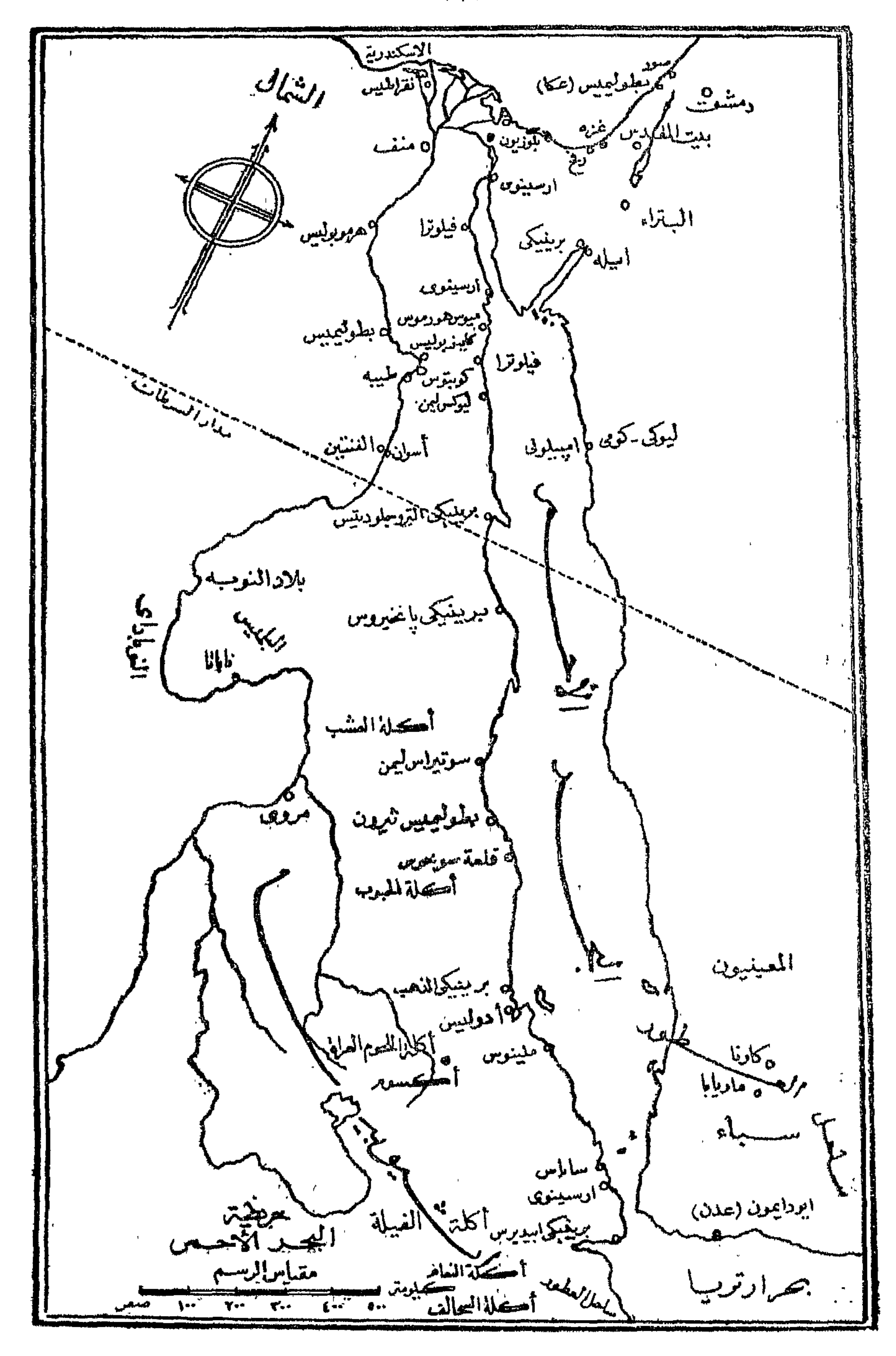
وبرغم تلك الصعوبات البحرية ، كان طريق البحر الأحمر دائما قبلة أنظار التجار فى العالم القديم . فمنذ اتجه الإنسان إلى الملاحة كانت تجارة الصين والهند وبلاد العرب ملتقى أطماع المشتغلين بالتجارة . وقد كان هذا شأنها فى غابر الأزمنة ، ولا يزال هذا شأنها اليوم ، وسيبقى ذلك شأنها ما بقيت قوانين الحضارة معتمدة

على قوانين الطبيعة ، وما بقيت الهيئة الإجتماعية خاضعة لظروف البيئة التى تعيش فيها . ومنذ شقت قناة السويس وكشف عن البترول فى منطقة الشرق الأوسط ازدادت قيمة طريق البحر الأحمر زيادة كبيرة .

وقد كانت من أولى المشكلات التاريخية مشكلة الطرق ، وخاصة الطريق الرئيسى بين الشرق والغرب . فالأمس ، كاليوم ، كانت توجد طرق ثلاثة مباشرة جميعها مفتوحة فى بدايتها ، وجميعها مغلقة فى نهايتها ، وجميعها تتنازع الصدارة أمام عيون أقطاب التجارة . أما هــذه الطرق فهى طريق البحر الأحمر بنهايتيه نحو مصر ونحو فلسطين ، وطريق الخليج الفارسى الذى ينتهى برحلة شاقة من بلاد ما بين النهرين نحو دمشق أو صور .

ونستخلص من استعراض حوادث الماضى أن الفراعنة وغزاة مصر من الأشوريين والفرس والإغريق والرومان وجدوا حل هذه المشكلة فى صالحهم باستيلائهم على فلسطين وسوريا ومصر . وفى العصور الحديثة نجد أن سانت لويس ونابليون ، عند ما جذبتهما هذه الأقاليم ، اعتبروا دائما مصر وفلسطين بمثابة عينين تتجهان نحو الهند وداخل آسيا . وقد راودت الكثيرين فى الأجيال الماضية فكرة ربط البحر الأحمر والبحر المتوسط بقناة تيسر نقل التجارة والاتصال بين الشرق والغرب ، لكن حال دون تنفيذ هذه الفكرة صعاب كثيرة إلى أن أفلح فردنان دلسبس فى تذليل هذه الصعاب ، فشقت قناة السويس وفتحت للملاحة رسمياً فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ .

ولا جدال فى أن مشكلة السيطرة على طرق الشرق هى التى حدت ببريطانيا بادىء ذى بدء إلى احتلال مصر وفلسطين وشرق الأردن والعراق وعدن . ولا جدال أيضاً فى أن هذه المشكلة ذاتها هى التى دفعت فى الماضى القريب — فى عشية الحرب الأولى — بريطانيا وألمانيا إلى نضال عنيف من أجل سكة حديد بغداد .


الشمال
الاسكندرية
نقراطيس
منف
هرموبوليس
دمشق
صور
بطوليميس (عكا)
غزة
بيت المقدس
رفح
بلوزيون
ارسينوى
البتراء
فيلوترا
برينيكى
ايله
ارسينوى
ميوس هورموس
بطوليميس
طيبه
فيلوترا
ليوكى - كومى
اسيلوني
أسوان
برينيكى الترجلودتيس
بلاد النوبه
برينيكى با نخيروس
أكلة المشب
سوتيراس ليمن
مروى
بطوليميس ثيرون
أكلة الحبوب
المعينيون
برينيكى النهيه
أدوليس
ملينوس
كاونا
ماريابا
سباء
ارسينوى
ابوداعون (عدن)
أكلة الفيلة
برينيكوابيديرس
أكلة النعام
أكلة السوالف
ساحل العطور
بحر ارتوريا
خريطة البحر الأحمر
مقياس الرسم
كيلومتر
٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ صفر

وعند ما كشف عن حقول البترول فى الشرق الأوسط ازدادت بريطانيا تشبثاً بمركزها فى هذه المنطقة .

ولا جدال كذلك فى أن البترول ومشكلة السيطرة على الطرق كانا فى مقدمة العوامل التى جعلت فرنسا ، حليفة بريطانيا ، تحتل سوريا ولبنان . ومع ذلك فإن انبعاث الروح القومى فى هذه المنطقة اضطر فرنسا ثم بريطانيا إلى الجلاء عنها كارهتين . واليوم ترقب الدول الكبرى أحداث الشرق الأوسط باهتمام شديد ، وبينما يداعب بعضها الأمل فى استعادة مكانتها القديمة يحاول البعض الآخر التسلل إلى هذه المنطقة بحجة أو بأخرى .

والواقع أن جل المطامع الكبرى تلتقى فى البحر الأحمر ، فى هذا الممر الضيق الذى كانت السيطرة عليه بالأمس ، كما هى اليوم ، وكما ستكون فى الغد ، من الأركان الأساسية فى الحوادث العالمية . وإذا كان لا يزال هناك من يعوزه الدليل على أهمية طريق البحر الأحمر فحسبه اكفهرار وجه العالم حتى بات قاب قوسين أو أدنى من حرب عالمية رهيبة حين استكملت مصر سيادتها على أراضيها بتأميم قناة السويس، وحسبه كذلك اضطراب الحياة فى غرب أوروبا اضطرابا شديداً حين أدى الاعتداء على القناة إلى تعطيل حركة المرور فيها بضعة أشهر بسبب اعتماد تلك الحياة إلى مدى بعيد على ما يمر بالقناة من سلع ولا سيما البترول .

ويمكننا أن نلمس اهتمام الفراعنة بالتجارة الشرقية فى البعثات البحرية المتكررة ، التى كانوا يوفدونها منذ أيام الأسرة الخامسة ، أى منذ حوالى عام ٢٥٠٠ ق . م . ، إلى بلاد بنت ، وهو الاسم الذى كانوا يطلقونه على ساحل الصومال وعلى الجزء الجنوبى الغربى من بلاد العرب . وقد كانت التجارة الإفريقية أقل فى الأهمية من تجارة الجزء الجنوبى الغربى من بلاد العرب ، فإن هذا الإقليم الأخير كان مركزاً هاما للتجارة البرية والبحرية ، ليس بسبب غنى منتجاته

فحسب بل لأن أهله كانوا كالفينيقيين يشتهرون بميل غريزى إلى التجارة ، ويحتكرون نقل منتجات بلاد العرب والهند والصين صوب الشمال : إما إلى الثغور العربية فى البحر الأحمر فالبتراء وغزة والمدن السورية ، أو إلى الثغور المصرية على شاطىء ذلك البحر . فقد كان الأعراب لا يسمحون لسفينة أجنبية باجتياز بوغاز باب المندب ، ولذلك كان يتعين أن تفرغ فى جزيرة سقطرى أو ثغر أدانا (عدن الحديثة) كافة السلع التجارية القادمة نحو البوغاز . وتدل القرائن على أن تجارة مصر مع بلاد العرب لم تكن مقصورة على منتجات تلك البلاد فقط ، وإنما كانت تشمل أيضاً ما يصل إليها من منتجات الشرقين الأوسط والأقصى . ولعل اهتمام الفراعنة بتجارة الشرق كان أحد الدوافع التى حملتهم على فتح سوريا ، لكى لا يكون الطريقان الآخران فى حوزة قوة أخرى تستطيع أن تجعل من كليهما أو من أحدهما منافسا خطيراً للطريق المار بمصر .

وفى عهد الفراعنة كان المصريون يسلكون ثلاثة طرق للذهاب إلى بلاد بنت ، اذ كانوا يتبعون من قفط طريق القوافل الذى يمر شمال محاجر الحمامات وينتهى عند شاطىء البحر الأحمر بميناء صغير يدعى دوأو (Douaou) على بعد بضعة أميال شمال الثغر البطلمى ليوكوس ليمن (Leukos Limen) ، والميناء الحديث القصير . وكان الركب يصل من الوادى إلى هذا الميناء بعد مسير خمسة أيام عبر الصحراء الشرقية . ولتشجيع حركة الانتقال بالطريق الصحراوى بين النيل والبحر الأحمر اهتم الفراعنة بحفر الآبار وإقامة الحاميات على جانبيه .

أما الطريق الثانى فكان القناة التى تربط فرع النيل الشرقى بالبحر الأحمر مارة بوادى الطميلات ، تلك القناة التى يعزو الإغريق حفرها إلى سيزوستريس ، أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ويقال إن حفرها أعيد فى عهد رمسيس الثانى ثم نخاو الثانى وكذلك دارا الأول وأجزركسيس . أما الطريق الثالث فهو طريق أعالى النيل ، ولعله كان أقدم هذه الطرق لأن ملوك الأسرة الأولى كانوا ينعمون

بمنتجات بلاد بنت ولم يعرف عنهم أنهم أخذوا إلى البحر . ولذلك يرجح أن تجارة تلك البلاد كانت تفد عن هذا الطريق ، ولاسيما أنه معروف أن العلاقات التجارية بين شاطئ البحر الأحمر الشرقي والغربي بدأت منذ أقدم العصور . وربما كان اهتمام الفراعنة بهذه التجارة هو أحد الأسباب التي دفعتهم إلى فتح بلاد النوبة وتأمين طرق أعالي النيل .

وقد ترتب على اهتمام الفراعنة بتجارة مصر الشرقية رواج تلك التجارة التي نعرف أنها ازدهرت حينا وتدهورت حيناً آخر بل إنها كادت تتلاشى في أواخر أيامهم بسبب ما انتاب البـــلاد من الغزوات والثورات . لكن عندما فتحها الاسكندر الأكبر وآل ملكها إلى البطالمة الذين وضعوا نصب أعينهم أن يشيدوا فيها صرح دولة مستقلة قوية وغنية ، رأى البطالمة أنه يتعين عليهم أن يعملوا على تفكيك عرى الامبراطورية المقدونية ليفوزوا باستقلالهم السياسي ، وأن يضموا ملحقات مصر الطبيعية ، ويسيطروا على الطرق التجارية ، ليضمنوا سلامة استقلالهم السياسي والاقتصادي . وكان طبيعياً ألا يوجه البطالمة عنايتهم إلى طرق التجارة في بحر إيجه فحسب ، بل أيضاً إلى طرق التجارة الوافدة من أفريقيا وبلاد العرب والهـــند ، وإلى جعل مصر الطريق الرئيسي لمرور تلك التجارة صوب الأسواق الغربية . وقد ترتب على ذلك أن صادرات مصر إلى الممالك الشمالية لم تقتصر على منتجات البلاد فقط ، بل شملت أيضا منتجات الصين والهند وبلاد العرب وأواسط أفريقيا ، وكانت مصر تصدر أغلبها بعد صناعته ومثل ذلك العطور والحلي والعاج . وكانت مصر تصدر إلى البلاد الجنوبية والشرقية منسوجاتها وزيوتها وبضاعتها المعدنية والزجاجية ، وكذلك منتجات البلاد الشمالية مثل المعادن والأصباغ والنبيذ .

ومما يجدر بالملاحظة أنه رغم ماأظهره البطالمة من الاهتمام بطريق البحر الأحمر فانهم في خلال القرن الثالث كانوا أكثر اهتماماً بمنافذ هذا الطريق وغيره من طرق التجارة

الشرقية . وآية ذلك أنهم كانوا يوجهون جل عنايتهم فى خلال ذلك القرن إلى الاستيلاء على والاحتفاظ بشرق الأردن وفلسطين وفينقيا وشواطىء آسيا الصغرى الجنوبية والغربية وتراقيا ، لكنهم عندما فقدوا ممتلكاتهم فى تلك الأقاليم وطردوا منها فى أثناء الربع الأول من القرن الثانى وجهوا كل اهتمامهم ولاسيما فى النصف الثانى من ذلك القرن إلى البحر الأحمر ، فنشطت تجارة مصر مع الجنوب والشرق نشاطاً كبيرا ساعدت عليه عدة عوامل ، كان من أهمها : أولا ، انهيار مملكة سبأ فى عام ١١٥ ق. م . فلم يعد فى وسع الأعراب إغلاق بوغاز باب المندب فى وجه السفن الأجنبية . وثانياً ، كشف طرق الإفادة من الرياح الموسمية حوالى عام ١٠٠ ق . م . وقد كان لهذا الكشف أهمية خاصة لأنه مكن السفن من الإبحار إلى الهند مباشرة دون اضطرارها إلى المساحلة ، وبذلك اختصرت جانباً كبيراً من الرحلة . وفى عصر بطلميوس الثامن أيوارجتيس الثانى وصل إلى الهند أحد أبناء كيزيكوس النازلين بمصر يقوده أحد الملاحين الهنود .

ولا أدل على اهتمام البطالمة بتجارة البحر الأحمر من أنهم أوفدوا سلسلة من البحوث الكشفية لمعرفة الشواطىء والشعوب وموارد الثروة فى البحر الأحمر وفى منطقة المحيط الهندى . وقد بدأ بطلميوس الأول حركة الكشف فى البحر الأحمر ، إذ أن فيلون قائد أسطوله كشف جزيرة الزمرد . واقتفى بطلميوس الثانى خطوات أبيه فأرسل حوالى عام ٢٨٠ أريستون للتعرف على شواطىء بلاد العرب من شبه جزيرة سيناء حتى بوغاز باب المندب ، فزار شاطىء سيناء حتى أيلة النبطية عند رأس خليج أيلة (خليج العقبة) ، ثم اتجه جنوباولاحظ أن النبطلم يتسموا بعدجنوبا إلى ماوراء نهاية الشاطىء الشرقى لخليج أيلة ، وأنه لم يوجدجنوبى النبط إلاقبائل متغيرة . وقد كان أريستون أول إغريقى عرف شيئاً عن القبيلة الكبيرة ثمود ، وكانت تقطن جزءاً من الحجاز ، ووجد جنوبى ثمود على ضفاف نهر دباى (Debai) إقليما أطلق عليه أرض الذهب ، وزار مملكة معين فى جنوب بلاد

العرب . ولابد من أنه قد زار أيضاً مملكتى سبأ وكاتابانيا إذ يذكرها ، بين ممالك بلاد العرب الجنوبية ، أراتوستينيس ، الذى اعتمد فيما كتبه على تقرير أريستون . ولم يذكر هذا الرحالة شيئاً شرق حضرموت ، لأن مهمته انتهت بوصوله إلى مضيق باب المندب .

ومن المحتمل أنه عقب رحلة أريستون أرسل بطلميوس الثانى حملة ضد النبط ، الذين اشتهروا فى عهد البطالمة بأعمال السطو والقرصنة ، اذ لا يبعد أنه كانت توجد منذ القدم علاقات تجارية بين أيلة وهروؤنوبوليس (Heroonopolis) — عند الطرف الشمالى للبحيرات المرة — زادتها نشاطاً زيارة أريستون إلى أيلة ، فنشط أيضاً قراصنة النبط فى الاعتداء على المراكب . ولما كان ينبغى على فيلادلفوس حماية تجارته فمن المحتمل أنه غزا النبط لمعاقبتهم على سوء أعمالهم . ومن المحتمل أيضا أنه استولى إذ ذاك على الشاطىء الشرقى للبحر الميت الذى كان فى قبضة النبط .

وإذ كان هناك خلاف فى الرأى حول إرسال بطليموس الثانى حملة ضد النبط للحد من قرصنتهم ، فإن الكل يتفق على أن رحلة أريستون كانت تمهيدا لتقوية علاقات مصر التجارية مع شمال بلاد العرب ، إذ أن العاهل الاقتصادى كان فى أغلب الأحيان أهم الدوافع وراء ما قام به هذا العاهل . وإذا كانت أشور وبابل وفارس قد حاولت فى أيام عزها الاستيلاء على « طريق البخور » ، فقد كان طبيعياً أن يحاول هذا الملك العظيم أيضا الاستيلاء على هذا الطريق جنوبى النبط ليحول جانبا من التجارة الشرقية إلى مصر فيجنى من وراء ذلك فائدة كبيرة وفى الوقت نفسه يلحق بأعدائه النبط أضراراً فادحة . ولذلك فإنه عقب رحلة أريستون أنفذ حملة إلى بلاد العرب تمخضت عن تنشيط العلاقات التجارية مع شعب ينزل فى الشمال الغربى من الجزيرة العربية على حافة «طريق البخور» ، عند المدينة التى تعرف الآن باسم « العلا » وكانت تعرف باسم مصران وذكرت فى الإنجيل باسم « ددان » ، وكانت مستعمرة لمعين أو فرعا من تلك المملكة .

وكانت تجارة هذه المدينة تنقل بالبر وبالبحر ولذلك لابد من أنه كانت لها ميناء يظن أنها كانت إرجا (Erga) . وكانت هذه الميناء تقع تقريباً فى مواجهة مدخل وادى حمد .

ويبدو محتملا أنه قد ترتب على تنشيط العلاقات التجارية القديمة بين مصر والعلا أن بطلميوس الثانى شجع ميليتوس على إنشاء مستعمرة لها على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر فى مواجهة « المدينة » . ومن هذا الثغر ، الذى عرف باسم امپلونى (Amplone) ، كانت تجارة الهند وبلاد العرب الجنوبية تنقل إلى مصر . وعندما خربت امپلونى أنشىء مكانها أو بالقرب منها ميناء يدعى ليوكى كومى (Leuke Kome) ، وجنوبها كان القدماء يعرفون ثغرين آخرين وهما نجرا ڤكوس (Negra Vecus) وموزا (Muza) . وتحدثنا نقوش الكاهن المصرى زيدل (Zidl) بأنه فى العام الثانى والعشرين من حكم فيلادلفوس استبدل بالبوسوس المصرى بضائع شرقية مع تجار معينيين دون وسيط . ومما يجدر بالملاحظة أن المستكشفين القدماء قد وصلوا فى عصر بطلميوس الرابع إلى أقصى نقطة وصل إليها الملاحون فى العصور القديمة وهى رأس نوتوس (Notos = غاردافوى Gardafui) .

ونجد دليلا آخرا على اهتمام البطالمة بتجارة البحر الأحمر فى المدن والمستودعات التى أسسوها على الشاطىء الافريقى لهذا البحر ، فقد أسسوا هرؤنوپوليس ، عند الطرف الشمالى للبحيرات المرة ، وارسينوى ، على خليج هرؤنوپوليس ، وميوس هورموس (Myos Hormos) ، عند رأس ابى شعر ، وفيلوتيرا (Philotera) عند سفاجة ، وليوكوس ليمن (Leukos Limen) ، عند القصير ، وبرينيكى (Berenike) ، فى مواجهة أسوان تقريباً ، وعدداً من المراكز لصيد الفيلة فى بلاد النوبة والسودان مثل بطولميس الصيد وسوتيراس ليمن (Soteiras Limen) وبطولميس ثيرون (Theron) وغيرها . ولا يجب أن يأخذنا العجب من

كثرة مراكز الصيد فى هذه الاصقاع الجنوبية ، فقد كانت هذه المراكز مقصد ما يوفده البطالمة من حملات لاصطياد أنواع الحيوان النادرة وخاصة الفيلة الإفريقية التى كانوا يستخدمونها فى حروبهم إلى أن ثبت لهم فى موقعة رفح (عام ٢١٧ ق. م.) أن الفيلة الافريقية كانت أقل استعداداً للحرب من الفيلة الهندية فى جيوش خصومهم ، فقل اهتمامهم بهذه العدة تدريجيا إلى أن تلاشت من جيوشهم . وقد أسس البطالمة أيضا ثغراً يدعى ادوليس (Adulis) جنوبى مصوع للاتجار مع مملكة اكسوم ، كما أسسوا ثغراً يدعى ارسينوى بجوار بوغاز باب المندب .

وكذلك يتمثل اهتمام البطالمة بتجارة البحر الأحمر فى عنايتهم بالطرق التى تربط وادى النيل بالبحر الأحمر ، فقد أعاد بطلميوس الثانى حفر تلك القناة القديمة التى كانت تبدأ بالقرب من بوباسطس ثم تخترق وادى الطميلات مارة ببيثوم (Pithom) وهرؤنوبوليس ثم تنحنى صوب الجنوب وتلتقى بالبحر الأحمر عند الميناء البطلمى الذى كان يدعى أولا ارسينوى ثم عرف فيما بعد باسم كليوباتريس — ارسينوى ثم القلزم ثم السويس . واهتم البطالمة أيضاً بالطريق البرى الذى كان يبدأ عند قفط وينتهى عند ليوكس ليمن ، وفتحوا طريقاً آخر بين قفط وخليج أموندى (Immonde) حيث أنشأوا ثغر برنييكى فى مواجهة أسوان تقريباً . وكان يوجد طريقان آخران يمر أحدهما بمحاجر السماقى وينتهى عند ميوس هورموس ، ويمر الآخر بطريق الجرانيت الرمادى وينتهى عند فيلوتيرا . وقد كان يشجع القوافل على استخدام هذه الطرق أنه على جوانبها أقيم عدد من الحاميات وحفر عدد من الآبار ، لكن يبين أن هذه الآبار لم تكن كافية إلى حد يغنى القوافل تماما عن حمل الماء معها . ولا شك فى أن كثرة استخدام هذه الطرق الصحراوية — فقد كان أغلب التجارة فى عصر البطالمة والرومان يمر بهذه الطرق وأقلها بالقناة التى تربط النيل بالبحر الأحمر — ساعد على الاهتمام بتربية الجمال التى أدخلت فى مصر فى العصر الصاوى .

بعض المراجع

Breasted, History of Ancient Egypt.

Cary and Warmington, The Ancient Explorers, London, 1929.

Charlesworth, Trade Routes and Commerce of the Roman Empire, Cambridge. 1926.

Hanotaux, G. , Histoire de la nation Egyptienne, III.

Jones, A. H.M. , The Cities of the Eastern Roman Provinces.

» , Ancient Economic History.

Kammerer, A. , La mer rouge.

Preaux , L'economie royale des Lagides, Bruxelles, 1939.

Rostovtzeff, M. , Caravan Cities.

» , Social & Economic History of the Hellenistic , World, Oxford, 1941.

Tarn, W. , Hellenistic Civilisation, London, (3 rd ed.)

العلاقات بين مصر والدول العربية

فى العصر الهيلينستى

عند وفاة الإسكندر الأكبر فى شهر يونية عام ٣٢٣ ق . م . كانت الإمبراطورية المقدونية تشمل مقدونيا وبلاد الإغريق ومصر وأغلب آسيا من بحر إيجة حتى البنجاب جنوبى القوقاز وبحر قزوين ، فيما عدا شمال آسيا الصغرى وأرمينيا والجزيرة العربية[1] . ومن ثم كانت أغلب الدول العربية التى نعرفها اليوم ، وهى العراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن وفلسطين ومصر ، تكوّن جزءاً من هذه الإمبراطورية . وعندما اجتمع قواد الإسكندر فى بابل ، غداة وفاته ، ليبحثوا مشكلة حكم الإمبراطورية المقدونية تقسمت أقاليمها بين عدة منهم ليحكموها باعتبارهم ولاة من قبل الأسرة المالكة المقدونية . ولم تلبث الدول العربية سالفة الذكر أن آلت إلى اثنين من هؤلاء القواد وهما بطلميوس والى مصر وسليوكوس (Seleucus) والى بابل . وبحكم الجوار وتشابه الأهداف تارة وتعارضها أطواراً ، كانت العلاقات السياسية بين أسرتى هذين الماهاين ودية أحياناً وعدائية أحياناً أخرى . وقد كان لهذه العلاقات الطويلة الأمد أبلغ الأثر فى السياسة الدولية بوجه عام وفى مصير مصر بوجه خاص .

ولم يكد يمضى على وفاة الإسكندر عامان حتى بدأ بين خلفائه صراع عنيف دام أربعين عاماً . وكان السبب الرئيسى لهذا الصراع تصادم الأطماع بين القواد الذين كانوا يهدفون إلى لم شعث الإمبراطورية وتوحيدها وبين حكام الولايات الذين كانوا يتطلعون إلى استقلال كل منهم بولايته . وقد تمخضت الحلقة الأولى فى هذا الصراع عن مقتل برديكاس (Perdiccas) الوصى العام على

---

(1) Tarr, Hellenistic Civilisation, 1930, p. 6.

الإمبراطورية حين أراد أن يفرض سلطانه على الولاة الباقين ، وعن اجتماع القواد في ترپاراديسوس (Triparadisos) في عام ٣٢١ ق . م . لإعادة تقسيم ولايات الإمبراطورية من جـــديد . وكان من أهم قرارات هذا الاجتماع تعيين القائد العجوز انتيپاتروس (Antipatros) وصياً عامّاً على الإمبراطورية وتعيين سليوكوس والياً على بابل ، واحتفاظ أنتيجونوس (Antigonos) بولايته ، وكانت تشمل الجانب الأكبر من آسيا الصغرى مع تعيينه قائداً عامّاً للجيش المقدوني في آسيا[1] .

ولما كان بطلميوس قد لعب الدور الرئيسي في القضاء على برديكاس ، فإنه كان أكثر القواد نفوذاً يوم اجتماع ترپاراديسوس . ولو قدر له أن يقرأ صفحة المستقبل لوسعه أن يحول دون منح بابل لسليوكوس ، غير أنه ليس في وسع أفطن الساسة وأبعدهم نظراً وأصدقهم حساً أن يتنبأوا دائماً بمجرى الحوادث ويتحكموا في تسكييفها . ولو شاء بطلميوس لآلت إليه الوصاية على الإمبراطورية ، لكنه رفض هذا المنصب المحفوف بالمخاطر عندما عرض عليه مفضلا الاكتفاء بولايته والعمل على الاستقلال بها وتشييد صرح مملكة قوية غنية فيها ، يحمل صولجانها أحفاده على تعاقب الأجيال . وقد أثبتت الأيام بعد نظره ، فقد عمر أكثر من أي وصي على الإمبراطورية وعمرت دولة البطالمة أكثر من أي دولة هيليستينية أخرى . ومن أجل الفوز باستقلال مصر عقد بطلميوس العزم على مناهضة كل من يحاول توحيد الإمبراطوية المقدونية . وقد مر بنا أنه لعب الدور الأول في القضاء على پرديكاس ، الذي كان أكبر نصير لوحدة الإمبراطورية . وقد كان جزءاً من برنامج بطلميوس للمحافظة على استقلال مصر ضم الملحقات الطبيعية إليها ، وهي برقة لحماية حدود مصر الغربية وجوف سوريا (أي جنوب سوريا وفينيقيا وفلسطين) وقبرص لحماية

(1) Jouguet, Macedonian Imperialism, pp. 130 — 3: Rostovtzeff, Soc. and Econ. Hist. Hell World, p. 6.

حدود مصر الشرقية والحصول على المعادن والأخشاب التى يفتقر إليها وادى النيل . ولذلك فإنه ما كاد يصل إلى مصر حتى استولى على برقة ، وأخذ يعمل على عقد أواصر الصداقة مع الجزر الكبرى فى البحر الأبيض المتوسط ولا سيما مع قبرص ، ثم انتهز فرصة ضعف السلطة المركزية بعد وفاة انتيپاتروس واستولى عنوة فى عام ٣١٩ — ٣١٨ من لاومدون (Laomedon) والى سوريا على جوف سوريا[١] (Coele-Syria) .

ولم يلبث أنتيجونوس أن اعتلى خشبة المسرح السياسى ليمثل الدور الذى قام به برديكاس من قبل . ولما كان كل من بطلميوس وسليوكوس يريد الاستقلال بولايته فقد تلاقت أهدافهما السياسية فى مكافحة أطماع أنتيجونوس . وحيث أن بطلميوس كان أقوى دعاة الانفصالية ، فإنه عندما استهدف سليوكوس للمخاطر من ناحية أنتيجونوس فر إلى مصر فى صيف عام ٣١٦ ، فأحسن وفادته بطلميوس الذى دخل فى مفاوضات مع كاساندروس (Cassandros) — حاكم مقدونيا وبلاد الإغريق — وليسماخوس (Lysimachos) — حاكم تراقيا — انتهت بعقد محالفة بينهم جميعاً فى عام ٣١٥ للمحافظة على مركز كل منهم فى ولايته ووضع حد لأطماع أنتيجونوس[٢] ، ومن ثم لم يكن هناك مفر من اصطدام الفريقين . وعند ما أحرز بطلميوس نصراً مبيناً على ديمتريوس بن أنتيجونوس فى موقعة غزة عام ٣١٢ استطاع سليوكوس أن يعود إلى ولايته ويستردها بسهولة فى أكتوبر من نفس ذلك العام ، وأن يبدأ العمل بجد فى بناء دولة قوية له تضم كل الولايات الواقعة شرقى بابل . وهكذا أسدى بطلميوس لسليوكوس خدمتين جليلتين ، فقد آواه فى محنته ثم مهد له سبيل استعادة ولايته بل تكوين إمبراطورية شرقية ضخمة ، لكنه كان فى ضمير الدهر أن الصداقة لن تدوم طويلا بين سليوكوس

(1) Bouché -- Leclercq, His. Lagides, I, pp. 16 — 17.

(٢) إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ص ٤٠ .

وبطلميوس . وبيان ذلك أنه فى عام ٣٠٢ جدد الحلفاء محالفة عام ٣١٥ ، إلا أنها لم ترم هذه المرة إلى كبح جماح أطماع أنتيجونوس فحسب بل إلى القضاء عليه[1] . ولم يلبث أن قضى على أنتيجونوس فى العام التالى ، لكن لما كان بطلميوس لم يقم نحو حلفائه بخدمة يستحق عليها نصيباً من الأسلاب فقد تقرر ألا يمنح جوف سوريا الذى كان قد وعد به عند ما جددت المحالفة لكنه فقده فى خلال الصراع مع العدو المشترك ، بينما اقتسم الأسلاب ليسياخوس وسليوكوس ، اللذان اضطلعا بالعبء الأكبر فى الحرب ، ففاز أولهما بكل آسيا الصغرى تقريباً ، وثانيهما بكل سوريا التى جعلها المركز الحقيقى لإمبراطوريته ، فقد أسس فيها أنطاكية التى غدت عاصمة لهذه الإمبراطورية .

وإذا كان خلفاء بطلميوس قد أبوا عليه جوف سوريا ، فإنه كان قد انتهز فرصة اشتباك الحلفاء مع أنتيجونوس وأعاد احتلال ذلك الإقليم ورفض بعد ذلك النزول عنه . وكان هذا ينطوى على خطر الاشتباك مع سليوكوس الذى احتج فعلا على موقف بطلميوس لكنه لم يستطع أن ينسى صنيع بطلميوس ، ولذلك اكتفى عندئذ بالمطالبة بحقوقه وتأجيل الصراع مؤقتاً من أجل جنوب سوريا . وهكذا نشأت المشكلة السورية التى أفضت فيما بعد إلى تعكير صفو تاريخ أسرتى بطلميوس وسليوكوس[2] .

وإذا كان الخلاف قد نشب على هـــذا النحو بين أسرتى بطلميوس وسليوكوس ، فقد كان مقدراً ألا تبدأ الحلقة الأولى من الصراع المسلح بينهما إلا فى عهد خليفتيهما بطلميوس الثانى وأنطيوخوس الأول . ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أنه بموت سليوكوس ، آخر أفراد الجيل الأول من خلفاء الإسكندر ، فى عام ٢٨٠ وظهور الجيل الثانى من أولئك الخلفاء ، استقرت فكرة قيام دول

(١) إبراهيم نصحى ص ٤٧ .

(2) Bouché — Leclercq, I, pp. 83 — 6; Bevan, Hist. Eg. Under The Ptol. Dynasty, pp. 34 — 5; C. A. H. VII, pp. 76 — 7.

هيلينستية مختلفة أعلى نقاض الإمبراطورية المقدونية ، ووجد نوع من توازن القوى فى العالم الهيلينستى الذى أصبح يقتسم النفوذ فيه ثلاث ممالك عظيمة . وقد كانت مصر عندئذ أقوى هذه الدول ، وكانت تسيطر على برقة وجوف سوريا وعصبة جزر بحر إيجة ، وتملك أكبر قوة بحرية فى العالم الهيلينستى . وكانت تليها دولة السليوكيين ، وكانت تشمل ولايات إمبراطورية الإسكندر فى بلاد ما بين النهرين وأغلب الولايات الشرقية البعيدة وجانباً كبيراً من آسيا الصغرى والشام فيما عدا أقليم جوف سوريا . أما الدولة الثالثة فكانت مقدونيا[1] ، وكانت تسيطر على بلاد الإغريق .

وقد كانت لكل من هذه الدول حاجاتها ومراميها وكذلك خططها ووسائلها لتحقيق ذلك . وعلى الرغم من أن مصر خرجت من الصراع العنيف بين خلفاء الإسكندر أقوى وأغنى دولة هيلينستية ، فإن البطالمة الأوائل (الأول والثانى والثالث) ، وكانوا أقوى أفراد الأسرة ، لم يفكروا فى إعادة تكوين إمبراطوية الإسكندر ، إذ كان هدفهم الأسامى الدفاع عن استقلال مصر الكامل ولعب الدور الأول فى حلبة السياسة وفى مضمار الاقتصاد فى العالم الهيلينستى .

وقد كانت أفضل وسيلة لتحقيق ذلك إحراز السيطرة على بحر إيجة . وكانت السيطرة على عصبة جزر السكيكلاد (Cyclades) ، التى فاز بها أولا بطلميوس الأول ثم وطد دعائمها بطلميوس الثانى ، لاتكسب مصر إلا سيطرة جزئية سياسية واقتصادية على بحر إيجة . ولاستكمال هذه السيطرة حاول بطلميوس الثانى الاستيلاء على شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية والغربية ، وبسط نفوذه على المراكز التجارية الهامة على ضفاف الدردنيل وبحر مرمرة وشاطىء البحر الأسود الجنوبى . ومن ناحية أخرى كانت سلامة هذه الإمبراطورية الإيجية تتطلب الاستيلاء على الموانى الكبيرة على شواطى فينيقيا وفلطسين . وهذا يفسر إلى حد

(1) Rostovtzeff, p. 27.

شدة عناية البطالمة وخاصة الأوائل منهم بالاستيلاء على جوف سوريا . وقد حدت الرغبة فى السيطرة على بحر إيجة بالبطالمة الأوائل إلى أن يحاولوا تقوية نفوذهم فى أهم الموانى الإغريقية ، ليمنعوا حكام مقدونيا من أن يصبحوا أقوياء فى البحر . ولم يمل هذه السياسة على البطالمة اعتبارات اقتصادية فحسب إذ كانوا يعتبرون سيطرتهم على بحر إيجة أساس كيانهم السياسى ومصـــدر قوتهم ، فإن عزلتهم فى مصر كانت تضعفهم أمام دولة السليوكيين فى سوريا ، وكانت فى قبضتها المدن الأغريقية فى الأناضول ، وأمام مقدونيا وكانت تسيطر على إغريق البلقان ، على حين كانت سيطرة البطالمة على الطرق التجارية فى بحر إيجة وفى سوريا توفر لهم موارد جمة فى الرجال والأموال . ومن الجلى أن هذه السياسة كانت تضر بمصالح سوريا ومقدونيا ، ولذلك كان البطالمة لايستطيعون تحقيق أهداف سياستهم الخارجية دون القيام بمجهود حربى عنيف مستمر .

لقد كان إذن طبيعياً ألا يسلم السليوكيون باستيلاء البطالمة على جوف سوريا ، لأن ذلك كان يحرمهم من إنشاء أسطول كبير والاحتفاظ به فى موانيهم السورية ، بل قد يسد فى وجوههم ، إذا شاء البطالمة ، سبل الاتصال بالبحر الأبيض المتوسط . وإذا كانت الظروف القاهرة قد أرغمت السليوكيين على النزول عن شمال آسيا الصغرى ، فإنهم كانوا لايسلمون طواعية لمصر بالسيطرة على شواطىء آسيا الصغرى ، الجنوبية والغربية والطرق الحربية والتجارية ، التى كانت تؤدى من إمبراطوريتهم الأسيوية إلى ثغور آسيا الصغرى الغربية ، لأنه كان يترتب على ذلك أن تصبح دولتهم مملكة شرقية بحت منعزلة تماماً عن العالم الإغريقى [1]. وإزاء كل ذلك لم يكن هناك مفر من أن يصطدم السليوكيون بالبطالمة اصطداماً عنيفاً .

---

(1) Rostovtzeff, pp. 29 — 30.

وقد بدأ النضال العنيف بين أنطيوخوس الأول وبطلميوس الثانى فى عام ٢٨٠ عندما نشبت بينهما حرب غامضة (٢٨٠ — ٢٧٩) يسميها البعض « الحرب الكارية »[١]. وفى العامين التاليين شغل بطلميوس بأخضاع قبائل أدومايا والبحر الميت وشرق الأردن [٢] . أما الحرب « السورية الأولى » التى تتضارب الآراء تضارباً شديداً حول تواريخ أحداثها فاننا نرجح أنها بدأت فى ربيع عام ٢٧٥ حين جرد بطلميوس الثانى حملة غزت سوريا السليوكية واحرزت بعض النجاح إلى أن ردها أنطيوخوس على أعقابها . لكن بطلميوس لم يلبث أن عاود الكرة وأحرز انتصارات باهرة فى البر والبحر حتى أنه عندما عقد الصلح فى عام ٢٧٢ كانت ممتلكات مصر قد اتسعت إتساعاً كبيراً على شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية والغربية ، وكذلك فى جنوب سوريا الذى غدا بأكمله مصرياً [٣] .

وفيما بين أكتوبر عام ٢٦٢ وأبريل عام ٢٦١ توفى أنطيوخوس الأول وخلفه ابنه الأصغر أنطيوخوس الثانى ، وكان أميراً نشيطاً وضع شئون دولته فى نصابها ولم يلبث أن اشتعل بينه وبين بطلميوس الثانى لهيب «الحرب السورية الثانية» التى نجهل الكثير عن أصلها وأحداثها ، إلا أننا نعرف أنها كانت سيئة الطالع على بطلميوس الثانى الذى افزعت قوته رودس ومقدونيا فانضمتا إلى خصمه يشدان ازره . فلا عجب أن فقدت مصر من جراء هذه الحرب أغلب ممتلكاتها فى آسيا الصغرى وكذلك كل فينيقيا شمالى صيدا[٤] . وحين باءت قوات فيلادلفوس بالفشل استخدم مهارته السياسية ليأمن شر أنطيوخوس ويربط السياسة السورية بعجلة السياسة المصرية . وبيان ذلك أن أنطيوخوس كان متزوجاً من إبنة عمه لاوديكى

---

(1) Jouguet, Nat. Eg, p. 49.
(2) Tarn, J. E. A., 1929, pp. 9. ff.
(3) C. A. H. VII, pp. 703 — 4.
(4) C. A. H. VII, pp. 711 — 15.

(Laodice) التى أنجبت له ابنين وابنتين ، لكنها كانت قوية الشكيمة ، فتمكن بطلميوس من إقناعه بعقد معاهدة تقضى بأن يترك لاوديكى ويتزوج من ابنته برينيكى (Berenike) ، بشرط أن يكون عرش أنطيوخوس من بعده لأبناء زوجه الجديدة . وقد أقصيت لاوديكى وأبناؤها إلى إفيسوس ، وفى إبريل عام ٢٥٢ وصلت برينيكى فى صحبة وزير مالية أبيها .

وإذا كان فى وسع بطلميوس أن يرقب من وراء هذا الزواج على الأقل الفرصة ليتدخل فى الشئون السورية ويوجد لنفسه أولياء فى أمبراطورية جاره ، فماذا كان أنطيوخوس يستطيع أن يأمل من وراء هذه المعاهدة ؟ إن المؤرخين القدماء يدعون زوجه الجديدة « برينيكى فرنفوروس » (Phernephoros) أى صاحبة الصداق العظيم . وقد كان هذا المهر الهائل دون شك تعويضاً مقنعاً عن الحرب ، ويظن البعض أن هذا الصداق كان مبلغا كبيراً من المال إلى جانب دخل جوف سوريا ، بينما يرى البعض الآخر أن هذا الصداق كان عبارة عن ارجاع بطلميوس لانطيوخوس كيليكيا الغربية فضلا عن إعطائه أيضا بامفيليا ، وذلك لقاء تنازل السليوكيين عن المطالبة بجوف سوريا . ونحن نميل إلى الرأى الأخير ، لأنه يتمشى مع الدوافع التى أوحت بعقد الزواج ، وهى تسوية الخلافات بين الأسرتين وتأمين الاحتفاظ بجوف سوريا ، وكان هذا الإقليم أفضل ممتلكات مصر ويعنيها أكثر من كيليكيا وبامفيليا .

وقد أدى زواج برينيكى من أنطيوخوس الثانى إلى قيام « الحرب السورية الثالثة » عندما توفى هذا الملك فى عام ٢٤٦ ، فإنه عقب ذلك مباشرة احتدم بين لاوديكى وبرينيكى نزاع عنيف من أجل العرش حدا ببطلميوس الثالث إلى التدخل بالقوة لدعم حقوق أخته وابنها . وعلى الرغم من أن بطلميوس الثالث قام بحملة موفقة فإن أخته وابنها قتلا فى عام ٢٤٥ عندما وقعت فى إنطاكية

فتنة ذهبا ضحيتها[1] ، وآل العرش إلى سليوكوس الثانى ابن لاوديكى الذى استطاع أن يسترد ولاياته الشرقية وجانباً من كيليكيا وكل سوريا السليوكية فيما عدا سليوكيا على نهر العاصى ، لكنه عندما حاول غزو جنوب سوريا فى عام ٢٤٣ منى بهزيمة فادحة وارتد إلى إنطاكية . وفى عام ٢٤٢ حاصرت قوة مصرية دمشق ، إلا أنه استطاع أن ينجدها ويرفع الحصار عنها ، لكن بقى الشاطىء السورى حتى سليوكيا على نهر العاصى فى قبضة بطلميوس ، الذى انتهز فرصة انشغال غريمه باسترداد سوريا الشمالية ونشط فى توسيع ممتلكاته على شواطىء آسيا الصغرى ، فبلغت أمبراطورية البطالمة إذ ذاك أوج اتساعها[2] .

ولم تلبث الخلافات أن قطعت أوصال أسرة السليوكيين ، إذ أن الظروف اضطرت سليوكوس الثانى إلى الاتفاق مع أخيه الصغير أنطيوخوس هيراكس Hicrsx ، على اقتسام الإمبراطورية السليوكية فيما بينهما ، لكن لما كان يصعب على الأخ الأكبر احترام هذا الاتفاق فإنه غزا فى عام ٢٧٣ ممتلكات أخيه فى آسيا الصغرى ، مما أفضى إلى قيام حرب ضروس بينهما يطلق المؤرخون عليها « حرب الأخوين » . وقد كانت هذه الحرب نكبة على الأخوين ففى بدايتها انتصر هيراكس على سليوكوس الذى اضطر إلى عقد الصلح فى عام ٢٣٦ والنزول نهائيا عن آسيا الصغرى ، لكن هيراكس كان أضعف من الاحتفاظ بسطوة السليوكيين هناك ، ولا سيما انه اطلق العنان لحلفائه الغال فاوسعوا البلاد سلبا ونهبا إلى أن أنزل بهم أتالوس ، حاكم برغامون ، فى عام ٢٣٠ هزيمة ساحقة خلصت آسيا الصغرى من شرورهم . وازاء ذلك اتخذ لنفسه لقب ملك وقرر الاستيلاء على الممتلكات السليوكية فى آسيا الصغرى . وقد افضت ثلاث معارك حربية بين أتالوس وهيراكس إلى طرد الأخير من آسيا الصغرى . ولاشك فى أن السياسة والأموال المصرية كانت فى البداية تؤيد هيراكس إلا أن الجيوش المصرية لم تتدخل فى الصراع ، بل إنه عندما فر هيراكس إلى الأسكندرية

---

(١) ابراهيم نصحى ص ٦٥ — ٦٦ .

(2) C. A. H. VII pp. 717 — 9.

سجنه بطلميوس الثالث ، لكنه لم يلبث أن فر من سجنه وذهب للقتال وملاقاة حتفه عبثاً فى تراقيا . وإذا صح مايقال من أن بطلميوس الثالث كان يطمع فى ضم الولايات الشرقية فى الأمبراطورية السليوكية، فلماذا إذن لم ينتهز فرصة هذه الأحداث التى زعزعت أركانها ويتدخل بجيوشه لتحقيق تلك الأطماع [١] .

وعندما ارتقى سليوكوس الثالث عرش سوريا فى عام ٢٢٦ ، عهد إلى أخيه الصغير أنطيوخوس بحكم بابل وإلى عمـــه أندروماخوس (Andromiachos) باسترداد آسيا الصغرى من أتالوس (Attalos) صاحب برغامون ، إلا أن أتالوس هزم أندروماخوس . وعندما عبر سليوكوس نفسه الطورس وقتله أحد ضباطه ، خُشى أن يقع نضال على العرش بين أنطيوخوس وأخايوس (Achaeos) ، ابن عمه اندروماخوس ، وكان قد عين حاكماً على ولايات آسيا الصغرى ، لكن أخايوس نادى بانطيوخوس ملكاً وعاقب قتلة سليوكوس . وقد اتخذ أنطيوخوس الثالث وزيراً له رجلا سياسياً ماهراً يدعى هرمياس (Hormias) . ولم يمض وقت طويل قبل أن يناصب هرمياس مصر العداء ، لكنه لم يكن عداء خطيراً ، بسبب المخاطر التى استهدفت لها عندئذ دولة السليوكيين من جراء ثورة والى بابل وفارس ، فلم يكن نصيب الجيش السليوكى الذى غزا جوف سوريا فى عام ٢٢١ إلا الهزيمة ، وعندئذ قرر أنطيوخوس أن يضع أمور إمبراطوريته فى نصابها قبل أن يصفى حسابه مع مصر [٢] .

وعندما عاد أنطيوخوس مظفراً من حملته الشرقية فى أواخر عام ٢٢٠ وعلم أنه قد ارتقى عرش مصر شاب ماجن هو بطلميوس الرابع فيلوپاتور اعتقد أن الوقت قد حان لاسترداد جوف سوريا من مصر ، ولذلك سرعان ما استؤنفت أو بدأت « الحرب السورية الرابعة » . وإزاء انصراف فيلوپاتور إلى عبثه

---

(١) ابراهيم نصحى ص ٦٨ .

(1) C. A. H. VII. pp. 723 -- 6.

ومجونه وانهماك وزيره سوسيبيوس فى مؤامراته لدعم مركزه لا يأخذنا العجب من أن مصر لم تنتهز فرصة متاعب أنطيوخوس لتثأر من اعتدائه على جوف سوريا فى عام ٢٢١ ، بل إن مصر — وقد كانت تتوقع اعتداء أنطيوخوس على ممتلكاتها السورية بعد فراغه من مشاغله فى الأمبراطورية — لم تستعد لدفع هذا الاعتداء فى الحال .

وفى ربيع عام ٢١٩ بدأ أنطيوخوس حملة مظفرة إلى حد أنه لو زحف على پلوزيون لوجد مصر عند موطىء قدميه ، لكنه خدع بدعاية سوسيبيوس (Sosibios) التى روجت بين الناس أن الجيش المصرى بكامل قوته كان متجمعاً عند پلوزيون ، وكذلك بما ألقى فى روعه من أنه يستطيع الحصول على جوف سوريا بمفاوضات سلمية لو أنه عقد هدنة لمدة أربعة أشهر . ولما كان الشتاء قد اقترب ، وكان يخشى التغيب طويلا عن دولته بسبب قلقه من نشاط اخايوس ، فانه قبل الهدنة وعاد إلى سايوكيا فى انتظار المفاوضات المزعومة لتسليم جوف سوريا .

وحقيقة الأمر أنه عندما بدأ أنطيوخوس حملته لم يكن فى مصر جيش مستعد للقائه بل إن الإغريق الذين كانوا عماد الجيش البطلمى قد انقطع وفودهم على مصر ، ولذلك كان الموقف جد خطير . وإزاء هذه الأزمة لم يكتف سوسيبيوس بأن أحضر من بلاد الإغريق أفضل من تستطيع النقود ابتياع خدماتهم من الضباط والجنود المرتزقة ، وبأن دعا للخدمة العسكرية الجنود الإغريق الذين استقروا فى مصر نتيجة للاقطاعات التى كان البطالمة قد منحوهم إياها ، بل اتخذ خطوة كانت لها نتائج بعيدة المدى ، إذ أنه جند كذلك نحواً من ٢٠,٠٠٠ مصرى وسلحهم ودربهم على نهج المقدونيين وكون منهج المقدونيين وكون منهم قلب الجيش . ولاستكمال تدريب هذا الجيش لجأ سوسيبيوس إلى حيلة المفاوضات التى أطيلت عمداً لتحقيق هـــذا الغرض . وعندما أدرك أنطيوخوس

أخيراً حيلة سوسيبيوس قطع المفاوضات ، وفى ربيع عام ٢١٨ استدعى جيشه لاستئناف القتال . فأرسل سوسيبيوس نجدات للقوات البطلمية فى جوف سوريا أملا فى تأخير زحف أنطيوخوس قدر الطاقة ، لكنه تمكن من الاستيلاء فى تلك الحملة على جانب كبير من جوف سوريا . وفى العام التالى زحف أنطيوخوس حتى رفح حيث التقى الجيشان فى ٢٢ من يونية عام ٢١٧ ، وكانت الغلبة لبطلميوس الرابع الذى اكتفى باسترداد جوف سوريا وعاد مسرعاً إلى مصر ليستأنف حياة المجون والعبث ، على حين أخذ الملك المهزوم يعمل بجد ونشاط فى إعادة بناء إمبراطوريته ليثأر لنفسه من مصر (١)

ولم يكن انتصار رفح انتصاراً باهراً لبطلميوس الرابع وسوسيبيوس فحسب ، بل كان أيضاً انتصاراً رائعاً للمصريين ، الذين يعزى إليهم أكبر الفضل فى إحرازه ، والذين كان البطالمة يعاملونهم حتى ذلك الوقت معاملة المغلوبين على أمرهم . وكان المصريون ، وقد هد الاستعمار الأجنبى كيانهم وسلبهم ثقتهم بأنفسهم ، يلقون عنت طغاتهم فى صبر عجيب ، لكن الدور الذى قاموا به فى معركة رفح أعاد إليهم الثقة بأنفسهم فلم يعودوا يتهيبون الوقوف فى وجه الحكومة ثائرين على ما كانوا يلقونه من صنوف الضغط والإرهاق . وقد تعددت هذه الثورات منذ عام ٢١٦ إلى حد أنها أضعفت قوة البطالمة وشلت حركتهم فى الخارج ، فعجزوا عن الاحتفاظ بأمبراطوريتهم البحرية . وسنرى تواً أن العداء بين البطالمة والسليوكيين لم يتمخض عن هذه النتيجة الخطيرة فقط .

وعندما توفى بطلميوس الرابع وخلفه ابنه الطفل بطلميوس الخامس ، عقد انطيوخوس الثالث ، غريم مصر ، وفيليب الخامس ، حليفها ، محالفة سرية لاقتسام ممتلكات مصر الخارجية (٢) ، منتهزين فرصة ضعف السلطة

(1) C. A. H. VII, pp. 728 — 31.

(2) Polyb. XV, 20.

المركزية فى مصر من جراء الثورات القومية والتنافس على الوصاية على الملك الطفل . وإزاء هذه المخاطر استنجدت مصر بروما ، لكن لما كانت روما مشغولة بمحاربة فيليب الخامس ، وكان أنطيوخوس قد استولى على جوف سوريا وكل ممتلكات مصر فى آسيا الصغرى ، وكانت مصر قد أنهكتها الثورات القومية والاضطرابات الداخلية ، فقد رأى أريستومنس (Aristomenes) ، وزير بطلميوس الخامس ، أنه لم يعد هناك أمل لإنقاذ مصر نفسها إلا بحسن التفاهم مع انطيوخوس ، فأخذ يسعى منذ عام ١٩٨ إلى عقد الصلح بين مصر وسوريا على أساس زواج بطلميوس الخامس من كليوبترة ابنة أنطيوخوس وتنازل مصر لانطيوخوس عن ممتلكاتها فى سوريا وآسيا الصغرى وتراقيا . ولما كان هذا العرض ينطوى على تأمين مصر دون مقابل فإن انطيوخوس لم يبادر إلى قبوله . لكن انطيوخوس لم يلبث أن قبل واحتفل فى شتاء ١٩٤/١٩٣ بزواج بطلميوس من كليوبترة عندما فطن إلى أن دور نضاله مع روما آت لاريب فيه ، إذ أنها كانت لاتستطيع السماح له بالتوسع فى الشرق كيف يشاء فيصبح خطراً يتهدد نفوذها هناك . ومن ثم أخذ يعمل على كسب ود جيرانه ليقفوا إلى جانبه فى الكفاح المقبل بينهما . ولعل الدوافع إلى هذه المصاهرة الجديدة بين أسرتى البطالمة والسليوكيين لم تخل فى نظر كل من بطلميوس الخامس وأنطيوخوس الثالث مما هو أبعد من ذلك . فأغلب الظن أن بطلميوس الخامس كان يملل النفس بأن يستعيد على هذا النحو جوف سوريا الذى كان يعتبر على الدوام ضرورياً لحماية حدود مصر الشرقية . وأغلب الظن أيضاً أن أنطيوخوس كان يمنى نفسه بأن يفضى هذا الزواج إلى بسط سلطانه على مصر . ومعنى ذلك أنه بعد أن كانت كل آمال السليوكيين فى الماضى استرداد جوف سوريا أصبحوا يطمحون إلى الاستيلاء على مصر نفسها [1] .

وإذ تقرر أن تكون جزية جوف سوريا دوطة كليوبترة الأولى ، اعتقد

---

(١) إبراهيم نصحى ص ٩١ — ٩٢ .

الجانب المصرى أو أدخل فى روغه أن ملكية هذا الإقليم قد عادت إليه بموجب هذا الزواج ، استناداً إلى أن التنازل عن جزية هذا الإقليم ينطوى أيضاً على التنازل عن ملكيته . ولعل الجانب المصرى فى ضعفه وتلهفه على الاتفاق مع إغراقه فى التفاؤل ورغبته فى ألا تبدو آماله سافرة بحيث تنفر الجانب الآخر لم يصر على تحديد ملكية جوف سوريا فى شروط المعاهدة عسى أن تساعده الظروف فى المستقبل على تحقيق آماله دون عناء . ولا جدال فى أن الجانب السليوكى كان يعتزم الاحتفاظ بملكية جوف سوريا دون أن يخيب عندئذ آمال الجانب المصرى التى لم تكن خافية عليه فجعل دوطة كليوبترة جزية جوف سوريا .وهما الجانب المصرى بأن التنازل عن الجزية ينطوى أيضاً على التنازل عن ملكية الإقليم دون ما حاجة إلى النص على ذلك فى شروط المعاهدة ، وهو ما كان الجانب السليوكى يحرص على تفاديه . ولا شك فى أن حرص السليوكيين على عدم تحديد ملكية جوف سوريا فى شروط المعاهدة يفضح نواياهم ، فقد كانوا يؤملون أنه عندما يثار هذا الموضوع فى المستقبل تكون الحاجة إلى استرضاء مصر قد انقضت ويكون فى وسعهم ، باعتبارهم الطرف الأقوى ، أن يفسروا شروط المعاهدة وفقاً لوجهة نظرهم ، على نحو ما يحدث منذ أقدم العصور حتى اليوم فى تفسير الاتفاقات السياسية التى تعقد بين طرفين غير متكافئين . وقد كان فى وسع السليوكيين القول عندئذ بأن التنازل عن جزية جوف سوريا لا تستتبع حتما التنازل عن ملكية هذا الإقليم ، بل القول أيضاً أن هذه المنحة شخصية وتعود إلى مانحها عقب وفاة كليوبترة [1] .

وإزاء ذلك لم يكن هناك مفر من تجدد النزاع فى المستقبل القريب بين السليوكيين والبطالمة . وعقب وفاة بطلميوس الخامس تولت كليوبترة الوصاية على ابنها إلى أن توفيت فى عام ١٧٦ ق. م. فكان ذلك إيذاناً بتجدد المشكلة السورية .

---

(1) Cf. Josephos, Antiq. XII. 4, 154; C. A. H. VIII, pp. 187, 199; Cuq, in Syria vol. VIII, 1927, pp. 143, 144

ولما كان كل من الجانبين قد تمسك بوجهة نظره فإنه لم يكن هناك بد من الاحتكام إلى السيف لفض هذا النزاع . وما كادت تتم إستعدادات الفريقين للحرب حتى نشبت «الحرب السورية السادسة» التى تمخضت عن نتائج خطيرة ، فإن أنطيوخوس الرابع هزم الجيش البطلمى وتقدم إلى منف ، حيث أرغم ابن أخته بطلميوس السادس على قبول حمايته له ، مما دفع الإسكندريين إلى المناداة بأخيه الصغير ملكاً [١] . فزحف أنطيوخوس على الإسكندرية بحجة الدفاع عن حقوق الملك الشرعى ، لكنه إزاء صعوبات الحصار و بسبب قلق أنطيوخوس من جراء اضطرابات وقعت فى فلسطين قفل راجعاً إلى مملكته تاركاً حامية فى بلوزيون وبطلميوس الصغير ملكاً فى الإسكندرية وبطلميوس السادس ملكاً فى منف ، معتمداً على أن منافسة الأخوين ستمهد له السبيل لغزو مصر ثانية [٢] .

وما كاد أنطيوخوس ينسحب من مصر حتى اتفق فيلومتور وأخته كليوبترة وبطلميوس الصغير على أن يحكموا سويا ، وانتقل فيلومتور من منف إلى الإسكندرية . [٣] ونعرف الآن من وثيقة ديموتيقية ترجع إلى ١٨ سبتمبر عام ١٧٠ [٤] أنه فى ذلك التاريخ كان الأخوة الثلاثة يحكمون مصر سويا . وتحدثنا بردية إغريقية مؤرخة فى ١٢ نوفمبر عام ١٧٠ [٥] بأن ذلك العام كان العام الأولى من حكم أولئك الملوك الثلاثة . ومعنى ذلك أنه قبل ١٨ سبتمبر عام ١٧٠ كان أنطيوخوس قد غزا مصر وانسحب منها ، وكان الأخوة الثلاثة قد اتفقوا على أن يحكموا مصر سويا .

ولما كانت الأسباب التى أرغمت أنطيوخوس على الانسحاب من مصر قد

---

(1) Otto, zur Gesch Zeit des 6. Ptol. pp 47 — 57.

(2) C. A. H. VIII, p, 506. Bouché—Leclercq II, pp. 18 — 21.

(3) Polyb. XXIX, 23, 4; Liv., XLV, 11.

(4) Thompson, A Family Archive from Siut, no. 22, pp. 49 — 51.

(5) Turner, A Ptol. Vineyard Lease, Bull. John Rylands Library, 31, no. 1, 1948, pp, 1 — 16; Gr. and Latin Pap. in John Rylands Library, IV, 1952, no, 593 pp, 38 — 45

زالت ، وكانت الآمال التى عقدها على المنافسة بين فيلومتور وبطلميوس الصغير قد خابت ، فأنه فى ربيع عام ١٦٨ زحف على مصر وأرسل أسطولا للاستيلاء على قبرص ، مما دفع مصر إلى الاستنجاد بروما .

وللمرة الثانية تقدم أنطيوخوس بجيشه حتى أسوار الإسكندرية ، وهناك تمت المقابلة المشهورة بين أنطيوخوس وجايوس وپوپيليوس لايناس (C. Popilius Laenas) السفير الرومانى . ولما كانت روما قد خرجت منذ برهة وجيزة منتصرة من « الحرب المقدونية الثالثة » فقد أصبح فى وسعها أن تتفرغ لأنطيوخوس وتملى عليه إرادتها . وعندما ذهب السفير الرومانى لمقابلة أنطيوخوس مدّ الملك يده لمصافحته ، لكن السفير بدلا من أن يصافح الملك وضع فى يده رسالة تحوى قرار السناتو وطلب إليه أن يقرأها قبل كل شيء ، فأطلع الملك عليها وأخبره أنه سيتدبر الأمر مع رفاقه . فلم يكن من السفير إلا أن خط بالعصى التى يمسكها دائرة حول الملك وطلب إليه أن يفصح كتابة عن رأيه قبل أن يخطو خارج هذه الدائرة . فأخذ الملك بهذا المسلك الغريب الجرىء وتردد لحظة ثم أعلن أنه سيستجيب إلى المطالب الرومانية . وعندئذ هز پوپيليوس يد الملك وحياه تحية ودية . وقد كانت رسالة السناتو تنطوى على أمر أنطيوخوس بالانسحاب من مصر وقبرص ، لا حباً فى الحرية ولا انتصارا للاستقلال ، وإنما خوفاً على مركز روما فى شرق البحر الأبيض المتوسط من اتساع امبراطورية السليوكيين[1] . فما أقرب الشبه بين أساليب السياسة قديماً وحديثاً ! وقد أذعن أنطيوخوس لإهانة روما لأنه كان من الحمق أن يشتبك معها بعد انتصارها فى مقدونيا وقبل نجاحه فى ضم مصر إليه[2] .

إن الحرب السورية السادسة لم يستفد منها إلا روما التى وضعت مصر

(1) Polyb. XXIX, 27; Diod. XXXI, 2; Livius, XLV, 2; Bouché — Lecl. II, pp. 25 — 7; C. A. H. VIII. pp. 501 — 7.

(2) Rostovtzeff, p. 67.

على هذا النحو تحت حمايتها . وقد ساعد النضال الدموى العنيف الذى سرعان ما نشب بين الأخوين الملكين على توطيد نفوذ روما فى مصر ، فلم يعد لها إلا ظل من الاستقلال . وإذا كانت روما قد أفلحت فى إخراج أنطيوخوس من مصر ذليلا مهاناً ، فإن العداء ظل كامناً فى نفوس السليوكيين الذين أخذوا يتطلعون دون جدوى إلى فرصة ينقضون فيها على مصر . ومن ناحية أخرى لم ينس البطالمة ما ألحقه بهم أنطيوخوس الثالث والرابع من الذل والإهانة ، ومن ثم كانوا يضمرون للسليوكيين حقداً دفيناً ويعملون على الانتقام منهم وعلى محاولة استرداد جوف سوريا .

وعندما انفرد بطلميوس السادس بعرش مصر لم يلبث مجرى الحوادث فى سوريا أن أعطاه الفرصة للانتقام من السليوكيين ، فإن شخصاً يدعى إسكندر بالاس (Balas) قام يطالب بعرش سوريا ، الذى كان يتربع عليه عندئذ ديمتريوس الأول ، وبادر بطلميوس السادس إلى التحالف مع هذا المناوىء لديمتريوس . وفى صيف عام ١٥٠ ق . م . ساهم جيش بطلمى فى انتصار بالاس على ديمتريوس ، ومن ثم أصبح بالاس ملكاً على سوريا وبابل . وفى عكا تزوج بالاس من كليوباترة ثيا (Thea) ابنة بطلميوس السادس[1] . لكن سرعان ما أثبت بالاس أنه غير جدير بالعرش الذى وقع فى قبضته ، فقد كان رجلا تافهاً انصرف إلى العبث[2] وترك تصريف شئون الدولة فى قبضة وزيره أمونيوس (Ammonios) . وفى ربيع عام ١٤٧ بدأ ديمتريوس بن ديمتريوس الأول يعمل على استرداد عرش أبيه . وجاء بطلميوس السادس على رأس جيش وأسطول واستقبلته مدن فلسطين وفينيقيا استقبالا رائعاً أزعج أنطاكية . وتختلف

(1) Justin., XXXV, 1 — 2; 1 Macc. 10, 49 — 66; Joseph., A. Jud., XIII. 2, 4; 4; C. A. H. VIII, p. 507 — 24; Bouché - Lecl. II, 46 — 9.

(2) Athen., V. 211.

المراجع القديمة حول نوايا فيلومتور وغرضه من هذه الحملة ، فيذكر ديودورس[1] أن نيته كانت فى الأصل مساعدة بالاس زوج ابنته ضد ديمتريوس الثانى . ويروى الكتاب الأول من تاريخ المكابيين[2] أن فيلومتور جاء بحجة مساعدة بالاس لكنه خانه وانضم إلى ديمتريوس . أما المؤرخ يوسف[3] فيحدثنا بأن فيلومتور كان صادق الرغبة فى مساعدة بالاس لكن أغضبه عدم معاقبة أمونيوس على تدبير محاولة لاغتياله ، ولذلك انحاز فيلومتور إلى جانب ديمتريوس. وإزاء ما نعرفه عن خلق فيلومتور يصعب علينا اتهامه بالخداع واختلاق المزاعم ونميل إلى قبول رواية يوسف . وحين انضم فيلومتور إلى ديمتريوس الثانى وعده بعرش سوريا وبابل ويد إبنته كليوبترة ثيا ، زوجة بالاس ، لقاء النزول لمصر عن جوف سوريا . وهكذا أصبحت لمصر اليد العليا ثانية فى الشئون السورية حتى أن أهل أنطاكية عرضوا العرش على ملك مصر الذى كان صاحب هذا العرش قد أسره وكاد يستولى على كل مملكته منذ قليل ، وسبحان مغير الأحوال ! لكن بطلميوس السادس رفض أن يضم الدولة السليوكية إلى مصر ، لا زهداً منه ولا قناعة وإنما خشية الاشتباك مع روما بسبب ذلك ، ومن ثم أقنع الأهالى بقبول ديمتريوس الثانى ملكاً عليهم . وفى صيف عام ١٤٥ التقى بطلميوس السادس مع بالاس فى معركة حامية انتصر فيها بطلميوس لكنه أصيب بجرح مميت فى ميدان القتال . وقبل أن يلفظ النفس الأخير أتاه نبأ مصرع بالاس على يدى أحد شيوخ الأعراب[4] .

وقد كانت النتيجة المباشرة لوفاة بطلميوس السادس أن ديمتريوس اعتبر نزوله لمصر عن جوف سوريا كأن لم يكن ، وأنه لم تعد تحت إمرة مصر عندئذ

---

(1) Diod., XXXII, 9C.

(2) I Macc., 11, 1—18;

(3) Joseph.. A. Jud. XIII, 4.

(4) C. A. H. VIII, pp. 524 — 5; Bouché — Lecl. II, pp. 49 — 53; Skeat, pp. 34 — 5.

قوات كافية ، إذ كان بطلميوس قد أخذ معه إلى سوريا الجانب الأكبر من القوات البطلمية ، وانتهز ديمتريوس الثانى فرصة مقتله وأرغم هذه القوات على الانضمام إلى جيشه أو الإنسحاب إلى مصر كيفما اتفق[١] ..

وفى عهد بطلميوس الثامن ايوارجتيس الثانى أتاحت الأحداث السورية لمصر فرصة جديدة للتدخل فى شئون الدولة السليوكية ، إذ أن ديمتريوس الثانى أصبح بغيضاً هناك إلى حد أن الأهالى طلبوا إلى بطلميوس الثامن أن يختار لهم ملكا بدلا من ديمتريوس ، فاختار لهم شاباً كان ابن تاجر مصرى يدعى پروتارخوس (Protarchos) ، لكنه ادعى أنه ابن اسكندر بالاس واتخذ فعلا اسم الإسكندر ، غير أن أهل أنطاكية أطلقوا عليه لقب زابيناس (Zabinas) ومعناه العبد المشترى ، ومع ذلك فإنهم كانوا يفضلونه على ديمتريوس . وبالرغم من تأييد مصر لزابيناس ، فإنه استغرق ثلاثة أعوام ليقضى على ديمتريوس ويفوز بالعرش بسبب نشاط ديمتريوس الخارق للعادة[٢] . وإذا كان قد قضى على ديمتريوس فإن زوجه كليوبترة ثيا استمرت تناضل زابيناس للاحتفاظ بحقوق أسرة السليوكيين أصحاب العرش الحقيقيين . وعندما تصالحت كليوبترة الثانية ، أم كليوبترة ثيا ، فى عام ١٢٤ مع أخيها وزوجها الثانى بطلميوس الثامن ، أخذ ملك مصر يؤيد ابنة أخيه وأختة ضد زابيناس الذى قضى عليه فى العام التالى . وبعد أن دبرت كليوبترة ثيا مقتل ابنها سليوكوس الخامس ، لأنه اتخذ لقب ملك دون استئذانها ، أشركت معها فى الملك ابنها الآخر أنطيوخوس الثامن ، الذى وعد بأن يسلس لها القياد وتزوج كليوبترة تريفاينا (Tryphaena) ابنة بطلميوس الثامن[٣] . وفى عام ١٢١ لقت كليوبترة ثيا حتفها ، إذا أنها كانت تريد أن تحكم تحت ستار اسم

---

(1) Cf. Josephus, A. Jud., XI 4, 9; Bouché — Lecl. II, p. 56; Bevan, p. 306.

(2) App., Syr. 68; Bouché — Leclercq, II. pp. 77 — 9; Bevan pp. 313 — 4.

(3) App., Syr. 69.

ابنها ، لكنه لم يسلس لها القياد كما وعد ، فصممت على أن تدس له السم ، إلا أنه كشف عن المكيدة فى الوقت المناسب وأرغمها على تجرع السم الذى أعدته له . ويبدو أن بطلميوس الثامن اكتفى بتنصيب ابنته ملكة على سوريا نتيجة لزواجها من أنطيوخوس الثامن فلم يكن له أى نشاط هناك عقب ذلك [١] .

وقد أفضى النزاع بين أنطيوخوس الثامن وأخيه الصغير أنطيوخوس التاسع إلى تدهور الدولة السليوكية وكذلك إلى تدخل مصر من جديد فى الشئون السورية ، مما تمخض عن انفجار الصراع الكامن فى أسرة البطالمة بين بطلميوس التاسع سوتر الثانى من ناحية وأخيه بطلميوس العاشر اسكندر الأول وأمه كليوبترة الثالثة من ناحية أخرى ، إذ كان بطلميوس التاسع يؤيد أنطيوخوس التاسع ضد أنطيوخوس الثامن ومناصريه اليهود على حين كانت كليوبترة الثالثة وبطلميوس العاشر عيلان إلى تأييد أنطيوخوس الثامن واليهود [٢] . ويظهر أن كليوبترة الثالثة كانت تتطلع إلى الاستعانة بيهود الإسكندرية لتأييدها فى الصراع الداخلى ، وبيهود بيت المقدس للتدخل فى سوريا تدخلا مثمراً . وعلى كل حال لم تفد مصر شيئاً على الإطلاق من تدخل الفريقين المتخاصمين فى شئون سوريا .

وقد أفضت الانقسامات الأسرية العنيفة بين السليوكيين إلى نقص مواردهم المالية وضعف قوتهم الحربية ، ومن ثم عجزوا عن صد الاعتداءات الخارجية وعن وقف تيار الانحلال الداخلى . فقد استولت پارثيا على الولايات الشرقية وبابل وبلاد ما بين النهرين [٣] ، وضمت روما كيليكيا [٤] ، وأخذت أرمينيا

---

(1) App., Syr., 69; Justin., XXXIX, 2, 7 — 8; Bouché—Leclercq, pp. 79—80; Bevan, p. 314; Jouguet, Nat, Eg. p. 159; Otto M. Bengston, Z. gesch. Nied. Ptol., pp. 113 — 4.

(2) Bevan, p. 328; Jouguet, Nat. Eg. p. 161; C. A. H. VIII, p. 531; IX, pp. 386 — 7.

(3) Rostovtzeff. p. 841.

(4) Jouguet, Nat. Eg., p. 164.

تلتهم جزءاً بعد آخر من أملاك السليوكيين فلم يأت عام ٨٣ حتى كانت أرمينيا قد بسطت حدودها حتى جبل لبنان وطردت السليوكيين من سوريا[١] . وانتهزت هذه الفرصة كوماجين (Commagene) فى الشمال وجودايا فى الجنوب فاستقلتا عن السليوكيين[٢] . ولم يفت النبط أن يفيدوا من هذه الظروف فأخذوا يبسطون رقعة دولتهم جنوباً وشرقاً وشمالا حتى أنهم استولوا على دمشق[٣] . ولم تلبث البقية الباقية من دولة السليوكيين أن تقسمت إلى ولايات صغيرة[٤] . وبعد فتوحات پومپى فى الشرق دخلت سوريا فى حظيرة الأمبراطورية الرومانية فى عام ٦٤ ق . م .[٥] .

وعندما تزعزع مركز بطلميوس الثانى عشر (الزمار) فى مصر وفر منها إلى روما لم يفلح فى استعادة عرشه فى عام ٥٥ ق . م . إلا بمساعدة جابينيوس الحاكم الرومانى لولاية سوريا[٦] . وعندما خلفت كليوبترة السابعة ، وهى أشهر من حملن هذا الاسم ، عندما خلفت أباها على عرش مصر ، لم ترن ببصرها إلى ضم جوف سوريا فحسب ، بل ولا سوريا كلها فحسب ، بل حاولت وكادت أن تنجح مرتين ، بفضل أسلحتها الذرية وعن طريق قيصر أولا وأنطونيوس ثانياً ، فى التربع على عرش الإمبراطورية الرومانية بأجمعها . وإذا كان قتلة قيصر قد قضوا لحظة على هذه الآمال الواسعة ، فإن عبقرية أغسطس قضت عليها إلى الأبد كما قضت على دولة البطالمة نفسها ، فأصبحت مصر ولاية رومانية فى عام ٣٠ ق . م .

وإذا كانت العلاقات بين البطالمة والسليوكيين وليدة عوامل سياسية

---

(1) Cary, pp. 352 — 3.

(2) Rostovtzeff, pp. 841 — 2.

(3) Rostovtzeff, p. 841; Cary p. 356.

(4) Rostovtzeff, pp. 842 — 4; Tarn p, 42.

(5) Bevan, p. 351; Cary, p. 356.

(6) Bouché-Leclercq II, pp. 162 — 3; Bevan, p. 356; C. A. H. IX, p. 604.

واقتصادية ، فإن العلاقات بين مصر والجزيرة العربية كانت وليدة علاقات اقتصادية فقط مبعثها شدة اهتمام البطالمة بالتجارة الشرقية ، ذلك الاهتمام الذى كان أيضاً أحد أسباب حرصهم على الاحتفاظ بملكية جوف سوريا ، بل أحد العوامل الرئيسية التى أملت سياستهم الخارجية فى شرق البحر الأبيض المتوسط . وبيان ذلك أن تجارة الشرق الأقصى كانت تسلك ثلاث طرق رئيسية فى سبيلها نحو البحر الأبيض المتوسط ، وهى طرق الشمال وطريق الوسط وطريق الجنوب . وكانت طريق الشمال تتجه من أواسط آسيا صوب بحر قزوين والبحر الأسود والبسفور والدردنيل[١] . أما طريق الوسط ، وكانت أهم هذه الطرق فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، فكانت من الهند إلى سليوكيا على الدجلة إما بحراً أو براً . وكانت التجارة المتجمعة فى سليوكيا تشق سبيلها نحو الغرب ، إما إلى دمشق وصور ، أو إلى أنطاكية ، التى كانت تخرج منها طريق رئيسية إلى إفيسوس . ولم تفقد طريق الوسط أهميتها إلا عندما استولت پارثيا على بابل ، ومن ثم أخذت تزداد أهمية طريق الجنوب ، وكانت طريقاً بحرية من الهند إلى الموانى الواقعة فى جنوب بلاد العرب أو جنوبيها الغربى[٢] وكانت أهمها فى عهد البطالمة أدانا (Adana) وجزيرة سقطرى[٣] . وكانت المراكب الهندية تفرغ حمولتها لدى الأعراب ، فقد كانوا يحرصون أشد الحرص على هذه التجارة إلى حد أنهم كانوا لايسمحون للمراكب الهندية بدخول بوغاز باب المندب . وكانت هذه التجارة تسلك إلى الشمال طريقين ، لم تكن إحداهما مستعملة بكثرة قبل عهد البطالمة ، وهى الطريق البحرية فى محاذاة الشاطىء الأفريقى أو شاطىء بلاد العرب . أما الطريق الأخرى وكانت أكثر

(1) Strabo, II, 71; 73; XI, 498; 509; Plin. VI, 52.

(2) Tarn, pp. 211 — 12.

(3) Jouguet, Nat. Eg. III, p. 170.

أهمية من الأولى فهى الطريق البرية القديمة (١) ، وكان النبط يسيطرون عليها منذ عهد الفرس . وعندما كان البطالمة الأوائل لا يمتلكون فلسطين وفينيقيا ، كانوا يعتمدون على النبط فى الحصول على حاجتهم من التجارة الشرقية ، وذلك لأن هذه الطريق البرية ، وتعرف باسم « طريق البخور » كانت تمر بسبأ ومعين وددان (Dedan — العلا) وأيلة (العقبة) إلى البتراء ، التى كانت تأتى إليها طريق أخرى من جرا (Gerrah) على الساحل الغربى للخليج الفارسى . فكان النبط يستطيعون توجيه التجارة حيثما تملى عليهم رغبتهم وأرباحهم ، إما إلى مصر أو إلى أى مكان آخر بعيد عن قبضة البطالمة . إلا أنه فى العادة كان جانب من التجارة الشرقية الآتية إلى البتراء يذهب إلى مصر ، وجانب آخر إلى غزة ، وجانب ثالث فيما يظن إلى سليوكيا على الدجلة ، والباقى إلى الشمال نحو أنطاكية . وكانت الطريق الطبيعية شمالا تمر بدمشق ، كما كانت الحال بعد عام ٢٠٠ ق . م . عندما أصبح جوف سوريا فى قبضة السليوكيين ، وظهرت قيمة ذلك فيما عرضه أنطيوخوس الرابع إبيفانس من الذهب والعاج والتوابل الهندية فى الحفل الذى أقامه . أما عندما كان البطالمة يمتلكون جوف سوريا ، فإن التجارة المتجهة شمالا كانت تتبع أيضاً طريقاً أخرى تمر بفيلاديفيا (عمان) وچراش (Gerasa) إلى بطولميس (عكا) ومنها إلى فينيقيا (٢) .

ولم يكن فى وسع البطالمة وضع التجارة الشرقية فى قبضتهم ، إلا إذا تحكموا فى منافذ الطرق التجارية فى آسيا الصغرى وسوريا وعلى شواطىء البحر الأحمر . ويمكن تقسيم اهتمام البطالمة بالتجارة الشرقية إلى فترتين : وإحداهما فى القرن الثالث ، عندما وجهوا جل عنايتهم إلى الاستيلاء على سوريا وشواطىء آسيا الصغرى . ولذلك فإن بعض أسباب نضال البطالمة مع السليوكيين من حوالى

(1) Rostovtzeff, p. 387.

(2) Tarn, pp. 213 — 4.

٢٨٠ إلى ١٩٨ ق . م. تعزى إلى التنافس على الاستيلاء على منافذ الطرق التجارية فى آسيا الصغرى وسوريا. وقد انتهى هذا النضال بطرد مصر من آسيا الصغرى وسوريا فى عام ١٩٨ — ١٩٧ ق.م. والأخرى ، منذ عهد بطلميوس ايوارجتس الثانى فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ، عندما اتجه اهتمامهم كلية إلى طريق الجنوب ، نتيجة لطردهم من آسيا الصغرى وسوريا وتلاشى سلطانهم من بحر إيجة[1] . ومع ذلك يجب ملاحظة أن استيلاء البطالمة على سوريا وبعض أجزاء آسيا الصغرى فى القرن الثالث لم يصرفهم عن الاهتمام بطريق الجنوب التى كانت تجتذبهم إليها عدة دوافع .

ويتمثل اهتمام البطالمة بطريق الجنوب فى : أولا ، سلسلة البحوث الكشفية التى قاموا بها منذ عهد بطلميوس الأول لمعرفة شواطىء هذا البحر وشعوبه وموارد الثروة هنالك ، وإنشاء علاقات مع تلك الشعوب . وثانياً ، تأسيس المدن والمستودعات على الشاطىء الإفريقى للبحر الأحمر ابتداء من قمة خليج السويس حتى بوغاز باب المندب . وثالثاً ، العناية بالطرق التى تربط وادى النيل بالبحر الأحمر .

وقد ترتب على كل ذلك تنشيط العلاقات التجارية بين مصر والبلاد العربية ، فنشط أيضاً قراصنة النبط فى السطو على السفن مما حدا ببطلميوس الثانى إلى إرسال حملة لتأديب النبط . لكن يجب أن يلاحظ أن الطريق البحرية كانت لا تستهوى كثيراً تجار الإغريق والعرب فى بداية عهد البطالمة بسبب خطورة الملاحة فى البحر الأحمر . وإذا كان من المؤكد أن هذه الطريق كانت تستخدم عندئذ فإنه من المؤكد أيضاً أن التجار كانوا يفضلون طريق البر برغم تكاليفها الفادحة . فلا عجب إذن أن بطلميوس الثانى قد استبدل بسياسته الأولى المعادية للنبط سياسة

---

(1) Tarn, p. 212.

سلمية ، واتفق مع المدن الفينيقية على نظام مرض فيما يتعلق بالتجارة الشرقية . ولذلك فإن الوثائق البردية (وثائق زينون) تشير بكثرة إلى شراء سلع من القوافل فى فلسطين ، كما أنها تشير أحياناً إلى عقد صفقات من النبط . ويتفق معاصرو بطلميوس الثانى على أن مصر كانت تجنى أرباحاً وفيرة من تجارة القوافل العربية بمساعدة المدن الفينيقية . وإذا كانت التجارة الشرقية قد عادت سيرتها الأولى عن طريقها القديمة ، فإن بطلميوس الثانى قد أفلح فى تحويل جانب منها إلى مصر بفضل علاقاته مع المعينيين (١) .

وقد كان طبيعيا أن تضمحل تجارة مصر الشرقية منذ عهد بطلميوس الخامس ، عندما طرد السليوكيون مصر من آسيا الصغرى وسوريا ، وتحكموا فى طرق القوافل القادمة من شواطىء بلاد العرب إلى سوريا بطريق البتراء ، لكن هذا الاضمحلال كان مؤقتاً ، لأن المجهودات التى كان البطالمة يوجهونها فيما مضى إلى آسيا الصغرى وسوريا تحولت منذ عهد بطلميوس الثامن ايوارجتيس الثانى إلى طريق الجنوب . فأخذت المراكب المصرية تجوب البحر الأحمر ، وبعد أن كانت لاتتخطى بوغاز باب المندب اجترأت إذ ذاك على اجتياز هذا البوغاز ، ووصلت إلى الإقليمين اللذين كانا ينتجان العطور وهما : حضرموت فى جنوب بلاد العرب ، وبلاد پنت على شاطىء الصومال ، إذ أن المستكشفين أخذوا يوجهون نشاطهم نحو الجهات التى يريد التجار زيارتها (٢) . وقد ترتب على ما أولاه بطلميوس الثامن من العناية لتنظيم وتأمين طريق الجنوب أن ازدادت باطراد مقادير التجارة الشرقية التى كانت تمر بمصر ، حتى أنها فاقت كثيراً تلك المقادير التى كان البطالمة الأوائل يتحكمون فيها (٣) . وكان طبيعياً أن يصاحب نشاط مصر التجارى فى البحر

(1) Cf. Rostovtzeff pp. 388 — 9.

(2) Préaux, L'economie royale des Lagides. 1939, pp. 358 — 9.

(3) Rostovtzeff, p. 924.

الأحمـــر تقوية الروابط بينها وبين بلاد العرب . ويحدثنا بوسايدونيوس (Poseidonios)بأنه فى عهد بطلميوس الثامن أبحر أيودوكسوس(Eudoxos) فى رفقة بحار هندى إلى الهند [١] ، وبذلك كان أول إغريقى وصل إلى الهند دون الاستعانة بالطرق البرية . وعندما أصبح فى الإمكان الاتصال بالهند مباشرة ، كان لابد من أن يضمحل الدور الذى كان العرب يلعبونه بمثابة وسطاء ، وأن تفتر تبعاً لذلك العلاقات بين مصر والعرب . ومماساعد على ازدهار تجارة مصر الشرقية انهيار مملكة سبأ فى عام ١١٥ ق. م. [٢] ، وضعف مملكة السليوكيين فى عهد انطيوخوس الرابع وخلفائه ، واستكشاف هيبالوس (Hippalos) طرق الاستفادة من الرياح الموسمية حوالى عام ١٠٠ ق. م. [٣] . مما يسر اجتياز باب المندب ، بل الإبحار إلى الهند مباشرة ، وإن كان يبين أن هذا الاستكشاف لم يستغل استغلالا تاماً إلا فى العهد الرومانى . ومع ذلك فقد استفاد منه البطالمة الأواخر ، لأن مراكبهم كانت تزور الموانى ٔ فى جنوب بلاد العرب ، وكشفت جزيرة سقطرى ، وأبحرت أحياناً إلى الهند [٤] . وفى الواقع أنه إزاء نقص موارد مصر وازدياد مطالب إيطاليا من منتجات بلاد العرب والهند فى أواخر القرن الثانى ، اكتسبت التجارة الشرقية فى نظر البطالمة أهمية لم تكن لها من قبل [٥] . ولا أدل على ذلك من أنهم أنشأوا منصباً جديدا فى أواخر القرن الثانى وبداية القرن الأول قبل الميلاد ، وهو منصب « قائد البحر الأحمر والبحر الهندى » ، الذى يرجح أنه فى بداية الأمر كان يتولاه قائد مديرية قفط ، أما منذ عام ٧٨ ق. م. فإن قائد منطقة طيبة هو الذى كان يشغل هذا المنصب الجديد [٦] .

ولا سبيل إلى الشك فى أن التجارة الشرقية والاستكشافات تقدمت باطراد فى عهد البطالمة ، فأصبح لمصر نفوذ كبير فى بلاد العرب والهند حتى أن

(1) Strabo, II, 98 — 102.
(2) Tarn, Hell. Civ. p. 214.
(3) Jouguet, Nat. Eg. III, p. 171.
(4) Tarn, p. 216,
(5) Tarn, p. 215.
(6) Rostovtzeff, p. 928; O. G. I. S., 186, 190.

كليوبترة السابعة اقترحت على أنطونيوس بعد هزيمتها فى موقعة أكتيوم أن يهجرا البحر الأبيض المتوسط ويقيما لهما ملكا على شواطىء البحار الهندية . ولاريب فى أنها كانت جادة فى اقتراحها [١] ، وتلم جيداً بتلك الأصقاع الشرقية التى درسها المستكشفون ونشروا أخبارها . فقد كانت تدفعهم إلى كشوفهم حب المعرفة ، والحاجة إلى وصف الأقاليم المأهولة بالسكان ، والميل الفلسفى إلى دراسة حياة الشعوب المتبربرة التى كانت أكثر بداوة وكذلك أكثر سعادة من غيرها ، والرغبة فى فتح طرق جديدة نحو الشرق تقضى على احتكار الأعراب ، والشغف بإحياء التقاليد القديمة التى وضعتها حتشبسوت والإسكندر ودفع إليها حب المنفعة. فكل هذا قد حدا بأولئك الرجال إلى كشف سبل طريق الجنوب . وتتجاوب أصداء هذه الدوافع فى مذكراتهم أو تقاريرهم التى رفعوها إلى البطالمة ، واستخدمها المؤرخ أجاثارخيدس (Agatharchides) والجغرافى أرتميدوروس فيما كتباه فى القرن الثانى قبل الميلاد . وكذلك اعتمد ديودوروس واسترابون على هذين الكاتبين فيما ألفاه بعد ذلك بحوالى قرن [٢] .

وقد أسلفنا أن بطلميوس الأول استولى على برقة (Cyrenaica) بمجرد وصوله إلى مصر ، وبقى علينا أن نتتبع فى إيجاز العلاقات بين مصر وبرقة طوال العصر الهيلينستى . ولما كان بطلميوس يدرك أهمية برقة للدفاع عن حدود مصر الغربية ، وكانت قد واتته فى عام ٣٢٣ فرصة فريدة لضمها عندما اندلع لهيب الثورة فى المدينة الإغريقية المشهورة برقة (Cyrene) ولجأ فريق من الثوار يستنجدون به ، فإنه لم يدع الفرصة تفلت من يده بل بادر بإرسال رفيقه أوفلاس (Ophellas) الأولينثى على رأس قوة برية وبحرية ، وفى أواخر عام ٣٢٢ ذهب بنفسه إلى برقة وأقام اوفلاس حاكما عليها [٣] .

---

(1) Tarn, p. 216.

(2) Tarn, J. E. A. XV. 1929, p. 14.

(3) Diod. XVIII, 19 — 21; Bouché — Leclercq, I, pp. 16 — 7.

ومع أن برقة انجبت لمصر البطلمية بعض مشاهير الرجال ، مثل الشاعر كاليماخوس (Calimachus) والجغرافى أراتوسثينيس (Eratosthenes) وامدتها بعدد غير قليل من الجنود ، فإن الظروف قد أثبتت أن ضم برقة لم يزد من قوة مصر بل أصبح بمثابة شوكة فى جانب البطالمة ، وذلك من ناحية لأن أهل برقة ، وقد اعتادوا على الحرية والاستقلال ، لم يمثلوا للخضوع لسلطة أجنبية ، ومن ناحية أخرى لأن أطماع حكام هذه الدولة جعلتهم خطراً يتهدد كيان مصر وحكامها .

وبيان ذلك أنه فى أثناء الصراع بين انتيجونوس وباقى الولاة لجأ انتيجونوس إلى أساليب سياسية بارعة كان فى مقدمتها ذلك التصريح الخطير الذى نادى بأن المدن الإغريقية يجب أن تكون حرة مستقلة غير خاضعة لأى حامية أجنبية [١]. وقد حاول بطلميوس أن يظهر للعالم الإغريقى أنه لا يقل انتصارا للحرية الاغرية عن انتيجونوس فاصدر بدوره تصريحاً مماثلا ينادى فيه بأن الإغريق يجب أن يكونوا أحراراً [٢] ، لكن عندما صدقت برقة هذا التصريح وثارت على حاكمها البطلمى أوفلاس بادر بطلميوس إلى إخماد هذه الثورة (عام ٣١٣) [٣] .

وبعد ذلك راودت أوفلاس أحلام واسعة فى إقامة مجد شامخ لنفسه فشق عصا الطاعة على بطلميوس ، إذ أن أجاثوكلس السيراكوزى كان مشتبكا فى حرب مع القرطاجنيين وتحالف معه اوفلاس للقضاء على قرطاجنـه لقاء الحصول على الفتوحات التى يحرزانها سوياً فى أفريقيا ، غير أن اجاثوكلس اختلف مع اوفلاس وقضى عليه [٤] فى عام ٣٠٨ ، فعهـد بطلميوس إلى ماجاس (Magas)

(1) Diod. XIX, 61, 1 — 3.
(2) Diod. XIX, 62, 1.
(3) Diod. XIX, 62, 3 — 6.
(4) Diod. XX. 41 — 42.

ابن زوجة برينيكى فى إعادة بسط سيطرته على برقه . ولم يلق ماجاس عناء فى ذلك وأصبح نائب الملك هناك [١] .

وحين بدأ النضال العنيف بين أنطيوخوس الأول وبطلميوس الثانى دخل أنطيوخوس مع ماجاس فى مفاوضات تمخضت عن تحالفهما وزواج ماجاس من اياما (Apama) ابنة انطيوخوس[٢] . وعلى أثر ذلك أعلن ماجاس استقلاله عن مصر وزحف عليها فى عام ٢٧٤ وكاد يصل إلى الإسكندرية بسبب ثورة الغال فى جيش بطلميوس ، لكن دسائس ارسينوى أثارت قبائل المارماريد فى مؤخرته فاضطر إلى التقهقر سريعا[٣] ، ولم يلبث أن دان لأخيه ملك مصر بالطاعة .

وحوالى عام ٢٥٨[٤] توفى ماجاس عن ابنة فى الرابعة عشر من عمرها ، تدعى برنييكى ، كان أبوها قد خطبها لولى عهد مصر[٥] الذى أصبح فيما بعد بطلميوس الثالث . ولعل مرد ذلك إلى أن ماجاس ، وقد أدرك استحالة امكان وقوف برقة فى وجه مصر بعد وفاته ، رحب بمساعى مصر الدبلوماسية لعقد هذه الخطوبة حتى ينهى الخصومة التى دامت بينه وبين أخيه نحوا من خمسة عشر عاما ويضمن لإبنته لاعرش برقة فحسب بل عرش مصر أيضاً . ولما كان هذا الزواج يستتبع ادماج برقة فى مصر بعد وفاة بطلميوس الثانى ، فقد كان يعارضه فى برقة حزب كبير يرنو إلى الاستقلال وتتزعمه اياما أرملة ماجاس وشقيقة انطيوخوس الثانى . فقد رأت اياما أنها إذا حالت دون اتمام هذا الزواج وزوجت ابنتها من أمير آخر أمكنها الاحتفاظ باستقلال برقة الذاتى

(1) Paus. I, 6, 8; Bouché - Leclercq,I pp. 66 — 7; C. A. H. Vi, p. 495.

(2) Paus. I, 7, 3.

(3) Paus. I, 7, 2.

(٤) يختلف المؤرخون حول تاريخ وفاة ماجاس لكن لما كان ماجاس قد استرد برقة فى عام ٣٠٨ وحكمها لمدة خمسين عاما (Agatharchides ap. Athen., XII, 550, b.) فاننا نرجح أنه توفى حوالى عام ٢٥٨ ق. م.

(5) Justin. XXVI, 3, 2.

والابقاء على اسرتها الحاكمة وضمنت لنفسها تبعاً لذلك السيطرة الفعلية فى برقة .
ووقع اختيار اباما على ديمتريوس « الجميل » (وكان أخا غير شقيق لجوناتاس ملك مقدونيا) ، لكن ديمتريوس نفسه كان السبب فى فشل هذا المشروع نتيجة لصلفه وغروره ووقوعه فى غرام اباما ، فأوعزت برينيكى بقتله فى فراش أمها[١] ، وقبضت على زمام السلطة (حوالى عام ٢٥٥) .

ويبين أنه قد تبع ذلك وقوع اضطرابات عنيفة فى برقة وضع حداً لها التشريعات التى اقترحها الفيلسوفان اكديموس (Ecdemos) وديموفانس (Demophanes)[٢] . ويرى البعض[٣] أن هذه التشريعات هى الدستور الذى حفظه لنا نقش[٤] عثر عليه منذ عهد غير بعيد ، لكن البعض الآخر[٥] يرى أن هذا النقش يرجع إلى عهد بطلميوس الأول . ويقول كاتولوس[٦] (Catullus) ، نقلا عن كاليماخوس ، إن قتل ديمتريوس كان جريمة حسنة مهدت السبيل إلى ادماج برقة فى دولة البطالمة ، وذلك نتيجة لزواج برينيكى وريثة برقة من خطيبها الأول ، ولى عهد مصر . ويحوم الشك حول تاريخ هذه الحوادث ، لكن يبدو أن زواج برينيكى لم يسبق كثيرا ارتقاء زوجها عرش مصر[٧] (يناير عام ٢٤٦) .

وقد بقيت برقة جزءا من المملكة المصرية إلى وقوع النزاع الأسرى بين بطلميوس السادس وأخيه بطلميوس الصغير وتدخل روما فى هذا النزاع الذى وجدت فيه فرصة مواتية لتنفيذ سياستها الأنانية ، سياسة فرق تسد . فإنه

---

(1) Justin, XXVI, 3.
(2) Polyb. X, 23, 3; Plut. Philop. 1.
(3) Jouguet, Mac. Lmp., p. 345, fn. 1.
(4) Ferri, in Abb. d. Wiss. Z. Berlin, 1926, p 5. Inscrip. no. 1.
(5) Cary, J. H. S., 1928, pp. 222. ff.
(6) Cat. LXXI, 25 ff.
(7) C A. H. VII, pp. 712 — 3; Jouguet, Nat. Eg., p. 54; Cf. Cary, The Greek world, p. 138.

بتأثير البعثة الرومانية[1] ، التي قدمت الاسكندرية للتوفيق بين الأخوين، عقد اتفاق فى عام ١٦٣ تقرر بمقتضاه تقسيم المملكة بينهما بحيث تكون قبرص ومصر نصيب بطلميوس السادس وبرقة نصيب بطلميوس الصغير[2] . وهكذا تحت ستار التوفيق بين الأخوين ، أفضت سياسة روما إلى تفكيك عرى دولة البطالمة ونسخ نتائج أعمال البطالمة الأوائل .

وقد استمر الوضع على هذا النحو حتى توفى بطلميوس السادس فى عام ١٤٥ . وبفضل « مساعى روما الحميدة » تم التوفيق بين بطلميوس الصغير ملك برقة وكليوبترة الثانية أرملة أخيه ، على أساس أن يتزوجا ويحكما سويا بالإشتراك مع طفلها من بطلميوس السادس . وقد كان فى صالح روما ، من حيث المبدأ ، استمرار فصل برقة عن مصر ، لكن عدة اعتبارات رجحت كفة الوحدة ولم تجعل فى قيامها خطراً ، إذ أن ارتقاء طفل بطلميوس السادس عرش مصر كان أمراً طبيعياً لايترتب عليه شعوره بأى دين أو فضل لروما عليه ، هذا إلى أنه قد يثبت أنه يشابه أباه الذى تحدى روما واجترأ على عدم الاذعان لمشيئتها . على حين أن حصول « ملك برقة » على عرش مصر الذى لم يكن له حق فيه سيجعله مدينا لروما مابقى متربعاً عليه . وقد أثبت فعلا أنه أداة طيعة ذلول ، فضلا عن أنه ملك متعسف شديد البطش سبق أن أثارت تصرفاته نقمة رعاياه عليه ولابد من أنها ستفضى إلى ذلك من جديد ، ومن ثم فإنه لن يستطيع الاحتفاظ بعرش مصر دون تأييد روما ، ولن يكون فى وسعه يوما أن يرفض لها طلبا . وإزاء كل ذلك لم يكن هناك أى خطر من إعادة توحيد دولة البطالمة تحت حكم بطلميوس ملك برقة ، ولا سيما أن اتفاقا مثل ذلك كان يحمل فى طياته بذور الخلاف ، إذ أنه لم يكن هناك مفر من وقوع نضال عنيف عندما يكبر الطفل ويدرك ماحدث من الافتئات على حقوقه ، أما إذا بادر « ملك برقة » إلى التخلص منه قبل ذلك فانه

---

(1) Polyb., XXXI, 10, 4 — 5.

(2) Wilcken, U. P, Z. I, p. 180.

لن ينجو من نقمة أم القتيل ، وهكذا لن تنعم الدولة الموحدة بالاستقرار الذى يهيىء لها ظروف النهوض والمنعة والقوة .

وعلى كل حال لم تلبث مصر طويلا حتى فقدت برقة إلى غير رجعة ، إذ أن بطلميوس الثامن ايوارجتيس الثانى أورثها لإبنه غير الشرعى بطلميوس ابيون ، وهذا أورثها بدوره لروما [١] عند وفاته فى عام ٩٦ ق. م. ، وبذلك كانت برقة أول جزء من إرث البطالمة يقع فى قبضة روما ، التى لم تباشر فى الحال حكم هذا الإقليم . فقد اكتفت روما بالاستيلاء على املاك التاج هناك ، وبفرض ضريبة على النبات الطبى سيلفيون (Silphion) ، الذى كان محصول برقة الرئيسى ، وسمحت لمدنها الخمس بأن تتولى إدارة شئونها . ولم تصبح برقة ولاية رومانية إلا فى عام ٧٤ ق. م. [٢] .

---

(1) Liv., Epit., LXX.
(2) Bouché — Leclercq, II, pp. 108 - - 9; Bevan, p. 332.

نقود البطالمة

لقد كان من بين النتائج التى تمخضت عنها فتوحات الإسكندر فى الشرق نقل كميات هائلة من المعادن الثمينة إلى بلاد الإغريق ، وفتح أفاق واسعة أمام التجارة الإغريقية فى بلاد كثيرة كان يسود فيها إلى ذلك الوقت نظام الإقتصاد الطبيعى أو بعبارة أخرى نظام التبادل . وإزاء رواج التجارة ووفرة المعادن الثمينة كان طبيعيا أن ينشط استخدام النقود نشاطا لم يعرف قبلا ، وأن يؤثر ذلك فى النظام الإقتصادى السائد فى البلاد التى لم تشعر حتى ذلك الوقت بالحاجة إلى النقود .

وإذا كان الجانب الأكبر من الكنوز التى استولى عليها الإسكندر من الإمبراطورية الفارسية قد انتقل إلى أوروبا ، فإن البلاد الغنية بحاصلاتها فازت سريعا بحظها من تلك الكنوز ، لأن بلاد الإغريق كانت مضطرة إلى تموين نفسها بالحاصلات الزراعية والمواد الأولية من الخارج . ولذلك لم يكن ميسوراً أن تستمر بلاد الإغريق دواما فى الحصول على كل الكنوز المتداولة ولا فى الإحتفاظ بكل الثروة التى اجتذبتها بفضل ظروف استثنائية . وليس أدل على ذلك مما حدث عندما احتكر كليومينيس بيع الحبوب المصرية ، فإنه تمكن بذلك من أن يتحكم فى السوق وأن يحول إلى مصر جانبا مما امتصته بلاد الإغريق من ذهب الفرس وفضتهم .

لقد اختلط الإغريق فى العصر الهيلينستى بعدة شعوب كانت تختلف عنهم فى حياتها المادية . وإذا كان بعض هذه الشعوب بقى وفيا لتقاليده القديمة ، التى تستند إلى نظام الإقتصاد الطبيعى ، فإن البعض الآخر كان ينتج محصولات وفيرة ويرحب بتوزيع الفائض منها عن حاجته لقاء ثمنها النقدى ، ولذلك أخذت هذه الشعوب تتحول بإطراد نحو نظام النقد . ويبدو أن أغلب ولايات السليوكيين

تنتمى إلى النوع الأول ، وأن مصر تنتمى إلى النوع الثانى [١] ، وإن كان من الخطأ القول بأن بطلميوس الأول هو الذى أدخل إستعمال النقود فى مصر [٢].

حقا حين كانت المدن الإغريقية وبلاد الفرس تستخدم النقود منذ عدةقرون ، مقتفية فى ذلك أثر ليديا التى يعزى إليها فضل هذا الإختراع ، لم تكف مصر عن تنظيم معاملاتها على أساس التبادل ، إلا أن هذا لا يعنى أنها كانت تجهل تماما إستخدام النقود [٣] . فنى عهد الفرس كانت تدفع لهم جزية نوعية من الحبوب وجزية نقدية قدرها ٧٠٠ تالنت [٤] (١٥٤٠٠٠ جنيه تقريباً) ، وقبل ذلك فى العهد الصاوى كان ملوك مصر يستخدمون جنودا مرتزقة من الإغريق يأخذون أجرهم نقدا [٥] . وقد كشفت الحفريات فى نقراطيس وسمنود وبنى حسن فى طبقة من الأرض سابقة على العهد المقدونى عن نقود إغريقية وفارسية [٦] بعضها أصيلة وبعضها تقليدات محلية [٧]، مما يدل على أن هاتين العمليتين كانتا متداولتين فى مصر وتسكان فيها قبل الفتح المقدونى ، وإن كان تداولهما محدودا . وقد كشف كذلك عن عملة مصرية تحمل صورا من الأساطير المصرية ، سكها فراعنة الأسر الوطنية

---

(1) Glotz, op. cit., pp. 389 — 392.

(2) Jouguet, Mac. Imp. p. 277, fn 2.

(3) Jouguet, Nat. Eg., III, p. 69.

(4) Glotz, op. cit. p. 392.

(5) Jouguet, Nat, Eg., III, p. 69.

(6) Milne, Rev. Arch., 1905, p 257; J. E. A, 1933, p. 119; S. P. Noe, A Bibliography of Gr. Coin Hoards, Numismatic Notes and Monographs (2nd ed. New York, 1937), nos. 362, 365, 143, 144, 299, 322, 323, 411, 420, 673, 722, 729, 730, 888, 957, 1178; E. T. Newell, Numismatic Notes and Monographs, LXXXII, 1938, pp. 59 ff.; Robinson, A Find of Archaic Gr. Coins from the Delta, Numismatic Chronicle, 1930, p. 934; 1937, pp. 197 ff.

وعن نقود الوالى الفارسى أرياندس راجع :

Svoronos, Ta nomismata Tou Kratous ton Ptolemaion, IV, Coll. 1 — 2; Herod. IV, 166 .

(7) Rostovtzeff, Soc. and Econ , p. 89.

الأخيرة على نمط العملة الإغريقية [١]. وإلى جانب ذلك كانت توجد قبل الفتح المقدونى بعدة قرون ، بل يحتمل منذ عهد الدولة القديمة ، قطع معدنية بعضها من الذهب وبعضها من الفضة والبعض الآخر من البرونز كانت المعابد تصدرها وتضع عليها طابع الآلهة ضمانا لقيمتها [٢]. ولا يرى بعض العلماء أى فارق بين هذه العملة المصرية وبين النقود بمعناها الدقيق ، بينما يرى البعض الآخر أن الفارق بين الإثنين دقيق جداً [٣] .

وجدير بالملاحظة أنه فى عصر الفراعنة كانت الفضة نادرة وتتكلف نفقات باهظة فى إحضارها إلى مصر ، ولذلك كانت قيمتها مرتفعة وكانت نسبة الذهب إلى الفضة فى مصر على الأقل حتى عهد الرعامسة مختلفة عنها فى عالم البحر الأبيض، ففى عهد الأسرة العشرين كانت هذه النسبة فى مصر تعادل ٢ : ١ [٤] ، لكننا لا نعرف عن يقين تلك النسبة عند الفتح المقدونى ، وإن كان البعض يرى أنها

(1) Cf. Chassinat, Une monnaie d'or à legendes hiéroglyphiques trouvée en Eg., B. I. F A. O., I, 1901, pp. 78 — 86; Une novelle monnaie à légende hiéroglyphique, ibid. 1907, pp. 165 — 167; Les trouvailles de monnaies ég. à legendes hiéroglyphiques, Rec. des Travaux relatifs à la Philologie et à l'archéologie égypt. et assyr , 40, 1923, pp. 131 — 157; Milne, J, E A., 24, 1938, p. 201.

وقد أخطأ سفورونوس (op. cit colls. 3 — 4) فى اعتبار هذه النقود من عهد سوتر عندما كان لايزال واليا . وتوجد فى المتحف البريطانى قطعة ذهبية على نمط العملة الأثينية وتزن أربع دراخمات وتحمل صور طائر ونبات البردى والحروف ت ا و. راجع :

G. F. Hill, Tachos, King of Eg., Brit. Mus. Quart. I, 1927, p. 24.

(2) Preaux, p, 267; Cf. Dykmans G., Hist. écon. et Soc. de l'anc. Eg. II pp. 253—262; J. Pirenne—B. Van de Walle, Documents juridiques égs., Rev. Hist. Or. I, 1937, pp 73 — 79;

وتتحدث وثيقة من عام ٨٤٧ ق. م. عن « نقود خزانة الإله Harsaphès » راجع :

G. Möller, Ein ägyptischer Schuldschein der zweiundzwanzigsten Dynastie, Sitz. Preuss. Akad. Wiss., Ph. Hist. Kl. 1921, pp. 298 — 304.

وتتحدث وثائق ديموتيقية كثيرة سابقة على عهدالبطالمة عن نقودخزانة الإله فتاح،راجع :

Chassinat, Les trouvailles de monn. ég., Recueil. op. cit., pp. 146—150.

(3) Jouguet, Nat. Eg. III, p. 70.

(4) Milne, J. E. A. XV, 1929, pp. 150—153.

لم تتغير عما كانت عليه من قبل [١] ، بينما يرى البعض الآخر أنه إذا كانت الفضة نادرة فى عهد الرعامسة ، فإن فتح أبواب مصر للتجارة الإغريقية سهل مجىء الفضة إلى وادى النيل ، حيث كانت المعابد الكبرى تخرج قطعاً من الفضة يتداولها الناس [٢] . وترينا إحدى وثائق زينون البردية [٣] أن نسبة الذهب إلى الفضة حوالى عام ٢٥٨ — ٢٥٧ كانت ١ : ١٣ ½ أى مثل ما كانت عليه تقريبا فى العالم الإغريقى فى القرن الخامس ، فقد كانت تبلغ عندئذ ١ : ١٣ ثم هبطت تدريجيا بعد فتوحات الإسكندر التى أدت إلى تدفق كنوز الإمبراطورية الفارسية على العالم الإغريقى ، فأصبحت النسبة بين الذهب والفضة ١ : ٨ ، لكن فى أواخر النصف الأول من القرن الثالث ازدادت قيمة الذهب رويدا [٤] . ويفسر البعض هذه الظاهرة بسببين : واحدهما انقطاع ورود ذهب البنجاب عندما زالت السيادة المقدونية عن هذا الاقليم ، والآخر هبوط سعر الفضة بالنسبة للذهب نتيجة لاستغلال مناجم الفضة فى أسبانيا [٥] .

وتمتاز نقود البطالمة عن النقود التى سكها سائر خلفاء الإسكندر تقريبا بصعوبة ترتيبها ، لأن نقود البطالمة تتألف من نقود فضية ونقود ذهبية ونقود برونزية ، وكثيراً ما تحمل العملة الفضية العادية صورة بطلميوس الأول واسم بطلميوس الذى حمله كل ملوك هذه الأسرة . أما النقود الذهبية والنقود الفضية

---

(١) يرى Milne فى مقاله سابق الذكر ص ١٥٠ — ١٥١ أن النسبة لم تتغير ، بينما يرى البعض الآخر أن النسبة كانت تتراوح إذ ذاك بين ١٥ : ١ ، ١٠ : ١ ، راجع :

A. Segré Metrologi e circalazione monetaria degli Antichi (Bologne, 1928) 2e partie, pp. 257 — 258.

(2) Préaux, pp. 270 — 271.

(3) P. Cairo Zen. 59022.

(4) Preaux, pp. 268 — 70.

(5) Th. Reinach, Du Rapport de Valeur des metaux monetaires dans l' Eg. au temps des Ptols., Rev. Et. Gr., 41, 1928, pp, 121 ff.

غير العادية ، فإنها تحمل صور بطلميوس الأول وغيره من الملوك والملكات وأحياناً ألقابهم الخاصة وأسماء الملكات . ولم تسك النقود الذهبية عادة فى حياة الملوك الذين تحمل النقود صورهم . أما النقود البرونزية فإنها تحمل فى حالات كثيرة صوراً مأخوذة من الأساطير الدينية . وجدير بالملاحظة أن أغلب النقود الفضية التى سكها البطالمة الأواخر مؤرخة بسنى حكم الملوك الذين سكت فى عهدهم ، ولذلك كانت لهذه النقود أهمية خاصة فى تأريخ كافة نقود كل البطالمة [١] وسنكتفى هنا بدراسة موجزة للنقود التى سكها البطالمة لمصر دون سواها من امبراطوريتهم ، بسبب صعوبة ترتيب نقودهم وتشعب موضوعها وتعقده مما يجعل تتبع ذلك أمراً عسيراً على غير الأخصائيين ، ولا سيما أن المجال لا يسمح هنا للإفاضة فى هذا البحث .

ولقد انتشرت فى مصر منذ قدوم الإسكندر إليها نقود هذا الملك[٢] . ووجدت هنا أيضا نقود تضاهى نقود الإسكندر فى طابعها ، لكنها تحمل اسم فيليب أرهيدايوس ، فهل سك بطلميوس هذه النقود عندما كان يحكم مصر باعتباره والياً من قبل فيليب ؟ إن من العسير الجزم برأى فى هذا الموضوع على ضوء المعلومات القليلة التى لدينا ، وإن كان ذلك يبدو محتملا ولا سيما أن بطلميوس سك نقوداً باسم الإسكندر الرابع منذ وفاة فيليب حتى اتخذ هو نفسه لقب ملك[٣] . وإذا كانت هذه النقود الأخيرة تشبه نقود الإسكندر الأكبر وفيليب من حيث ظهور صورة الإله زيوس على الظهر ورأس الإسكندر الأكبر على الوجه ، فإنها بالرغم من ذلك تختلف عن سابقتها لأن رأس الإسكندر الأكبر هنا محلاة بقرنى آمون ومغطاة بجلد الفيل بدلا من جلد الأسد الذى كان يمتاز به الطابع القديم . وأهم من كل ذلك تصوير صاعقة على الظهر ،

(1) Poole, Cat. of Gr. Coins in the B. M., Coins of the Ptolemies. Introd. p. XIII.

(2) Préaux, p. 268.

(3) Poole, op. cit. p. XVI.

فقد كان ذلك نواة الطابع الذى تمتاز به نقود البطالمة باعتبارهم ملوك مصر ، لأنه لكل نقود هؤلاء الملوك ، فيما عدا فئة محدودة منها أغلبها تذكارى ، طابع خاص يصور على ظهرها ويتألف من الصاعقة والنسر [١] . وتمتاز فئة أخرى من نقود الأسكندر الرابع ببقاء طابع الوجه كما هو واختفاء الإله زيوس من الظهر وتصوير الآلهة المقدونية أثينا الكيس (Athena Alkis) وأمامها نسر واقف على صاعقة [٢] .

ولاشك فى أن بطلميوس الأول سك نقوداً باسمه عندما اتخذ لقب ملك ، لكن ماهى النقود التى يمكن أن نعزوها إلى هـذا الملك من بين كميات النقود الفضية التى سكت طوال عهد البطالمة وكثيراً ما تحمل صورته ، وفى أغلب الحالات لقب ملك وفى حالات قليلة لقب سوتر ؟ يوجد لدينا أساسان لتحديد ذلك ، وهما طراز الصور وحروف صانعى النقود التى تظهر على نقود الإسكندر الرابع وكذلك على النقود التى تحمل صورة بطلميوس الأول على الوجه والنسر والصاعقة وعبارة « الملك بطلميوس » أو عبارة « بطلميوس سوتر » على الظهر . وبما أن بطلميوس الأول لم يحمل لقب سوتر رسمياً فى حياته ، فيجب إذن استبعاد النقود التى تحمل هـذا اللقب . ويبدو أنه فى الإمكان أن نعزو إلى بطلميوس الأول من تلك النقود التى يدل طرازها على أنها أقدم من غيرها جانباً من تلك الفئة من النقود الذهبية التى تحمل وراء الأذن حرف «د» الذى ظهر كذلك على نقود الإسكندر الرابع ، وجانباً من النقود البرونزية التى تحمل أيضاً هـذا الحرف وقد صور على وجه القطع الكبيرة منها رأس زيوس آمون ، أما على وجه القطع الصغيرة رأس الإسكندر وقد غطى بجلد الفيل [٣] . وتعزى أيضاً إلى بطلميوس الأول فئة محدودة من النقود الذهبية والفضية

(1) Poole, op. cit., p. XVII, Pl. I, 1.

(2) Poole, pp. XVII — XIX, Pl. I, 2. 3, 5, 6, 8; Svoronos, II, pp. 7 ff.

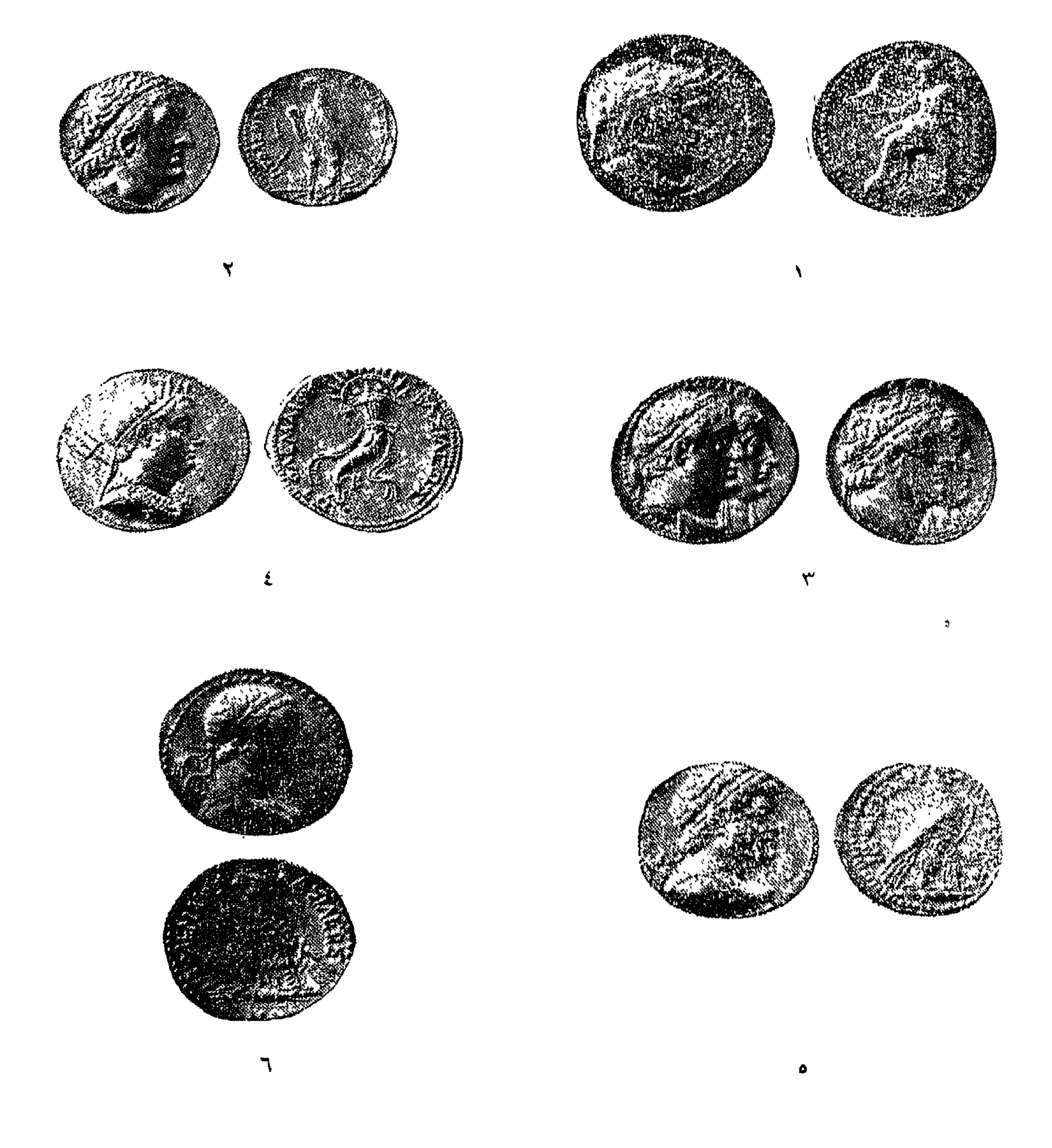
(3) Poole, op. cit., pp. XXIV — XXVII, Pl. III.

والبرونزية التى لاتحمل حرف « د » . وتمتاز النقود البرونزية فى هذه الفئة بصورة رأس الإسكندر وقد حليت بقرنى آمون وشعر طويل بدلا من الشعر القصير الذى يظهر كثيرا فى الفئات الأخرى من النقود[١]

أما الجانب الأكبر من النقود الذهبية والفضية التى تحمل حرف « د » ، فإنه يعزى إلى بطلميوس الثانى[٢] الذى يمتاز عصره بسك قطع ثقيلة من النقود الذهبية والفضية والبرونزية ، مثل القطع ذات الثمانى دراخمات التى تحمل صورة أرسينوى الثانية أو تحمل صورة بطلميوس الأول ومعه برينيكى الأولى وصورة بطلميوس الثانى ومعه أرسينوى الثانية ، وكذلك القطع الفضية ذات العشر دراخمات وعليها صورة أرسينوى الثانية ، والقطع الفضية النادرة ذات الثمانى دراخمات من الفئة التى تحمل حرف « د » ، وكذلك أيضاً كل القطع البرونزية الثقيلة [٣] . وتحمل هذه القطع البرونزية على الوجه صورة زيوس آمون وعلى الظهر نسراً واقفاً على الصاعقة وجناحاه مفتوحان وينظر إلى الخلف [٤] . وتمتاز بعض العملة التى سكت فى عهد فيلادلفوس بظهور درع صغير على الظهر إلى جانب النسر الواقف على الصاعقة ، لكن هذه الظاهرة لم تبرز عادة فيما بعد إلا فى سلسلة النقود التى تحمل أربع صور وخاصة تلك التى تحمل صورتى فيلادلفوس وأرسينوى الثانية [٥] .

ويجب أن نعزو إلى فيلادلفوس أنه سك لأول مرة فئتين من النقود التذكارية . وقد كانت غالبية الفئة الأولى من الذهب وتتألف من قطع ذات ثمانى دراخمات وتحمل على الوجه صورتى بطلميوس الثانى وأرسينوى الثانية ، وعلى الظهر صورتى بطلميوس الأول وبرينيكى الأولى . وتمتاز أقدمها فى الطراز بظهور درع صغير على الوجه ، ويرجح أن أغلب النقود التى على هذا النمط يرجع إلى عصر بطلميوس

(1) Poole, op. cit., p XXVII, Pl. II, 1 — 8.
(2) Poole, op. cit., p. XXXII.
(3) Poole, op. cit., p. XXXIII.
(4) Poole, op. cit., p. XXXVII. Pl. VI. 4.
(5) Poole, op. cit., p. XXXIV.



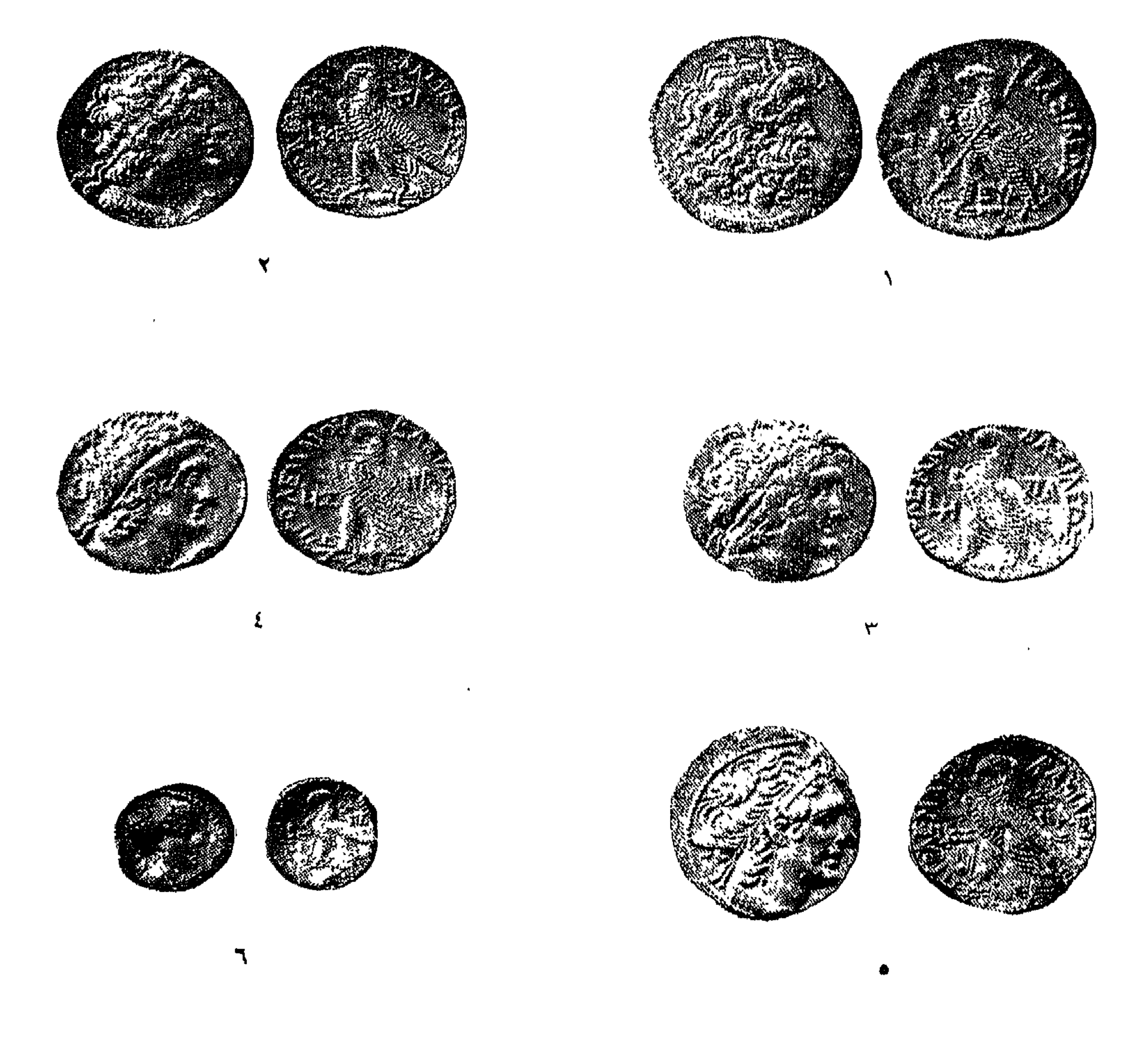
١ — مثل لنقود الإسكندر الرابع من عهد بطلميوس الأول
٣ — « « تذكارية من عهد بطلميوس الثانى أو الثالث
٥ — « « « فيلوباتور

٢ — مثل لنقود بطلميوس الأول
٤ — « « « « الثالث
٦ — « « « « الخامس

الثانى أو الثالث أو إلى عصر هذين الملكين [١] . لكن نلاحظ أن جانبا آخر من النقود المماثلة يشبه نقود بطلميوس الخامس من حيث الطراز وظهور رأس حربة على الظهر ، ولذلك نعزو سك هذا الجانب إلى عهد بطلميوس الخامس [٢] . ويوجد أيضاً جانب ثالث من هذه الفئة ، وهو يمتاز بظهور الدرع ويشبه من حيث الطراز نقود بطلميوس السادس أو الثامن ، ولذلك لابد من أنه سك فى هذا العصر المتأخر [٣] . وتحمل جميع نقود هذه الفئة على الوجه كلمة الأخوين وعلى الظهر كلمة الإلهين .

أما الفئة الثانية فكان أغلبها قطعاً ذهبية ذات ثمانى دراخمات وقطعاً فضية ذات عشر دراخمات ، تحمل كلها على الوجه صورة أرسينوى الثانية ويحمل أغلبها على الظهر قرنى الرخاء ، لكن بعضها يحمل بدلا من ذلك نسراً يقف على صاعقة . وقد نقش على ظهر جميع هذه النقود اسم ارسينوى فيلادلفوس . وإذا كان من المحتمل أن النقود الذهبية قد سكت فى خلال فترة تمتد نحوا من قرن ونصف قرن ، فإن النقود الفضية قد سكت جميعاً فى وقت واحد . وأقدم نقود هذه الفئة هى النقود الذهبية وترجع إلى أواخر عهد فيلادلفوس وبداية عهد ايوارجتيس [٤] . وقد سكت هذه النقود ثانية بعد السكة الأولى ، كما حدث فى حالة النقود ذات الصور الأربع . ويبدو أن السكة الثانية كانت ، مثل السكة الثانية من نقود الفئة الأولى ، ترجع إلى عهد بطلميوس الخامس ، الذى لا توجد لملكته قطع ذهبية ذات ثمانى دراخمات ، كما وجدت لمن سبقها من الملكات أرسينوى الثانية وبرينيكى الثانية وأرسينوى الثالثة [٥] . ويحتمل أن السكة الثالثة ترجع إلى عهد يمتد من بطلميوس السادس إلى بطلميوس العاشر [٦] . أما نقود أرسينوى الفضية

(1) Poole, pp. XXXVIII — XXXIX, Pl. VII, 1 — 4.
(2) Poole, p. XXXIX,, Pl. VII, 5, 6.
(3) Poole, p. XXXIX, Pl. VII, 7.
(4) Poole, pp. XIL — XL, Pl. VIII, 1 — 5.
(5) Poole, p. XL, Pl. VIII, 6.
(6) Poole, p. XLI, Pl. VIII, 7 — 10.



١ — مثل لنقود بطلميوس السادس البرونزية فى أثناء وصاية ايولايوس ولنايوس .

٢ — مثل لنقود بطلميوس الثامن ايوارجتيس الثانى.

٣ — « « « التاسع سوتر الثانى عندما حكم بمفرده .

٤ — « « « العاشر اسكندر الأول عندما حكم بمفرده

٥ — « « « الثانى عشر الزمار .

٦ — « « كليوبترة السابعة .

التى تتألف من قطع ذات عشر دراخمات ، فإنها ترجع جميعا إلى وقت السكة الأولى لنقودها الذهبية ، أى إلى عهد بطلميوس الثانى والثالث . ويبدو مما مر بنا أن بطلميوس الخامس أعاد استخدام نقود فيلادلفوس الذهبية ، التى أهمل إستخدامها فى خلال عهد ايوارجتيس أو بعده ، وأن خلفاء بطلميوس الخامس لم يسكوا نقوداً ذهبية سوى هذه النقود [1] .

ويمتاز عهد ايوارجتيس بسكتين أولاهما من برونز يمتاز بصفائه . وقد صور على وجه بعض هذه العملة رأس زيوس آمون وعلى وجه بعضها الآخر صورة نصفية لبطلميوس الثالث ، لكنها جميعاً تحمل على الظهر نسراً واقفاً على الصاعقة وقرن الرخاء وعبارة « الملك بطلميوس » [2] . أما السكة الثانية فإن بعضها من الذهب ، وقد صور على الوجه تمثال نصفى لهذا الملك يحمل على رأسه تاجا فى شكل أشعة الشمس وعلى كتفه صولجانا له رأس ذات ثلاث شعب . أما على الظهر فقد صور قرن الرخاء وفوقه هالة الشمس وعبارة « الملك بطلميوس » [3] . وقد كان البعض الآخر من هذه السكة من البرونز ، ونقود هذه السكة أقل نوعا من نقود السكة الأولى ، وقد صور دائما على وجه فئاتها الصغيرة رأس الإسكندر مغطاة بجلد الفيل وعلى الظهر نسر يقف على الصاعقة [4] . أما الفئات الكبيرة فإنها تحمل على الوجه رأس زيوس آمون وعلى الظهر نسراً واقفاً على الصاعقة وأمامه قرن الرخاء ، وكلها تحمل على الظهر عبارة « الملك بطلميوس » [5] .

وجدير بالملاحظة أن برينيكى الثانية كانت أول ملكة بطلمية حملت لقب ملكة على نقودها ، فإن أرسينوى الثانية أعطيت لقب « فيلادلفوس » وأرسينوى الثالثة لقب زوجها « فيلوباتور » ، أما كليوبترة الأولى فأنها أعطيت لقب « ملكة » على

---

(1) Poole, pp. XLI —XLII.
(2) Poole, p. XLIV, Pl. XII, 1, 2.
(3) Poole, p. XLIV, Pl. XII, 3 — 5.
(4) Poole, p. XLIV, Pl. XII, 7.
(5) Poole, Pl XII, 6.

النقود التي سكتها باعتبارها وصية على ابنها بطلميوس السادس عقب وفاة زوجها بطلميوس الخامس . وقد كان ذلك أيضاً حال كليوبترة الثانية أو الثالثة باعتبارها زوجة بطلميوس الثامن ، وكليوبترة الثالثة باعتبارها أرملته ، وكليوبترة السابعة عندما حكمت بمفردها وكذلك عندما أشركت معها ابنها بطلميوس قيصر . ويدل كل ذلك على أنه يجب ألا نقصر نقود برينيكى الثانية باعتبارها ملكة على مدة حكمها فى برقة منذ وفاة أبيها ماجاس فى عام ٢٥٨ حتى ارتقاء بطلميوس الثالث العرش فى ٢٤٧ ، عندما ضم حوالى هذا الوقت تاج برقة إلى تاج مصر نتيجة لزواج بطلميوس وبرينيكى [1] . ويضاف إلى ذلك أن النقود الذهبية ذات الثمانى دراخمات التى سكت فى إفيسوس ، والنقود الفضية ذات العشر دراخمات التى سكت فى مصر ، تنهض دليلا آخر على سك نقود تحمل صورة برينيكى واسمها لا فى برقة فقط بل فى مصر نفسها وفى ممتلكاتها . ولعل ذلك كان على نمط النقود الذهبية والفضية التى سكت باسم ارسينوى الثانية [2] . وفى نقود برينيكى الفضية التى سكت لمصر نرى على الوجه صورة نصفية لبرينيكى وعلى الظهر قرن الرخاء وعبارة « الملكة برينيكى » [3] .

وقد سكت فى عهد فيلوپاتور نقود ذهبية ونقود برونزية . أما النقود الذهبية فتتألف من قطع ذات ثمانى دراخمات ، وهى فئتان نرى فى إحداها على الوجه صورة تمثال نصفى لهذا الملك وعلى الظهر صورة نسر واقف على الصاعقة وإلى جانبيه اسم هذا الملك ولقبه : بطلميوس فيلوپاتور [4] . أما فى الفئة الأخرى فنرى على الوجه صورة نصفية لزوج هذا الملك ، وعلى الظهر قرن الرخاء يعلوه نجم ومن حوله اسم هذه الملكة ولقبها : أرسينوى فيلوپاتور [5] . وتتألف النقود البرونزية

(1) Poole, pp. XLV — XLVI

(2) Poole, p. XLVII, Pl. XIII, 2, 3, 9, 10.

(3) Poole, p. 59, Pl. XIII, 3

(4) Poole, p. LII, Pl. XV, 1, 2.

(5) Poole, p. LIII, Pl. XV, 6.

من سكتين إحداها أقدم وأدق صنعا من الأخرى ، وتحمل بعض نقود السكتين على الوجه صورة الإله زيوس آمون ، وبعضها صورة الإسكندر ، لكن كلها ترينا على الظهر صورة نسر يقف على الصاعقة ويحمل قرن الرخاء على جناحه الأيسر [١] .

وقد سكت فى عهد إبيفانس نقود ذهبية ونقود فضية ونقود برونزية . والقطع الذهبية ذات الثمانى دراخمات ترينا على الوجه صورة نصفية لهذا الملك وقد وضع على رأسه رباط الملك الذى زين بسنبلة القمح ، أما على الظهر فيوجد نسر واقف على الصاعقة وعبارة « الملك بطلميوس » [٢] . وأهم فارق بين طابع القطع الفضية ذات الأربع دراخمات وطابع القطع الذهبية التى مر بنا ذكرها هو أن رباط الملك غير مزدان بشىء فى القطع الفضية [٣] . ويبدو أن نقود إبيفانس البرونزية فئتان نرى فى إحداها تكراراً رديئا لبعض نقود فيلادلفوس ، وفى الأخرى صورة ممسوخة لبعض نقود ايوارجتيس ، لكن إذا كان أغلب هذه العملة البرونزية يتفق فى شكل طابع الوجه من حيث تصوير رأس زيوس آمون فإن طابع الظهر يميزها عن بعض . ويمكننا أن نميز فى نقود هذا العهد ثلاثة طوابع ، يصور أحدها نسرها واقفاً على الصاعقة وأمامه قرن الرخاء ، أما الثانى فيرينا كذلك نسراً واقفاً على الصاعقة لكنه ينظر إلى الخلف وجناحاه مفتوحان . وجدير بالملاحظة أن عملة صغيرة من من البرونز تحمل نفس هذا الطابع على الظهر ، لكنها تحمل على الوجه رأس الإله نيلوس [٤] . أما الثالث ففيه أيضاً نسر واقف على الصاعقة وينظر إلى الأمام ، إلا أنه يحمل قرنى رخاء على جناحه الأيسر . وتحمل كل هذه النقود على الظهر عبارة « الملك بطلميوس » [٥] .

(1) Poole, p. LIII, Pl. XV, 3 — 5.
(2) Poole, pp LVI, LVIII, 74, Pl. XVII, 5.
(3) Poole. p. LVIII, p. 74.
(4) Poole p. LVII, p. 75, Pl XVIII, 3.
(5) Poole, p. LVII, Pl. XVII, 6; Pl, XVIII, 1, 2.

وتمتاز القطع الفضية ذات الأربع دراخمات ، التى يظهر أنها سكت لمصر فى عهد وصاية كليوبترة الأولى على ابنها بطلميوس السادس ، بتصوير كليوبترة على الوجه فى شكل إيزيس وإلى جانبها سيرابيس . ويتألف طابع الظهر من نسر واقف على الصاعقة ينظر إلى الخلف ويحمل قرنى الرخاء على جناحه الأيمن ، وفوق ذلك عبارة « الملك بطلميوس » [١] . أما فى القطع البرونزية فنرى على الوجه كليوبترة فى شكل إيزيس وعلى الظهر طابعاً مماثلا لطابع القطع الفضية فيما عدا أن قرن الرخاء هنا واحد فقط [٢] .

وعندما آلت وصاية الملك إلى إيولايوس ولنايوس ، سكت نقود برونزية جديدة تحمل على الوجه صورة زيوس آمون وعلى الظهر نسراً واقفاً على الصاعقة . ويلاحظ أنه فى القطع الكبيرة فقط قد صور النسر وتحت جناحه الأيسر صولجان ، وأمامه زهرة اللوتس التى تعتبر أهم طابع لنقود بطلميوس السادس البرونزية ، ونقشت بين قدمى النسر الحروف الثلاثة الأولى من اسم إيولايوس [٣] .

وعندما غزا أنطيوخوس الرابع مصر ، وضع على هـــذه العملة الطابع السليوكى ، كما أنه سك عملة برونزية جديدة تمتاز بأنها تحمل على الوجه إما صورة سيرابيس أو صورة إيزيس أو صورة هذا الملك ، وعلى الظهر نسراً واقفاً على الصاعقة وعبارة « الملك أنطيوخوس الإله إيبفانس » [٤] .

ويبدو أنه عندما اشترك فى حكم مصر فيلومتور وأخوه الصغير ، سكت نقود برونزية لتخليد ذكرى ذلك الحادث . وكانت تلك النقود فئتين ، إحداهما تكرار لنقود إيولايوس فيما عدا تصوير زهرة اللوتس ، والأخرى متأخرة عن الأولى وأسوأ منها ، وكلها تحمل عبارة « الملك بطلميوس » [٥] .

---

(1) Poole, p. LX, Pl. XVIII, 8,

(2) Poole, p. LX, Pl. XVIII, 9.

(3) Poole, p. LXIII, Pl. XIX, 2.

(4) Poole, pp. LXIII, LXIV, p. 81; Cat. of Sel. Kings of Syria, Pl. XII, 11, 12, 13.

(5) Poole, p. LXIV, Pl. XIX, 3.

ويحتمل أنه عندما أصبح فيلومتور ثانية ملك مصر وحده أعاد سك نقود أرسينوى الثانية الذهبية ، وأصدر عملة برونزية تحمل على الوجه صورة زيوس آمون وعلى الظهر النسر الواقف على الصاعقة وأمامه زهرة اللوتس التى تميز نقود فيلومتور[١] . وجدير بالملاحظة هنا قطعة نقود فضية يرجح أنها ترجع إلى العهد الذى أشرك فيه فيلومتور ابنه إيوباتور معه فى الملك . وتحمل هذه القطعة على الوجه صورة بطلميوس الأول ، وعلى الظهر نسراً واقفاً على الصاعقة وإلى جانبه حروف يرجح أنها تشير إلى سنى حكم فيلومتور وابنه إيوپاتور[٢] .

ويمكن تقسيم حكم ايوارجتيس الثانى فى مصر ، عقب وفاة أخيه فيلومتور ، فترتين : الأولى منذ تولى الحكم حتى فراره إلى قبرص ، والثانية منذ عودته من قبرص حتى وفاته . وتنتمى إلى الفترتين نقود فضية تتفق فى طابعها وإن اختلفت فيما تحمله من رموز تشير إلى سنى الحكم ، لكن من العسير أن نجزم إطلاقاً هل كل هذه النقود أو بعضها ترجع إلى عهد بطلميوس فيلومتور أو بطلميوس ايوارجتيس الثانى . أما طابعها فهو على الوجه رأس بطلميوس الأول ، وعلى الظهر نسر واقف على الصاعقة وعبارة « الملك بطلميوس »[٣] . أما النقود البرونزية التى سكت فى الفترة الأولى فإنها تحمل على الوجه رأس كليوبترة الأولى فى شكل إيزيس وقد تدلت من رأسها خصل شعر طويلة وعصبت بسنابل القمح ، وتحمل على الظهر نسراً واقفاً على الصاعقة وقد فتح جناحيه وعبارة « الملك بطلميوس »[٤] . أما النقود البرونزية التى من الفترة الثانية فترينا على الوجه رأس كليوبترة الثانية أو الثالثة وقد غطيت بجلد الفيل ، وعلى الظهر نسراً واقفاً على الصاعقة وقد فتح جناحيه وعبارة « الملك بطلميوس »[٥] .

---

(1) Poole, p. LXVI, Pl. XX, 8.

(2) Poole, pp. LXVI — LXVIII, Pl. XXXII, 9.

(٣) نقود القسم الأول (Poole, p. 93, Pl. XXII, 1 — 4) ونقود القسم الثانى (Poole, p 98, Pl. XXIII, 9.)

(4) Poole, pp. 93 — 94, Pl. XXII, 5, 6.

(5) Poole, p. 98, Pl XXIII, 10.

ويحسن أن نعالج سوياً نقود عهدى الأخوين بطلميوس التاسع سوتر الثانى وبطلميوس العاشر الإسكندر الأول ، لأن هذين العهدين متداخلان فى بعضهما بعضا ، وفضلا عن ذلك فإن النقود الفضية التى سكت فى عهد هذين الملكين تحمل جميعا على الظهر نسراً واقفا على الصاعقة وعبارة « الملك بطلميوس » ، وعلى الوجه رأس بطلميوس الأول ، لكن لهذه الرأس طابعين مختلفين اختلافاً غير جوهرى . فعندما حكم بطلميوس التاسع مع أمه كليوبترة الثالثة ، كان شكل الرأس يشبه الشكل الذى صور على نقود بطلميوس الثامن[١] . وعندما حكم بطلميوس التاسع بمفرده من ١١١ إلى ١٠٧/١٠٦ ، وجد هذا الشكل أيضا[٢] ، كما وجد كذلك شكل آخر صورت فيه معالم الوجه على نحو أدق[٣]. وعندما حكم بطلميوس العاشر مع أمه وجد هذان الشكلان[٤] كذلك ، لكن عندما حكم بطلميوس العاشر بمفرده لم يوجد سوى الشكل الأول القديم[٥] . وليست نقود بطلميوس التاسع عندما استردد ملكه فى عام ٩٩ سوى تكرار للنقود الأخيرة التى سكها أخوه بطلميوس العاشر[٦] . أما النقود البرونزية التى سكت طوال عهدى بطلميوس التاسع والعاشر فهى فئة واحدة من حيث الطابع ، إذ نرى على الوجه رأس زيوس آمون ، وعلى الظهر نسرين واقفين على الصاعقة وأمامهما قرنى الرخاء ، لكن هذه النقود فئتان من حيث أنه نقشت على الوجه فى الفئة الأولى عبارة « فى عهد الملكة كليوبترة » واختفاء هذه العبارة فى الفئة الثانية ، لكن نقشت على الظهر فى الفئتين عبارة الملك بطلميوس »[٧] .

---

(1) Poole, p. LXXIX, Pl. XXVI, 4, 5, 6.
(2) Poole, loc. cit., Pl. XXVII, 1.
(3) Poole, loc. cit., Pl. XXVII, 2.
(4) Poole, loc. cit., XXVIII, 1, 2.
(5) Poole, loc. cit., Pl, XXVIII, 3, 4, 5.
(6) Poole, loc. cit., Pl, XXVIII, 8.
(7) Poole, loc. cit., Pl. XXVI, 7. 8.

وليس غريباً أنه لم تصل إلينا نقود من عهد بطلميوس الحادى عشر الإسكندر الثانى ، فإنه لم يحكم سوى بضعة أسابيع . أما بطلميوس الثانى عشر الزمار ، فإن نقوده تمتاز بتصوير رأس بطلميوس الأول على الوجه ، ونسر واقف على الصاعقة وتحت جناحه الأيسر فرع نخلة وأمامه تاج إيزيس وعبارة « الملك بطلميوس » على الظهر . وقد صنعت هذه النقود الفضية من مزيج ردىء جداً ، لكن مما يجدر بالملاحظة أن النقود التى سكها بعد ما استرد عرشه فى عام ٥٥ بمساعدة جابينيوس[1] كانت أحسن نوعاً من النقود التى سكها قبل هروبه إلى روما فى عام ٥٨[2] .

وقد سكت فى عهد كليوبترة السابعة نقود فضية وأخرى برونزية ، ويبدو أن الأولى سكت حوالى عام ٤٧ قبل إشراك أخيها بطلميوس الرابع عشر معها ، وأن الثانية سكت بعد إشراك ابنها بطلميوس قيصر معها ، كما يستدل من تصوير قرنى الرخاء على الظهر . لكن مما يجدر بالملاحظة أنه لم يرد ذكر لأى بطلميوس على النقود جميعاً ، فإن النقود الفضية تحمل على الوجه رأس هذه الملكة وعلى الظهر نسراً واقفاً على الصاعقة وتحت جناحه الأيمن فرع شجرة النخيل وأمامه تاج إيزيس وعبارة « الملكة كليوبترة »[3] . أما فى النقود البرونزية فنرى على الوجه صورة نصفية لكليوبترة السابعة ، وعلى الظهر نسراً واقفاً على الصاعقة وأمامه قرنى الرخاء وعبارة « الملكة كليوبترة »[4] .

ومنذ الفتح المقدونى كانت العملة تسك فى مصر على قاعدة النظام الأتيكى ، لكن بعد أن اتخذ بطلميوس الأول لقب ملك بسنين قليلة أصدر عملتين فضية وذهبية أقل وزنا من العملة القديمة[5] . ولم تتفق العملة الجديدة اتفاقاً تاماً مع قاعدة

---

(1) Poole, pp. LXXX — LXXXI, Pl. XXIX, 3.
(2) Poole, Pl. XXIX, 1, 2.
(3) Poole, pp. LXXXIV, 122, Pl. XXX, 5.
(4) Poole, pp. LXXXIV, 123, Pl. XXX, 7, 8.
(٥) يعتقد البعض أن ذلك حدث قبل وفاة الاسكندر الرابع راجع
Milne, J. E. A., XXIV, 1938, pp. 201 — 2.

أى عملة معروفة عندئذ ، لكنها كانت تقرب جدا من قاعدة النقد الرودسى فى أواخر القرن الرابع . وبعد ذلك اتخذ بطلميوس الأول خطوة أخرى عزلت النقد المصرى تقريبا عن العالم الهيلينستى لأنه أنقص وزن العملتين الفضية والذهبية ثانية باتخاذ قاعدة شديدة الشبه بقاعدة العملة الفينيقية [١] . وقد احتفظ البطالمة حتى نهاية أسرتهم بهذه القاعدة التى اتبعتها أيضاً امبراطوريتهم البحرية ، وكذلك كل البلاد التى خضعت لنفوذهم . ويفسر ما أقدم عليه بطلميوس الأول ، واحتفظ به خلفاؤه ، بعاملين واحدهما الرغبة فى الموازنة بين قيمة العملة وأسعار المعادن النفيسة ، فقد كانت هذه الأسعار تزداد باطراد فى حالة الفضة وتتناقص فى حالة الذهب . والعامل الآخر هو الاعتبارات التجارية ، فقد كان البطالمة فى حاجة إلى مقادير وفيرة من العملة من أجل تجارتهم الشرقية ، وكانت هذه التجارة إلى حد كبير ، على الأقل فى بداية عهدهم ، فى قبضة المدن الفينيقية التى أصبحت خاضعة لهم . وفضلا على ذلك فأنه كان للتجارة الشرقية ومنتجات مصر سوق رائجة فى الغرب ، حيث كان أكبر عميل لهم قرطجنة ، تلك المدينة الفينيقية التجارية العظيمة [٢] . ومما يسترعى النظر أنه طالما بقيت فينيقيا فى قبضة البطالمة كانت أهم دور سك العملة عندهم فى المراكز الفينيقية الخاضعة لهم ، وهى صور وصيدا وبطوليميس (عكا) ويافا وغزة . ويبدو أنه عند ما خرجت فينيقيا من سيطرة البطالمة فى القرن الثانى قبل الميلاد لجأ البطالمة إلى دور السكة فى قبرص لسك عملتهم الفضية ، إذ أن كل العملة الفضية التى أصدرها البطالمة المتأخرون تحمل العلامات المميزة لدور السكة فى قبرص [٣] .

وحتى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد ، كانت الفضة هى القاعدة الأساسية

---

(1) Svoronos, pp. 18. ff., group. 1, Series 1; Rostovtzeff, p. 1636.

(2) Rostovtzeff, p. 399.

(3) Milne, J. E. A., XV, 1929, pp. 152 — 3; J. E. A., XXIV, 1938, p. 205.

للعملة البطلمية [١] . وقد أسلفنا أن هذه العملة كانت ثلاثة أنواع : أحدها من الذهب وثانيها من الفضة وثالثها من البرونز ، لكن يجب أن يلاحظ أن العملة الفضية كانت أكثرها شيوعا فى عهد البطالمة الثلاثة الأوائل ، وأن القطعة الرئيسية فى العملة الفضية كانت ذات أربع دراخمات وتدعى ستاتر (Stater) أو تترا دراخم (tetradrachm) [٢] ، وأن العملة الذهبية كانت قليلة الاستعمال فى الأسواق الداخلية ولا سيما أجمل أنواعها ، وكانت قطعة ذات خمس دراخمات أصدرها بطلميوس الأول وتعرف باسم تريخروسون (trichryson) ، وكذلك قطعة ذات ثمانى دراخمات (octodrachm أو mnaeion) ، وقطعة ذات أربع دراخمات (tetradrachm) من عهد بطلميوس الثانى ؛ وأنه على عهد بطلميوس الأول والنصف الأول من عهد بطلميوس الثانى لم تكن العملة البرونزية سوى عملة رمزية بمعنى أنها كانت لا تستخدم إلا باعتبارها أجزاء من الدراخمة الفضية ، لكنها فى النصف الثانى من عهد بطلميوس الثانى سكت كميات كبيرة من العملة البرونزية الثقيلة الوزن [٣] ليستخدمها الناس بحسب قيمة ما فيها من معدن . وقد كانت الوحدة الرئيسية فى هذه العملة البرونزية هى الأوبول [٤] وكان ينقسم إلى ثمانية أقسام تدعى خالكى (chalki) . ولعل بطلميوس الثانى قد أقدم على هذه الخطوة حين لاحظ ضعف السوق المحلية بالنسبة إلى السوق الخارجية وعدم اقبال المصريين على استخدام العملة الفضية ، وعلم أن المصريين كانوا أكثر ألفة بالبرونز فى معاملاتهم [٥] . فقرر أن يصدر عملة تصادف هوى لدى المصريين ، ليقبلوا على استعمالها ويترتب على ذلك أن تطرد من التداول المحلى العملة الفضية والذهبية ، فتتكدس هذه العملة فى الخزانة الملكية لاستخدامها

---

(1) Préaux, pp. 268 — 70.
(2) Grenfell, Silver and Copper Coinage of Ptols., in Rev. Laws, p. 195.
(3) Svoronos, pp. 64. ff., group 3.
(4) Grenfell, p. 195.
(5) Préaux, p. 276.

فى الأسكندرية والتجارة الخارجية وفى تقديم الاعانات السياسية[1] . وتشير الأدلة الأثرية والبردية التى من منتصف القرن الثالث إلى إقبال المصريين على العملة البرونزية الجديدة ، إذ أن أكداس النقود التى عثر عليها فى مصر وترجع إلى ذلك التاريخ لم تعد تتألف من العملات الفضية مثل أكداس أوائل هذا القرن وإنما من العملات البرونزية[2] . وترينا « وثيقة الدخل » أنه فى العام الرابع والعشرين من حكم بطلميوس الثانى كان كل دخل احتكار الزيت يحتسب بالعملة البرونزية . ونجد فى مجموعة بترى البردية أن مبالغ كثيرة كانت تدفع بالعملة البرونزية فى العام الحادى والثلاثين من حكم هذا الملك . ويشير كل ذلك إلى أن العملة البرونزية أصبحت تستعمل كثيرا فى الأعمال الرسمية وغير الرسمية[3] . وإذا كانت « وثيقة الدخل » ترينا أنه فى حالة احتكار الزيت كان جباة الضرائب يقبلون العملة البرونزية بكامل قيمتها ، فإنه حتى فى عهد فيلادلفوس كان يحتم دفع ضرائب معينة بالفضة ، وإذا لم يتيسر ذلك كانت تقبل العملة البرونزية مع خصم ١٠٪ عادة من قيمتها[4] . وقد كانت نسبة قيمة الفضة إلى قيمة البرونز فى عهد فيلادلفوس ١ : ٦٠[5] .

وقد عنى بطلميوس الثانى بألا تستعمل فى الأسواق المصرية سوى العملة البطلمية ، ويتضح لنا ذلك بجلاء من خطاب أرسله ديمتريوس ، رئيس دار

(1) Rostovtzeff, p.p. 400 — 1.

(2) Milne, J. E. A., 24, 1938, p. 204.

(3) Grenfell, p. 195.

(4) Grenfell, pp. 199 — 200.

(5) Cf. Préaux, p. 277; Reekmans, Econ. and Social Repercussions of the Ptol. Copper Inflation, Chrouique, 48, 1949. p. 324.

وقد كان تقدير النسبة بين قيمة الفضة وقيمة البرونز موضع جدل شديد بين العلماء : ونجد خلاصة الآراء المختلفة فى هذا الموضوع فى مؤلف Th. Reinach سالف الذكر ص ص ١٤٠ — ١٤٦ . ويعزى فضل نقد الرأى السائد قبلا وهو القائل بأن هذه النسبة كانت ١ : ١٢٠ إلى جرنفل وهنت وسمايلى فى مجلد P. Tebt. I, App. II, pp. 580—603 . وقد كان لترون (Letronne) هو الذى وصل صدفة إلى نسبة ١ : ٦٠ ولم يلبث هايشلهايم أن أثبت صحة هذا الرأى (B. G. U. VII, pp. 274—5; Wirtsch. Schw. p. 13) .

السكة فى الإسكندرية ، إلى أپولونيوس وزير المالية [1] . فقد ورد فى هذا الخطاب بعد الديباجة ما يأتى : « ... تسلمت ... ٥٧ دراخمة (؟) من الذهب رددتها ثانية بعد إعادة سكها . ولقد كان فى الإمكان أن نزيد ما تسلمناه على ذلك مرات عديدة لو أنه ، كما كتبت لك من قبل — عندما ينزل هنا الأجانب وبوجه خاص كبار التجار ورجال الأعمال ، وقد أحضروا معهم من بلادهم نقودهم الجيدة ونقودنا القديمة (trichrysa)[2] ليستبدلوا بها نقوداً جديدة وفقاً للأمر الملكى الذى يقضى بأن نأخذها ونعيد سكها — لم يمنعنى فيلارتس (Philaretes) من قبول تلك النقود ، متذرعاً بحجة أننا لا نعرف من الذى نستطيع الاتصال به فى هذا الشأن ، وأننا مرغمون على ألا نقبل كل هذا القدر . وفى الواقع إن هؤلاء الأشخاص ناقمون ، لأننا لا نقبل ذهبهم لا فى البنوك ولا فى . . . فلا يستطيعون إرسال عملائهم فى البلاد لشراء البضائع منها . ويقولون إن ذهبهم يبقى معطلا وأنه تلحق بهم أضرار فادحة ، لأنهم أحضروه من الخارج ولا يستطيعون التصرف فيه حتى مع خسارة شىء فى استبداله .

« ويرى أهل المدينة غضاضة فى استعمال القطع الذهبية البالية ، لأنهم لا يعرفون أين يقيمون الدليل على قيمتها ويحصلون على قطع ذهبية أو فضية جميلة وجديدة بدلا من هذه القطع القديمة بعد النزول عن جانب من قيمتها . وإنى لأرى أنه تحيق بدخل الملك خسائر فادحة بسبب ما يحدث فى هذا الصدد ، ولذلك أكتب إليك لتكون على علم بمجريات الحوادث ، ولتكتب للملك فى هذا الموضوع إذا تراءى لك ذلك ، ولتخبرنى بمن نستطيع الإتصال فيما يتعلق بهذه المسائل . وإنى لأرى من الخير أن يأتى من الخارج أكبر قدر

---

(1) P. Cairo — Zenon, 59021.

(٢) لقد مر بنا أن trichryson عملة ذهبية ذات خمس دراخمات سكها بطليموس الأول على قاعدة العملة الفينيقية . وكانت هذه القطعة تساوى ٦٠ دراخمة من الفضة راجع : (A. Segré, Metrologia. p. 261.).

تمكن من الذهب ، وأن تكون نقود الملك دائماً جميلة وجديدة دون أن يتحمل نفقات نتيجة لذلك .

« وليس من الخير أن أروى لك كيف يعاملوننى فى بعض النواحى ، لكنك ستعرف كل شىء بمجرد وصولك . . . أكتب لى عن هذا الموضوع لأستنير برأيك فى تصرفاتى . وإنى لأرجولك العافية . العام الثامن والعشرون ، ١٥ من شهر جورپيايوس (Gorpiaios) » .

ويبين أن بطلميوس الثانى أصدر بين العام العشرين والعام الثلاثين من حكمه سلسلة من الأوامر تحوى تشريعاً مالياً كاملا كان تنظيم النقد جزءاً منه ، فإن أمراً ملكياً (prostagma) قضى بأن تؤخذ القطع الأجنبية ويعاد سكها هى وقطع النقد البطلمية القديمة . وقد أصدر وزير المالية مذكرة تفسيرية لهذا الأمر الملكى ، كما جرت به العادة ، ومع ذلك لم توضح بعض التفاصيل المتعلقة بتقدير القطع التى يعاد سكها . ولذلك تعذر تنفيذ الأمر الملكى كما يتضح من الخطاب الآنف الذكر ، الذى يرينا كيف أنه فى الإدارة البطلمية كان قصر نظر الرؤساء المنوط بهم عمل واحد ، والعداء الشخصى بينهم يعطلان مفعول أكثر القوانين إتزانا .

ويعتبر هذا الأمر الملكى نقطة هامة فى تاريخ النقود المصرية ، فإن البطالمة كانوا يسكون النقود منذ خمسين عاماً قبل ذلك ، لكن يبدو أنهم لم يفرضوا قبل صدور هذا الأمر الملكى ألا تستخدم فى صفقات البيع والشراء سوى العملة البطلمية التى أعطاها بطلميوس الثانى آخر صفة كانت تنقصها لتصبح عملة حقيقية ، ألا وهى إستعمالها دون سواها فى البلاد . ولعل فيلادلفوس قد اقتفى فى ذلك أثر العادة المألوفة منذ عهد طويل فى الدول الإغريقية[1] ويشبه هذا الأمر الملكى قرار أولبيا (Olbia) الذى قضى بأن « كل عملية بيع أو شراء يجب أن تتم بعملة المدينة »[2] .

(1) Préaux, pp. 272 — 273.

(2) Dittenberger, Syllogue, I. 3rd. ed., 218.

ولما كان جانب من النقود التى تحول على هذا النحو إلى نقود بطلمية لا يصرف فى مصر ، فإن هذا الإجراء كان يساعد على تنفيذ سياسة البطالمة التى ترمى إلى نشر النقود البطلمية فى الإمبراطورية . ويلاحظ أن الأمر الملكى الخاص بإعادة سك النقود الأجنبية والنقود البطلمية القديمة قد صدر عقب ارتفاع قيمة الذهب[١] ، فكانت إعادة سك القطع القديمة تسمح بتعديل قيمتها الإسمية وتمكن الملك من الحصول على أعلى قيمة ممكنة لنقوده الذهبية . وكان التجار كذلك يجدون هذا التعديل فى مصلحتهم ، ولهذا السبب كانوا حريصين أشد الحرص على تطبيق الأمر الملكى ، فلا عجب إنه لم يعثر فى مصر على نقود أجنبية بعد عصر فيلادلفوس[٢] . ويتبين من عبارة ديمتريوس التى تقول : « وإنى لأرى من الخير أن يأتى من الخارج أكبر قدر ممكن من الذهب ... » أن الإدارة الملكية كانت ترى فى شراء الأجانب المنتجات المصرية إحدى وسائل تدفق الذهب على البلاد ، ولذلك لم تأل جهداً فى العمل على النهوض بالمنتجات المصرية التى يشتريها الأجانب .

وإلى جانب ذلك يرينا ديمتريوس كيف كانت تتلاقى مصالح الملك والتجار الأجانب ، فقد كان هؤلاء يتذمرون من بقاء ذهبهم معطلا ، لأنهم كانوا يقدرون الأرباح التى يستفيدونها من وراء بيع المنتجات المصرية . ويرينا ذلك أنه على الرغم من الضرائب التى كان الملك يفرضها ، فإن أسعار المنتجات كانت تبقى بعد ذلك أقل من أسعارها فى عالم البحر الأبيض . ومن أجل الاحتفاظ بهذه الحالة التى تجتذب الذهب الأجنبى ، كان يتحتم على الملك أن يتخذ كافة الوسائل السياسية والاقتصادية لجعل تكاليف الإنتاج أقل ما يمكن مع الحصول فى نفس الوقت على أكبر قدر ممكن من الضرائب على المنتجات المصرية . ولذلك كان يتمين عدم رفع أجور المنتجين فى داخل البلاد ، وتبعاً لذلك عدم

(1) Cf. Heichelheim, Wirtschaftliche Schwankungen, p. 12.

(2) Préaux, p. 274; Noe, A. Bibliography ofGreek Coin Hoards, indices.

رفع مستوى معيشتهم . وبما أن حاجات الفلاح المصرى والصانع المصرى قليلة ، فإن ذلك كان يسهل تحقيق هذه المرامى . وهكذا نجد أن مصالح فيلادلفوس والتجار الأجانب كانت تتطلب بقاء الحالة الاجتماعية للمنتج المصرى وضيعة ، غير أن انحطاط مستوى الحياة بين السواد الأعظم من سكان مصر كان سلاحاً ذا حدين لأن ذلك الانحطاط جعل قوة الشراء فى الأسواق الداخلية قليلة ، فإذا أدت الظروف إلى اختفاء العميل الأجنبى ، فإن الأسواق الداخلية كانت تعجز عن إمداد الخزانة الملكية بالمال اللازم . ويرينا إذن خطاب ديمتريوس حجر الزاوية فى البناء الاقتصادى الذى شيده البطالمة الأوائل ، كما يرينا كذلك موضع الضعف فى هذا البناء .

وعندما أخذت حالة مصر الاقتصادية تسوء منذ أواخر عهد بطلميوس الثالث وترتب على ذلك نقص مقادير الفضة التى كانت مصر تحصل عليها من الخارج ، كان طبيعيا أن يفضى كل ذلك فى أواخر القرن الثالث إلى تضاعف قيمة العملة الفضية[١] . ويستوقف النظر أمران : وأحـــدهما أن سعر أردب

---

(١) يعتقد هايشلهايم (Heichelheim, Wirtsch. Schwaukuvgen, pp, 24- 5) أن مصر أصدرت فى عامى ٢٢٥ و٢٢١ عملة فضية غير نقية ، ويفسر ماجاء فى إحدى وثائق بطلميوس الرابع (U. P. Z., 149, l. 32) بأن الناس كانوا يدفعون عندئذ ١٧ دراخمة من الفضة الرديئة لقاء أربع دراخمات من الفضة الجيدة ، ومعنى ذلك أن العملة الفضية الجديدة كانت تحتوى ربع ماف العملة القديمة من الفضة أما سجريه (Segré, Ptol. Copper Inflation, in A. J. Philolog, 63, 1942, p. 178.) وميلن (Milne, The Currency of Egypt under Ptols., J. E. A., 24, 1938, p. 204.) فيعتقدان أن مبلغ الست عشرة دراخمة الذى ورد ذكره فى الوثيقة المشار إليها عبارة عن دراخمات برونزية وليست دراخمات فضية . ويرى ميلن أن هذه الوثيقة تدل على أنه فى أواخر القرن الثالث ازدادت قيمة العملة الفضية إلى حـــد أن أربع دراخمات فضية أصبحت تساوى ١٦ دراخمة برونزية ، بينما يرى سجريه أن هذه الوثيقة كتبت بعد رفع القيمة الإسمية للعملة البرونزية إلى أربعة أمثالها .

وإذا كان البعض يأخذ برأى هايشلهايم القائل بإصدار عملة فضية رديئة فى عهد بطلميوس الرابع (Préaux. p 277.) فان أكثر الباحثين لا يرون له مبررا لأنه يستند إلى النتائج التى استخلصها صاحبه من الوثائق البردية وهذه النتائج غير مقنعة ، كما يستند إلى أدلة النوميات مع أنه لم يعثر بينها على أمثلة من ذلك الوقت تحتوى على ذلك القـــدر الضئيل من الفضة
Rostovtzeff, S. E , Cb. V,note 131; Reekmans, The Ptolem. Copper Inflation, in Studia Hellenistica, 7, 1951, p. 65.

القمح بلغ ½٧ دراخمة برونزية فى النصف الأول من عهد بطلميوس الرابع[١] ، بعد أن كان متوسط سعر إردب القمح فى الماضى دراخمة ونصف دراخمة[٢] . والأمر الآخر أن عقود إيجار الأراضى التى كانت تزرع حبوبا فى ذلك العهد تفرض دفع ١٠ دراخمات عن كل إردب من القمح يعجز المستأجر عن أدائه حتى الموعد المضروب لسداد الإيجار[٣] ، على حين أن هذه الغرامة فى الماضى كانت لا تتجاوز ٤ دراخمات[٤] ، علما بأن القاعدة العامة التى تنظم سداد الديون كانت تقضى بأن المدين الذى يعجز عن الوفاء بدينـه يُطالب بدفع الدين الأصلى مضافاً إليه ٥٠٪ منه[٥] .

ولا ريب فى أن عهد بطلميوس الرابع قد شهد تدهوراً فى الزراعة لم تر مصر له مثيلا من قبل ، نتيجة لنقص اليـــد العاملة بسبب الحرب السورية الرابعة وما أعقبها من ثورات قومية ، وكذلك نتيجة لسوء الإدارة الداخلية[٦] . ولا ريب أيضا فى أنه كان طبيعياً أن يؤدى ذلك التدهور إلى ارتفاع أسعار الحبوب الغذائية عما كانت عليه من قبل ، وإلى استمرار هذا الغلاء عدة سنين . ومع ذلك فإنه يصعب أن نعزو إلى سوء الحالة الاقتصادية وحده ارتفاع السعر إلى خمسة أمثال ما كان عليه فى العهود السابقة ، ولاسيما أنه مهما بلغت الحالة الاقتصادية من السوء فى عصر بطلميوس الرابع فإنها لم تكن أسوأ مما كانت عليه فى بداية القرن الأول قبل الميلاد فى أعقاب فترة طويلة من الفوضى والاضطرابات الداخلية ،

---

(1) U. P. Z. 149, l. 24.

(2) P. C. - Zeno 59499, l. 5; 59698, l 5; P. Petrie III, 47 (a) l. 3 (½١ دراخمة) ; P. C. Z. 59499, l. 7; P. Col. Z. 54. l. 16 (١٫٣٣ دراخمة) .

(3) B. G. U. 1262 (216/5 B. C) l. 13; 1264 (215/4 B. C.) ll. 22/3; 1265 (214/3 B. C.) l. 20; P Frakf. 1 (214/3) l. 23.

(4) P. Loeb. 3, l. 18 (306/5 B. C.); P. Hib. 84 a ll. 8/9 (301/0 B. C.); P. Hib. 65, l. 24. (265 B. C.); B G. U. 1226, l. 18 (260/59 B, C.); P.Hib, 90, l. 15 (221 B. C.),

(5) Cf. P, Grenf. I, 20; II, 18 (127 B, C.).

(6) Polyb. V, 34, 3 — 4.

فقد بلغ سعر القمح عندئذ أقصى ارتفاعه وكان يباع بما يقابل أربع دراخمات[١] .
فلابد إذن من تفسير ما حدث بعاملين : وأحدها سوء الحالة الاقتصادية ، والآخر
رفع القيمة الإسمية للعملة البرونزية إلى الضعف ، أى أن السعر الحقيقى للأردب
كان ٣⅓ دراخمة أى مرتين ونصف مرة ماكان عليه السعر قبل عام ٢٢١ ، لكن
مضاعفة القيمة الإسمية للعملة البرونزية قفز به إلى ٧⅔ دراخمة . ولذلك يبين أنه بين
عامى ٢٢١ و٢١٦ ق . م . أى حين كانت مصر تبذل أقصى جهدها فى الاستعداد
للحرب السورية الرابعة ، رفع بطلميوس الرابع القيمة الإسمية للعملة البرونزية إلى
الضعف لينقص تكاليفه الفعلية فيما كان قد تعاقد عليه بالعملة البرونزية قبل إجراء
هذا التغيير النقدى ، مثل أجرة فئات مختلفة من المشتغلين فى خدمة الإدارة والجيش
والمصانع الحكومية . ولم يتأثر بهذا الإجراء المالى إلا الطبقات الدنيا من مستخدمى
الحكومة ، لأن هذا الإجراء لم يمس إلا العملة البرونزية التى كانت تصرف لهم
مرتباتهم وأجورهم بمقتضاها ، على حين أن كبار الموظفين كانوا يأخذون مرتباتهم
بالعملة الفضية[٢] .

ولم تكن هذه أول مرة يلجأ فيها حاكم إحدى الدول إلى رفع القيمة الإسمية
للعملة للوفاء بالتزاماته ، فقد جاء فى كتاب « علم الاقتصاد » الذى يعزى إلى أرسطو
أن ديونيسيوس طاغية سيراكوز « اقترض من الشعب أموالا وعد بردها إليهم ،
وعندما طالبوه بالوفاء بوعده أمرهم بإحضار كل مالديهم من فضة وإلا فجزاؤهم
الموت . وعندما أحضروا له الفضة سك منها دراخمات وجعل القيمة الإسمية
لكل دراخمة دراخمتين وبهذه الدراخمات سدد دينه السابق[٣] » . ومعنى هذا أن
ديونيسيوس استولى على الفضة ثم أعاد إصدارها بقيمة جديدة درت عليه ربحاً
١٠٠ ٪ ، لكنه لايوجد دليل على أنه قد صحب رفع قيمة العملة البرونزية

(1) Cf. P. Tebt. 120 l. 44.
(2) Reekmans, pp. 61 — 69
(3) Pseud — Arist , Oecon II, 2, 20.

فى مصر سحب العملة القديمة وإعادة إصدارها بعد وضع علامة عليها تبين قيمتها الإسمية الجديدة .

وترينا الوثائق البردية التى ترجع إلى النصف الثانى من عهد بطلميوس الرابع والجانب الأكبر من عهـــد بطلميوس الخامس (٢١١ — ١٨٧ ق . م .) وهى فترة يمكن وصفها بفترة الانتقال من القرن الثالث إلى القرن الثانى ، ترينا أن الأجور اليومية — التى كان أرباب الأعمال يدفعونها لمن فى خدمتهم — كانت تدفع بالعملة البرونزية وتتراوح بين ٥ دراخمات و ٢٠ دراخمة[١] . وحيث أن الأجور عند منتصف القرن الثالث كانت تتراوح بين $\frac{1}{2}$ أوبول و٢أوبول أى بين $\frac{1}{12}$ دراخمة و$\frac{1}{3}$ دراخمة ، فإن معنى ذلك أنها بلغت فى فترة الانتقال ستين ضعفاً للأجور المماثلة فى عهد بطلميوس الثانى وبطلميوس الثالث[٢] . وترينا برديتان من أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الثانى[٣] أنه كان يتعين دفع ٣٠٠ دراخمة لجامعى ضريبة الأپوموريا عن كل متريتس من النبيذ لايسلم نوعاً . وهذا التقدير أيضاً

---

(1) P. Tebt. 884 ('211 B. C) l. 61. (خمس دراخمات)

P. Tebt. 885 (200 B. C.) l.2 9; B. G. U. 1512 (210 — 5 or 193 — 187 B. C.) l. 11;

BG U. 1518 (210 — 5 or 193 — 187 B. C.) l. 15 (عشر دراخمات)

B G U. 1507 (206/5 or 189/8 B. C.) l. 13; B G U 1538 (210/5 or 193—187 B. C.) l. 4; B G U 1541 (210/5or 193/187 B C.) l. 2(خمس عشرة دراخمة)

O. Mich. I (209/8 B. C.) l. 7; P. Tebt. 1080 (Late 3 rd Cent. B. C.); BGU. ll, 2, 8, 10, 19 (2 nd Cent.) (عشرون دراخمة)

(٢) راجع : P—C—Zen. 59176, l. 119; PSI, 332, l. 24; (نصف أوبل) ، P. C — Zen. (أوبل واحد) P. S. I 332, l. 10; P. C — Zen. 59176, ll, 220, 314; P. C — Zen. 59788, ll. 2, 26 (أوبولان) ; 59701, l. 2; P. S. I. 332, l. 20 (أوبل ونصف أوبل) ll. 4, 7, P. S. I, 672

أما الأجور فى النصف الأول من عهد بطلميوس الرابع أى بين عام ٢٢١ و٢١١ فليست لدينا معلومات عنها

(3) P. Tebt. 1062, l .2; B G U. 1562, l. 2.

يعادل ٦٠ مرة التقدير الذى نصت عليه وثيقة الدخل فى عهد بطلميوس الثانى [١]. أما سعر أردب القمح فإنه كان يتراوح بين ١٢٠ و ١٨٠ دراخمة[٢] ، أى أنه كان يتراوح بين ٨٠و١٢٠ ضعفاً لما كان عليه قبل عصر بطلميوس الرابع . ومعنى ذلك أن الأجور وأن ارتفعت بنفس المعدل الذى ارتفعت به الأموال الأميرية فإن ارتفاع الأجور لم يتناسب إطلاقاً مع ارتفاع أسعار الحاجيات .

ولا يمكن أن يكون مرد الفارق الشاسع بين الأجور والأسعار فى هذه الفترة وفى الفترة التى سبقتها إلى أثر العوامل الاقتصادية ، ولايمكن أن نتصور أن تكون القيمة الأسمية للعملة البرونزية قد رفعت حتى أصبحت على الأقل ٦٠ مرة مثل ما كانت عليها قبل عام ٢٢١ ق . م . لابد إذن من أن يكون السبب هو أن مصر اتخذت منذ عام ٢١١ ق. م. البرونز قاعدة أساسية للنقد . ويمكن استخلاص وزن الدراخمة البرونزية بعد استحداث هذا التغيير من أنها كانت تساوى $\frac{١}{٦٠}$ من الداخمة البرونزية حين كانت الفضة هى قاعدة النقد وقبل رفع قيمتها الاسمية (أى أنها كانت تساوى $\frac{١}{٣٠}$ من تلك الدراخمة بعد هذا الرفع) ، ومن أنه فى عهد بطلميوس الثانى كانت العملة التى تمثل دراخمة برونزية تعادل نظريا وزن ٣٠ دراخمة فينيقية (= ١١٠ جرام تقريبا[٣]) ، ومن ثم فلا بد من أنه فى الفترة الممتدة من عام ٢١١ حتى عام ١٨٧ ق . م . كان وزن الدراخمة البرونزية[٤]

---

(١) نصت وثيقة الدخل (P. Rev. Laws,Col. 30, l.20. — Col. 31, l. 6) على تحويل ضريبة الاپومويرا الى ضريبة نقدية بمعدل ٦ دراخمات برونزية عن المتريتس الواحد فيما عدا منطقة طيبة حيث يكون المعدل خمس دراخمات .

(2) P. Tebt. 916, l. 5 (184 ? B. C.) (١٢٠ دراخمة); P. Petrie II, 32, (1) l. 26 (198 — 197 B. C.) (١٥٠ دراخمة); B. G. U. 1523 l. 13 (210/5 or 193/187 B. C.); 1505, l. 3 (208/7 or 190/189 B. C.) (١٨٠ دراخمة)

(3) Milne, p. 34.

(٤) يعتقد ميلن (in Liverpool Annals I, 1908, pp. 34 — 5.) أن بطلميوس الثالث عدل عن النسبة بين الفضة والبرونز التى كان معمولا بها فى نقود فيلادلفوس وأصدر عمله =

البطلمية مثـــل نصف وزن الدراخمة الفينيقية[1] (أى $\frac{١١٠}{٦٠}$ جرامـاً تقريبا) . ويجب أن يلاحظ أنه إذا كان اتخاذ البرونز قاعدة أساسية للنقد البطلمى قد أدى إلى ازدياد تداول العملة البرونزية مع ما يقابل ذلك من نقص تداول العملة الفضية ، فإنه لم يؤد إلى القضاء كلية على قاعدة الفضة[2] .

ويعزى اتخاذ البرونز قاعدة أساسية للنقد البطلمى إلى أن الحرب السورية الرابعة استنفدت احتياطى مصر من الفضة فى وقت تعذر عليها فيه تكوين احتياطى جديد بل سد حاجتها من هذا المعدن . فقد كانت تجارة مصر الخارجية المصدر الرئيسى لما تحصل عليه من الفضة ، وفى الشطر الثانى من عهد بطلميوس الرابع تأثرت هذه التجارة إلى حد كبير بعاملين : وأحداهما اندلاع لهيب الثورات القومية فى مصر ، والعامل الآخر دخول الحرب البونية الثانية فى دورها الحاسم .

وعندما فقدت مصر أغلب ممتلكاتها الخارجية فى عهد بطلميوس الخامس وحرمت تبعا لذلك الفضة التى كانت تلك الممتلكات تدرها عليها من الضرائب واستغلال المناجم فيها والتجارة معها ، ازداد نقص ما كانت مصر تحصل عليه من الفضة ، فتأثرت نتيجة لذلك عملة البطالمة الفضية ، حتى أنه منذ بداية القرن الثانى قبل الميلاد غدا من المتعذر الاحتفاظ بنقائها بوجه عام . ويمكن أن نميز الفئات التالية بين العملة الفضية المتداولة فى بداية القرن الثانى :

أولا : فئة صغيرة من القطع ذات الأربع دراخمات التى صنعت فى عهود سابقة من فضة نقية .

= برونزية أقل وزنا مما كانت عليه فى المـــاضى ، وأن خلفاءه استمروا فى انقاص وزن العملة البرونزية إلى أن أعادت كليوبترة السابعة النسبة التى كانت متبعة فى عهد فيلادلفوس . لـكن مقارنة أوزان عدة أمثلة من العملة البرونزية التى سكها خلفاء فيلادلفوس تنقض هذا الرأى وتدل على أن نسبة فيلادلفوس بقى محتفظا بهـا حتى عهد بطلميوس ايوارجتيس الثانى (Reekmans, p. 72 fn. 4, p. 105 fn, 2.

(1) Reekmans, pp. 69 — 73.

(2) Grefnoll, p. 215.

ثانياً : فئة القطع المعاصرة الشائعة وفضتها أقل نقاء من فضة العملة التي كانت تسك في الماضي .

ثالثاً : فئة صغيرة من القطع المعاصرة تمتاز بأن فضتها أكثر نقاء من فضة الفئة السابقة .

رابعاً : فئة صغيرة من القطع سكت بعد عام ٢٠٠ ق . م . ونسبة ما فيها من فضة منخفضة انخفاضاً شديداً .

وبطبيعة الحال كانت أسعار قطع الفئات المختلفة تتوقف على زيادة أو نقص ما فيها من فضة بالقياس إلى قطع الفئة الثانية التي وصفناها بالقطع المعاصرة الشائعة [١] .

ولما كانت حال البلاد الاقتصادية قد أخذت تسير من سيء إلى أسوأ ونقصت تبعاً لذلك موارد البطالمة بينما لم تنقص التزاماتهم ، فانهم لتخفيف هذه الالتزامات على حساب سكان البلاد لجئوا من جديد إلى زيادة القيمة الاسمية للعملة البرونزية . وقد فعلوا ذلك ثلاث مرات منذ حوالى عام ١٨٢ ق . م . حتى آخر عهدهم بحكم مصر . وبيان ذلك أن عدداً من الوثائق من آخر حكم بطلميوس الخامس ، وعلى وجه التحديد من عامى ١٨٢ و ١٨١ ق . م . ، يرينا أن الأجور التي دفعها أرباب الأعمال كانت تتراوح بين ١٠ دراخمات و ٣٠ دراخمة [٢] ، أي أنها كانت ضعف الأجور المماثلة في فترة الانتقال ، ومعنى ذلك أنها كانت ١٢٠ مرة كالاجور المماثلة في عهد بطلميوس الثاني والثالث . وتتحدث وثيقة من عام ١٧٣ ق . م . [٣] عن ضرورة دفع ٥٠٠ دراخمة

---

(1) Reekmans, pp. 75 — 70.

(2) P. Mich. 200 (181 B. C.) verso III, l. 10 (١٠ دراخمات) ; verso II, l. 1 (٢٠ دراخمة) ; verso 1, ll. 2 — 6 (٢٥ دراخمة) ; verso 1. ll, 9 - - 12 (٣٠ دراخمة) ; P. Tebt. 886 (C. 182 B. C.) l. 140 (١٥ دراخمة) : ll. 40, 62, 99 (٢٠ دراخمة) ; l. 24 (٣٠ دراخمة) .

(3) P. Amherst II, 43, l. 12.

برونزية فى مقابل كل أردب من القمح لا يسدد فى الموعد المضروب . وهذا السعر يكاد أن يكون ضعف مبلغ ٢٤٠ دراخمة الذى كان فى فترة الانتقال يعتبر معادلا لمبلغ الأربع دراخمات الذى كان مقدار هذه الغرامة فى الأصل . أى أن الغرامة أصبحت ١٢٠ مرة مثل ما كانت عليه حتى أواخر القرن الثالث . لكن لسوء الحظ ليست لدينا معلومات عن مستوى أسعار الحبوب فى هذه الفترة[١] .

ولا بد من أن ارتفاع الأجور إلى هذا الحد كان نتيجة للضائقة الاقتصادية التى استحكمت حلقاتها بعد أن فقدت مصر ممتلكاتها الخارجية وتأجج إوار الثورة فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، فتعطلت مرافقها الاقتصادية مما اضطر الحكومة مرة أخرى إلى رفع القيمة الإسمية للدراخمة ، فأصبح وزنها ربع وزن الدراخمة الفينيقية بعد أن كان قد هبط إلى النصف فى الفترة السابقة[٢] .

وتشير الوثائق التى من منتصف القرن الثانى قبل الميلاد إلى أن الأجور قد أصبحت تتراوح بين ٢٠ و ٨٠ دراخمة[٣] ، أى أنها بلغت ضعف ما كانت عليه فى الفترة السابقة أو أربعة أمثال ما كانت عليه فى فترة الانتقال أو ٢٤٠ مرة ما كانت عليه فى عهد بطلميوس الثانى والثالث . وتحدثنا وثيقة بردية من عام ١٣٦ ق . م .[٤] بانه كان يتعين دفع ١٥٠٠ دراخمة برونزية لجامعى ضريبة

(١) ويرى ريكمانس (.ص.ص ٨٢ — ٨٣) أنه حوالى عام ١٨٠ ق. م. كانت القطعة الفضية الشائعة ذات الأربع دراخمات (ستاتر) تساوى ٤٨٠ دراخمة برونزية ، أما الستاتر المصنوع من الفضة النقية فكان يساوى حوالى ضعف ذلك أى حوالى ٩٦٠ دراخمة . لكن روستوفتزف (ص٧١٩) يستخلص من بردية (P. Mich. 182, I, 49) ترجع إلى عام ١٨٢ أن الستاتر المصنوع من الفضة النقية كان يساوى ١٧٢٨ دراخمة برونزية ، بينما يمكن تفسير وثيقة بردية أخرى (P. Iand. 146, IX, I. 15) من حوالى هذا الوقت على أن السعر كان ١٥٤٠ دراخمة برونزية .

(2) Reekmans, pp. 81 — 5.

(3) BGU. I.1258, 6(153 or 143 B. C.) (٢٠دراخمة) ; UPZ. 99 (158 B. C.) l.5 (٤٥ دراخمة) ; P. Tebt. 893,1-6(٨٠دراخمة).

(4) P. Tebt. 766.

الايومويرا لقاء كل مترتيس لايسلم نوعا . وهذا المبلغ يعادل تقريبا الست دراخمات التي كانت وثيقة الدخل تفرضها في عهد بطلميوس الثاني والثالث في كل أنحاء مصر فيما عدا منطقة طيبة حيث كان المعدل خمس دراخمات فقط . وفضلا عن ذلك فقد جاء في وثيقة من عهد بطلميوس السادس[١] أن سعر مترتيس الزيت كان ٨٦٤٠ دراخمة وهو سعر يعادل تماماً أربعة أمثال السعر (٢١٦٠) الذي ورد في وثيقة من بداية القرن الثاني[٢] . ويتبين من وثائق مختلفة أن سعر أردب القمح في هذه الفترة كان يتراوح بين ٥٠٠ دراخمة و٩٠٠ دراخمة[٣] أي أنه كان يتراوح بين ٣٧٥و٦٠٠ ضعفاً لما كان عليه قبل عصر بطلميوس الرابع .

ويعزى هذا الارتفاع في الأجور والأسعار إلى التجاء الحكومة من جديد إلى رفع القيمة الإسمية للدراخمة البرونزية حوالى عام ١٧٠ ق . م . فاصبح وزنها ١/٦٠ وزن الدراخمة الفينيقية[٤] بعد أن كان قد هبط في الفترة السابقة إلى النصف . ومرد هذا التعديل الجديد إلى الآثار السيئة المترتبة على الحرب السورية السادسة ، ولاسيما على ما أنزله جنود أنطيوخوس الرابع من الدمار بمرافق البلاد ، وكذلك على الآثار الناجمة عن النزاع الأسرى الذي احتدم طويلا بين بطلميوس السادس وأخيه الصغير ، وضاعف من نتائجه السيئة الثورة التي قام بها ديونيسيوس يتوسيرابيس ورجعت البلاد أصداءها ، مما اضطر بطلميوس السادس إلى رفع القيمة الإسمية للعملة البرونزية تخفيفا لالتزاماته . ولم تقنع الحكومة بهذه المغانم فقد كانت تمضى في جشعها إلى حد أنها كانت تستبدل جانبا من مرتب الجنود من القمح وتدفع لهم بدلا من ذلك نقوداً على أساس سعر يقل كثيراً عن سعر السوق ، إذ تحدثنا

(1) P. Tebt. 891, l. 15.
(2) P. Tebt. 997, l 8.
(3) P. Tebt. 910 (162 B C.) l. 3 (٥٠٠ دراخمة)
U P Z. 91, l. 7 = 92 III, l. 8 (٦٢٥ دراخمة)
U P Z. 91, l. 9, 92 = III, l. 10 (٨٠٠ دراخمة)
U P Z. 91, l. 10 (٨٠٠ دراخمة) ;U P Z. 69, l. 8 (159 B. C.)(٩٠٠ دراخمة)
(4) Reekmans, pp. 85 — 94.

وثيقة عام من ١٥٧ ق. م. بأن شخصاً يدعى ابولونيوس التحق بالجيش بمرتب شهرى قدره ١٥٠ دراخمة من البرونز وثلاثة أرادب من القمح ، لكن أعطى قيمة أردبين منها نقداً بمعدل ١٠٠ دراخمة للاردب [١]، حين كان سعر السوق يتراوح بين ٥٠٠ و ٩٠٠ دراخمة على نحو مارأينا .

وتشير القرائن إلى أنه فى خلال القرن الأخير من حكم البطالمة تضاعفت من جديد الأسعار والأجور عما كانت عليه فى منتصف القرن الثانى ، أى أنها غدت ٤٨٠ مرة مثل ما كانت عليه فى عهد بطلميوس الثانى والثالث . فقد نص فى كثير من عقود [٢] هذه الفترة على ضرورة دفع ٢٠٠٠ دراخمة برونزية عن كل اردب من القمح لايرد أو يسلم فى الموعد المضروب . وجلى أن هذا المبلغ أربعة أمثال مبلغ ٥٠٠ دراخمة الذى أشرنا إلى أنه كان يتعين دفعه فى عام ١٧٣ وثمانية أمثال تقريبا لمبلغ ٢٤٠ دراخمة فى فترة الانتقال وخمسمائة مرة لمبلغ الأربع دراخمات الذى كان يدفع فى مثل هذه الحالة فى عهد بطلميوس الثانى والثالث .

ويبين من الوثائق أن سعر أردب القمح فى السوق كان يتراوح بين ٨٠٠ و ٢٠٠٠ دراخمة برونزية [٣] وهو تقريبا ضعف السعر فى الفترة السابقة . وقد ورد فى ثلاث وثائق [٤] أن سعر متريتس الزيت ١٧٢٨٠ دراخمة وهو يعادل تماما ضعف ما كان عليه فى الفترة السابقة وكان ٨٦٤٠ دراخمة [٥] . وتدل الوثائق على

---

(1) U. P. Z. 14.

(2) P. Loeb 55 (128 — 7 B. G.) l. 13; P. Tebt. 11 (119 B. C.) l. 7; P. Louvre 2436 b (106 B. C.).

(3) P. S. I. 968, l. 3 (80 or 58 B. C.) (٨٠٠ دراخمة); P. Tebt. 208 (94 or 61 B. C.) (٨٤٠ دراخمة); P. Tebt. 116, l. 2 (١٠٠٠ دراخمة); l. 32 (١١٠٠ دراخمة); P. Grenf. I. 22 (118 B. C.) l. 11; P. Tebt. 112, l. 113; B. C. U. 995 IV, l. 5 (١٢٠٠ دراخمة); P. Tebt. 112, l. 57; 117, ll. 10 — 11; 189 (94 or 61 B. C.) (١٥٠٠ دراخمة); P. Tebt. 120 (97 or 64 B. C.) l. 72 (١٨٠٠ دراخمة); P. Tebt. 109 (93 B. C.) l. 15 (٢٠٠٠ دراخمة).

(4) P. Tebt. 212 (114 B. C.); P. Tebt. 121 (94 or 61 B. C.); P. Tebt. 189 (القرن الأول ق. م.).

(5) P. Tebt. 891, l. 15 (عصر بطلميوس السادس); P. Tebt. 887, ll. 4,6, 17, 35, 100, 104, 106.

أن الأجور كذلك بلغت ضعف ما كانت عليه فى الفترة السابقة ، فقد أصبحت تتراوح بين ٥٠ و ١٢٠ دراخمة برونزية [١] .

ومرد هذا الإرتفاع فى الأسعار والأجور إلى التجاء الحكومة مرة رابعة إلى رفع القيمة الإسميــــية للدراخمة البرونزية فأصبح وزنها ١/٦٠ من وزن الدراخمة الفينيقية بعد أن كان ١/٨ وزنها فى الفترة السابقة . وليس من العسير تفسير هذا التغيير الجديد الذى يبدو أن بطلميوس الثامن ايوارجتيس الثانى هو الذى استحدثه لمواجهة التزاماته التى ازدادت بينما تناقصت موارده من جراء الاضطرابات العنيفة التى وقعت فى عهده والمنح المتعددة التى حاول جاهدا استخدامها فى تهدئة الحالة .

ولما كانت الوثائق تدل على أنه فى عام ١٣٠ ق. م. كان سعر أردب القمح يقدر بدراخمات من البرونز وزنها ١/٨ وزن الدراخمة الفينيقية [٢] ، على حين أنه فى عام ١٢٨ / ١٢٧ كان الســـعر يقدر بدراخمات وزنها ١/٦٠ من وزن الدراخمة الفينيقية [٣] ، فلا بد من أن يكون ايوارجتيس الثانى قد استحدث التعديل الجديد فى أعقاب نجاحه فى استرداد عرشه فى عام ١٢٩ ق. م. [٤]

وقبل أن نختتم موضوع النقد يجب أن نجيب عن سؤال هام ، وهو إلى أى حد أمــكن البطالمــة أن يستبدلوا نظام النقد بنظام التبادل . إن كل مظاهر الحياة العامة والخاصة تشير إلى إنتشار تداول النقود باطراد فى مصر ، لــكن ليس معنى هذا أن مصر استطاعت فى خلال القرون الثلاثة التى قامت فيها دولة البطالمة أن تحرز كل التقدم الذى أحرزته عليها بلاد الإغريق فى هذه الناحية . فقد كان لنظام التبادل أهمية خاصة فى مصر على الدوام بسبب التقاليد القديمة التى سادت فى البلاد

---

(1) P. Tebt. 121 (64 or 61 B. C.) (٥٠ دراخمة) ;P. Tebt. 108 (93 or 60 B. C.) (٦٠ دراخمة) ;P. Tebt. 145 (113 — 111 B. C.) (٨٠ دراخمة) ; O. Tait II 13, l. 1, (٩٠ دراخمة) ,l. 4 (١١٠ دراخمة) ; O. Wilcken 1207, l. 2 (١٠٠ دراخمة) ;P. Tebt. 252 (95/4 B. C.) (١٢٠ دراخمة) .

(2) Actenstücke 6, l. 9.

(3) P. Loeb 55, l. 15.

(4) Cf. Reekmans, p. 104.

أمداً طويلا ، ولذلك نجد فى كل قرية تقريباً جنباً إلى جنب : المصرف العام حيث تتدفق النقود ، وكذلك المخزن العام حيث تتجمع المحصولات . وكانت تتم نفس العمليات فى المصرف وفى المخزن ، فالأول يتسلم الضرائب النقدية والودائع ويقدم النقود للموظفين والتجار ، بينما كان الثانى يأخذ الضرائب النوعية ويقدم للمزارعين مايحتاجونه من البذور ، وللموظفين والعمال نصيبهم من الحبوب . ولاشك فى أن تطور مصر الإقتصادى يظهر فى نقص مهام المخزن العام وإزدياد أعمال المصرف العام .

ويرجع إنشاء المخزن العام إلى أن الدولة لم تشأ أن تترك المزارع تحت رحمة التاجر أو المرابى من أجل الحصول على النقود ، ولذلك كانت تقبل منه دفع الضريبة العقارية نوعاً فى حالة المحصولات التى يسهل حفظها أو التى تحتاج الدولة إليها مثل الحبوب الغذائية والحبوب الزيتية ، لأنها كانت تمطى الجنود والموظفين جانباً من مرتباتهم قمحاً وشعيراً ثم تبيع مايفيض على الحاجة . وكانت النباتات الزيتية تستخدم فى المصانع الملكية لاستخراج الزيت . أما سائر الضرائب الأخرى مثل ضرائب الكروم والنخيل والزيتون ، فإنها كانت تدفع نقداً . وقد كانت توجد نسب معينة بين المحصولات المختلفة ، مثل ما كانت توجد نسب معينة بين النقود التى من معادن مختلفة . وإذا كنا نعرف أن القمح كان معادلا للعدس ، فإن النسبة بين القمح والشعير كانت ٥ : ٣ ، وبين القمح والذرة ٥ : ٢ .

ولقد عملت الدولة على نشر تداول النقود بنقص مصروفاتها النوعية ، فإن مرتبات الموظفين والجنود كانت أحيانا نوعية وأحياناً نوعية ونقدية ، ولذلك زادت مقدار ما كانت تدفعه نقداً ومن ثم نقص بطبيعة الحال ما كانت تدفعه عيناً . وخير مثل لهذا التطور فى الحياة الإقتصادية ماطرأ من التطور على مرتبات الجنود ، فى القرن الثالث كان أجر الجندى ١٥٠ دراخمة من البرونز وثلاثة أرادب (١١٨ لتراً) من القمح . أما فى القرن الثانى فإن الجندى كان لايعطى نوعاً سوى أردب واحد ويعطى ثمن الأردبين الآخرين . وقد مر بنا كيف أن هذا الثمن كان بخساً ويقل كثيرا عن سعر السوق ، فكانت نكبة الجنود نكبتين تتمثل إحداها فى هذا الجور

السافر، والأخرى فى بقاء أجورهم حيث كانت منذ قرن برغم ارتفاع أسعار تكاليف الحياة ارتفاعاً خيالياً . وفضلا عن ذلك فإن الجندى الذى يحق له الحصول على قدر من النبيذ كان يعطى تعويضا مالياً عنـــه ، وكذلك الفارس الذى له الحق فى عليق لحصانه .

وقد نقص باطراد القدر النوعى فى أجور العمال كما نقص فى مرتبات الجنود ، إذ نجد مثلا فريقاً من الحمالين يأخذون أجراً لهم غذاءهم اليومى من الخبز وبعض النبيذ والزيت ، وقليلا من لحم الخنزير أيام الأعياد ، وذلك إلى جانب غذاء دوابهم . لـكننا نجد بعد ذلك فريقا آخر من الحمالين يتقاضون أردبا من القمح وقدراً صغيراً من الزيت و١٢ دراخمة من الفضة ، فـكانت نسبة النقود فى أجرهم توازى ٨٣٪ من مجموع ما يستحقونه . ولم يلبث الـكهنة أن اتبعوا الطريقة الحديثة إذ ذاك فى دفع الأجور للعمال الذين يشتغلون فى مصانع المعابد لنسج الـكتان الدقيق ، بدل تلك الطريقة التى ألفوها منذ القدم والتى كان قوامها أن يترك للعمال جانب مما ينتجونه . وجملة القول أن العنصر النوعى من أجور العمال أخذ يختفى حتى أصبح الـكل فى حاجة إلى استخدام النقود ، لـكننا لانستبعد أن يكون نظام الاقتصاد الطبيعى قد بقى إلى حد كبير بين القرويين ولاسيما فى حياتهم الخاصة . فإن الوثائق تحدثنا على الدوام عن قروض من الحبوب أو النبيذ ، غير أنه إذا عجز المدين عن الوفاء بدينه فإن الدين النوعى كان يصبح ديناً نقديا بحسب سعر تلك السلعة المقترضة فى السوق .

وقد كان هذا الشرط الجزئى فى صالح الدائن أول الأمر لـكن سرعان ما أصبح فى صالح المدين أيضاً ، إذ تقرر أن الفوائد المركبة على الديون المــالية يجب ألا تزيد على ضعف رأس المال[1] . ولعل ذلك كان حافزاً على استخدام النقود فى التعامل بدلا من نظام التبادل .

(1) Glotz, op. cit., pp. 393 — 395.

مظاهر التقاء الحضارتين المصرية والإغريقية في عهد البطالمة

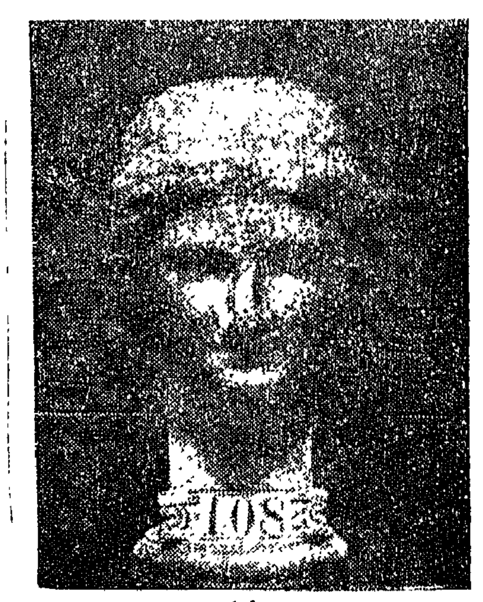
يرجع أول عهد مصر باستقرار الإغريق فيها إلى ماقبل الفتح المقدونى بحوالى أربعة قرون ، أو بعبارة أخرى إلى أواخر القرن الثامن وبداية القرن السابع قبل الميلاد ، عندما أخذ الكثير من تجارهم يستقرون فى شمال مصر [1] . وإذا كانت مصر قد أفادت عندئذ من نشاط الإغريق التجارى وقوة سواعدهم فى جمع ثروة كبيرة وبناء جيش قوى ، مما حدا بفراعنة العصر الصاوى إلى الترحيب بهم ومولاة النعم عليهم [2] ، فإن الإغريق قد جنوا عندئذ من مصر خير الثمرات ، إذ أنهم لم يجمعوا ثروات طائلة فحسب ، بل أفادوا كثيراً من الحضارة المصرية [3] . حقاً كان العصر الذهبى لحضارة الفراعنة قد ولى وانقضى ، لكن العصر الصاوى كان عصر نهضة رائعة تهدف إلى إحياء تقاليد الماضى المجيد . وفى أثناء تلك النهضة المصرية الزاهرة كانت بلاد الإغريق لاتزال فى مهد الحضارة ، فلا عجب إذن أنه كان للحضارة المصرية أثر مشهود فى صناعات الإغريق وعلومهم وفنونهم ، وآية ذلك أنهم كانوا يحجون إلى مصر لتلقى العلم فيها .

وبين أواخر القرن السادس وأواخر القرن الرابع قبل مولد السيد المسيح كان الفلك قد دار دورة من دوراته العجيبة ، إذ حين عجزت مصر ، وقد هد المشيب قواها ، عن صد عدوان الفرس عليها ، تمكنت بلاد الإغريق فى فتوتها وشبابها من الصمود أمام الفرس . ولذلك فإنه بينما دخلت مصر فى حظيرة الإمبراطورية الفارسية ، وأخذ نجم الحضارة المصرية فى الأفول ، احتفظ الإغريق باستقلالهم ،

(١) راجع موسوعة كمبردج فى التاريخ القديم ، المجلد الثالث ، ص ٢٩١ .
(٢) ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ص ٢ — ٣ .
(٣) انظر Diod. I, 96-8,

وكان لنجاحهم فى صد عدوان الفرس رد فعل عجيب فى نفوسهم قفز بحضارتهم إلى ذروة المجد فى أقصر فترة عرفها التاريخ .

ويوم قسمت إمبراطورية الإسكندر الأكبر بين قواده عام ٣٢٣ ق. م ، وآلت مصر إلى أحد هؤلاء القواد ، وأعنى بطلميوس بن لاجوس ، الذى أقام على ضفاف النيل صرح مملكة حمل سلالته من بعده صولجانها قرابة ثلاثة قرون ، كان لواء الزعامة فى عالم البحر الأبيض المتوسط معقود دون منازعة للحضارة الإغريقية ، فإنه منذ قرنين على الأقل كان العالم المتحضر يدين للمدن الإغريقية بالغالبية العظمى من كل المبتكرات الخصيبة فى حلبة الأفكار والفنون والصناعات[1] .



مثل لطراز الفن الأسكندرى فى بدايته

ويجب فى هذا المقام ألا يغرب عن البال بعض الخصائص المصرية ليسهل فهم أحداث عصر البطالمة فهما صحيحا . ويأتى فى مقدمة هذه الحقائق قوة الحيوية الكامنة فى الأمة المصرية التى أكسبت الحضارة المصرية ما اتسمت به من صفة الاستمرار بشكل ليس له مثيل . حقا لقد تخلل تاريخ مصر عدد من عصور الظلام أو الانحلال ، ومع ذلك فإنه إذا أضيفت هذه العصور بعضها إلى بعض فهى لا يمكن

(1) Jouguet , Hist. Nat. Eg., III, pp. 15 — 16.

أن تتعدى جزءاً يسيراً من ذلك التاريخ الطويل الذى أشرقت فيه الحضارة المصرية . وقد أثبت المصريون فى عهد الدولة الوسطى والدولة الحديثة والعصر الصاوى كفايتهم على النهوض من كبواتهم لبناء حضارة جديدة زاهرة تتصل اتصالا وثيقا بحضارتهم الغابرة .

ولم تفلح القوة إطلاقا فى القضاء على الروح القومى ، فقد حبت الطبيعة المصريين بقدرة عجيبة على الصبر على المكاره ثم انتفاضهم دفعة واحدة ضد غاصبيهم حتى ليزلزلوا الأرض تحت أقدامهم . وقد أثبت المصريون مرارا وتكرارا شدة اعتزازهم بكرامتهم واستمساكهم بتقاليدهم ، وبدلا من أن يفزعهم البطش ويردهم عن معتقداتهم كان يدفعهم إلى التعصب لهذه المعتقدات والاستماتة فى الذود عنها ، ومثل ذلك ثباتهم على معتقداتهم الدينية برغم كل جهود اخناتون ، وعدم الارتداد عن المسيحية مع كل ما أنزله بهم الرومان من صنوف العذاب والإرهاب .

ومما يستوقف النظر أنه قد وفد على مصر قبل المقدونيين غزاة كثيرون ، لكن لم تفلح أى أمة من هذه الأمم فى فرض طابعها الحضارى على المصريين . ومع ذلك أظهر المصريون استعدادهم لتقبل الأفكار الأجنبية حين لم يكن هناك ضغط أو نفوذ أجنبى ، مثل ما حدث مع الحضارة البابلية عندما كانت الدولة الحديثة فى اوج عظمتها .

وكيف يمكن تفسير هذا الروح المحافظ وهذا البغض للتأثيرات الأجنبية ولاسيما فى أثناء الحكم الأجنبى ؟ يجب الا ننسى أن المصريين قد سبقوا كل جيرانهم إلى إقامة حضارة زاهرة وانه لم يكن للتأثيرات الأجنبية أى نصيب فى إنشاء هذه الحضارة ولا تطورها . ولما كانت هذه الحضارة قد حققت كل مطالب المصريين وتقدمت تقدماً مطرداً وانتشرت فى كل مكان واسهمت فى بناء غيرها من الحضارات ، فقد كان طبيعيا أن يميل المصريون إلى المحافظة على حضارتهم وتقاليدهم ، وان يغشاهم شعور عميق بالاستكفاء الذاتى والثقة بالنفس والكبرياء

والسمو على كل المحدثين . وفضلا عن ذلك فإن مصر كانت ، ولاتزال إلى حد كبير ، بلدا زراعيا يحيي مزارعوه حياة لاتختلف كثيراً عن حياة أجدادهم ، وذلك لأن الدعامة الرئيسية لحياتهم الاقتصادية لم تتغير . فهذه الحياة لاتزال تعتمد على فيضان النيل السنوى ، وهذا الفيضان الذى لم يتغير منذ سالف الزمن قد خلع على الزراعة المصرية طابعا لايمحوه مر السنين وتتابع الأيام . ولما كان أساس الحياة الاقتصادية فى مصر لم يتغير على مر العصور ، وكانت حياة الشعب المصرى نتيجة طبيعية للبيئة الجغرافية التى يعيش فيها ، فلا عجب أن يبقى هذا اللون من الحياة ما بقيت تلك الظروف والأحوال .



مثل لطراز الفن الأسكندرى فى أوجه

والآن ماذا كانت نتيجة التقاء الحضارة الإغريقية اليافعة ، حضارة السادة الفاتحين ، مع الحضارة المصرية الهرمة ، حضارة الرعايا المغلوبين على أمرهم ، فى وادى النيل ؟ وهل كان العلامة ابن خلدون صادقاً فى رأيه القائل إن المغلوب مولع دائما أبدا بالاقتداء بالغالب » ؟ هذا ما سنحاول إظهاره الآن فى إيجاز .

لقد كان البطالمة قبل كل شىء ملوكا يعنيهم توطيد دعائم حكمهم بأفضل السبل

التى تحقق أهدافهم ، غير أنهم كانوا ملوكا مصطبغين بالحضارة الإغريقية ، وفى حاجة ملحة إلى الإغريق . فقد كانت أعز أمانى البطالمة الأوائل المحافظة على استقلال مصر السياسى والاقتصادى ولعب الدور الأول فى السياسة الدولية[١].

وقد كانت الدعامة الأولى للاستقلال والسيادة الدولية تجنيد جيش قوى وبناء أسطول كبير ، من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم ، وكانت مؤلفة من خيرة محاربى العصر ، وأعنى المقدونيين والإغريق الذين أثبتت حملات الإسكندر تفوقهم على محاربين ممتازين كالفرس . وقد كانت وفرة المال الدعامة الثانية للاستقلال والسيادة الدولية ، ومصر على غنى مواردها الطبيعية كانت لاتستطيع مواجهة المطالب الجديدة إذا بقيت شئونها الإدارية وحالتها الاقتصادية ونظمها المالية على ما كانت عليه عند الفتح المقدونى ، ولا سيما بسبب ما حاق بها من التدهور نتيجة للاضطرابات التى شهدتها البلاد فى خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، إبان حكم الفرس فى مصر وثورات المصريين للتخلص من نيرهم . فلم يكن هناك بد من إعادة تنظيم شئون الإدارة ، والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية ، ووضع نظام مالى دقيق . وللقيام بهذه الأعمال الإنشائية الواسعة ، كان البطالمة فى حاجة إلى رءوس أموال ، وإلى أعوان مخلصين يستطيعون فهم مراميهم والتفانى فى خدمتهم[٢] . وجملة القول أن البطالمة كانوا فى حاجة ملحة إلى الإغريق من أجل تحقيق أغراضهم الداخلية والخارجية ، فلكى يضمنوا لأنفسهم مكانة ممتازة فى بلاد الإغريق ، وكذلك استمرار وفود الإغريق على مصر بكثرة واستقرارهم فيها على الدوام ، لم يكتفوا فقط بفتح أبواب مصر على مصاريعها للإغريق ، بل أجزلوا لهم العطاء ومنحوهم مركزاً ممتازا فى وطنهم الجديد ، وهيئوا لهم البيئة التى تواءم ما ألفوه من أساليب الحياة فى بلادهم ، ونصبوا أنفسهم حماة للحضارة الإغريقية ، فهرع الإغريق إلى مصر زرافات ووحداناً[٣] .

---

(١) راجع ابراهيم نصحى : الكتاب سالف الذكر ، ص ٥٢ ، وكذلك Rostovtzeff, Soc. and Econ. Hist. Hell. World, p. 29.

(٢) إبراهيم نصحى : الكتاب سالف الذكر ، ص ٧٢٤ .

(3) Jouguet , in Chronique d'Egypte, 1935. pp. 95 -- 6.

وإذا كانت قد وفدت على ضفاف النيل فئة كبيرة من الأجانب ، فإن هؤلاء الأجانب كانوا أقلية ضئيلة بالنسبة إلى أهل البلاد الذين كانوا يعدون بالملايين ، فى حين كان الأجانب يعـــدون بالآلاف . ومهما بلغت حاجة البطالمة إلى الأجانب ، فإنه لم يكن لهم غناء على الإطلاق عن المصريين الذين كانوا عماد ثروة البلاد .



محاولة غير موفقة لمزج الطرازين المصرى والأغريقى

وهكذا نرى أن البطالمة قد وجدوا أمامهم فريقين رئيسين من سكان البلاد ، كان لكل منهما نظم خاصة للحكم ، فالإغريق نشأوا فى مدن اعتادوا على الاشتراك فى حكمها ، والمصريون نشأوا فى دولة ملكية مطلقة تقوم على حق الملوك الإلهى . فماذا فعل البطالمة حماة الحضارة الإغريقية الذين كانوا يحرصون على أن تظهر دولتهم أمام العالم باعتبارها دولة إغريقية ، لا دولة شرقية[1] ؟ حقاً إنهم سمحوا للمدن الإغريقيـــة الثلاث فى مصر بلون من ألوان الحكم الذاتى ، لكن إغريق هذه المدن ، وكذلك الإغريق الذين يعيشون فى أنحاء مصر الأخرى كانوا يعتبرون جميعاً مثل المصريين رعايا الملك[2] .

هذا إلى أن البطالمة لم يكثروا من إنشاء المدن الإغريقية ، على نحو

(1) Rostovtzeff , op. cit , pp. 264 — 5.
(2) Rostovtzeff . op. cit., p. 323.

ما فعل الإسكندر وخلفاؤه السليوكيون فى امبراطوريتهم ، بل إن البطالمة لم ينشئوا إلا مدينة إغريقية واحدة وهى بطوليميس ، لكنهم ساهموا فى إنشاء الإسكندرية . أما نقراطيس فإنها ترجع إلى عهد الأسرة السادسة والعشرين . وقد يقال إن البطالمة وإن كانت حضارتهم هى الإغريقية فإنهم أصلا مقدونيون ، ومن ثم لا داعى لأن نعزو إلى مصر نظام الحكم الذى اتبعوه فيها ، فقد كان يحكم مقدونيا ملوك مطلقو السلطة . ولكن هذا الدفع ، كما يقول رجال القانون ، وإن كان مقبولا شكلا فهو مرفوض موضوعا ، لأن البطالمة أقاموا ملكيتهم على أساس إلهى ، وفى مصر نشأت فكرة حق الملوك الإلهى منذ أقدم العصور[1] . وفضلا عن ذلك فإن البطالمة اتخذوا أولا صفات الفراعنة ، ولم يلبثوا أن تتوجوا على نمطهم فى المعابد المصرية[2] . ولكى يبرروا سلطتهم المطلقة فى نظر رعاياهم الإغريق لم يكتفوا فقط بنشر الرسائل الفلسفية التى تمتدح سلطة الملوك ، بل رفعوا أنفسهم إلى مصاف الآلهة الإغريقية[3] . ومعنى ذلك أن البطالمة لم ينشروا بين المصريين نظم الحكم الإغريقية ، بل اقتصدوا أيما اقتصاد فى إقامة هذه النظم بين إغريق مصر ، وأخذوا عن المصريين الأساس الذى أقاموا عليه دعائم سلطتهم الملكية ، وإن كانوا قد لجئوا إلى الأساليب والنظريات الإغريقية لتبرير سلطتهم الواسعة المطلقة فى نظر رعاياهم .

وفى الإدارة المحلية ، احتفظ البطالمة بالنظام التقليدى الذى عرفته مصر منذ أقدم العصور ، نظام تقسيم البلاد إلى مصر العليا ومصر السفلى ، وتقسيم كل من هذين القسمين إلى أقاليم أو مديريات[4] ، كانت عبارة عن وحدات

---

(1) Jouguet , Macedonian Imp., p. 280: Moret and Davy, From Tribe to Empire, pp. 131 ff ; Moret , Du caractère religieux de la royauté pharaonique, p. 17.

(٢) إبراهيم نصحى ، ص ١٨٦ — ١٩١ .

(٣) إبراهيم نصحى ، ص ٢١٦ وما بعدها ؛ C. A. H., VIII, pp. 13 ff .

(4) Jouguet , op. cit., p. 300 .

إدارية وحربية دينية . وفضلا عن ذلك فقد كان دعامة الإصلاحات الاقتصادية والمالية التى قام بها البطالمة مبدآن مصريان ينافيان المبادىء التى كانت تقوم عليها المدن الإغريقية الحرة . وهذان المبدآن هما : — أن الملك صاحب الأرض وما عليها وما فى باطنها ، وأن الأهالى يطيعون هذا الملك الإله طاعة عمياء . وعلى الرغم من أن نظم البطالمة الاقتصادية والمالية قد قامت على هذين المبدأين المصريين ، فإن البطالمة قد تأثروا إلى حد بعيد فى وضع هذه النظم بتعاليمهم الإغريقية وبتجارب أعوانهم الإغريق ؛ ولذلك فإن هذه النظم وإن كانت مصرية فى جوهرها فإنها مصطبغة بصبغة إغريقية قوية . ولا أدل على الأثر الإغريقى من تنظيم النواحى الاقتصادية المختلفة بقوانين ونظم إغريقية فى روحها ومنطقها ، واتساقها ودقة صياغتها واصطلاحاتها ، ومن طريقة تنظيم الضرائب . وقد كان يتصف بروح إغريقية أيضاً إشراف الإدارة المالية على موارد الدولة المختلفة ، وكذلك نظام المحاسبة والمراجعة الذى يختلف كلية عن أى شىء من هذا القبيل عرفته مصر حتى ذلك الوقت . ومع ذلك فقد أغفلت نظم البطالمة الاقتصادية والمالية إغفالا يكاد يكون تاماً جوهر النظام الاقتصادى الإغريقى ويتلخص فى شيئين : — أحدهما الامتلاك الخاص الذى كانت الدولة تعترف به وتحميه ، باعتباره أساس حياة الجماعة ، والآخر هو حرية النشاط الاقتصادى إذ أن الدولة قلما كانت تتدخل فى ذلك . حقاً إن البطالمة لم يقضوا قضاء مبرما على هاتين الظاهرتين ، إلا أنهم لم يسمحوا لهما إلا بقدر محدود يتمشى مع خطة البطالمة العامة ، التى كان سداها ولحمتها إشراف الدولة إشرافاً دقيقاً على كافة نواحى الحياة الاقتصادية [1] .

ولا سبيل إلى الشك فى أن الاقتصاد الفرعونى كان أكثر بساطة وأقرب إلى الفطرة من الاقتصاد البطلمى . وتدل أكداس النقود التى عثر عليها فى مصر وخاصة فى الدلتا على أنه فى عهد أواخر الفراعنة الوطنيين الذين حكموا مصر

(1) Rotovtzeff , op. cit., pp. 272 — 3.

فى الربع الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد كانت مصر تسك عملتها ، وعلى أنه قبل ذلك كان ولاة مصر الفارسيون يصدرون أيضا عملة ، وعلى أنه قبل ذلك فى العصر الصاوى كان تجـــار الإغريق يحضرون معهم إلى مصر عملة أجنبية يبدو أن فراعنــة ذلك العصر كانوا يستخدمونها فى شراء خدمات الجنود المرتزقة . وفضلا عن ذلك فانه قبل العصر الصاوى بعدة قرون كانت المعابد المصرية تصدر قطعاً معدنية بعضها من الذهب وبعضها من الفضة والبعض الآخر من البرونز وتضع عليها طابع الآلهة ضمانا لقيمتها . ويدل كل ذلك على أنه قبل الفتح المقدونى لم تجهل مصر سك النقود واستخدامها ولو على نطاق ضيق . وإذا كان لا يجوز القول أن الاسكندر والبطالمة قد أدخلوا فى مصر لأول مرة سك النقود واستخدامها ، فلا ريب فى أنه يعزى إليهم الفضل فى استبدال الاقتصاد النقـــدى بالاقتصاد الطبيعى الذى كان سائداً فى البلاد من قبل .

وقد كانت أداة البطالمة الحكومية فى جوهرها من تراث الماضى ، ويذهب « ولز » إلى حد القول بأن قواد المديريات (Strategoi) لم يكونوا بدعة استحدثها البطالمة لأنهم حلوا مكان الحكام القدامى [1] . ومع ذلك لا جدال فى أن أداة الحكم البطلمية قدأصبحت فى مجموعها أداة إغريقية منظمة تنظيما دقيقاً . ولا نعرف كيف استطاع البطالمة تكوين هذه الأداة الحكومية الدقيقة فى بلد أجنبى ، ووسط ظروف غريبة من عناصر لم تتوافر فيها المؤهلات اللازمة لمثل هذا العمل . فإن رءوس هذه الإدارة ومديرى مصالحها المختلفة وأقسامها المتعددة كانوا كلهم تقريباً من الإغريق الذين لم يعدهم ماضيهم للاضطلاع بمثل هذه المهام المعقدة . إذ أنهم قبل ذلك كانوا يديرون شئونهم الخاصة بطريقة بدائية ، كما أن إدارة الشئون العامة التى اشترك فيها بعض هؤلاء المهاجرين فى بلادهم كانت أولية ، إذا

(1) Welles, Ptol. Adm. in Egyp., J. Jurisp., Pap., III, 1949, p. 47, fn. 44.

قيست بالنظم البطلمية . إن نجاح البطالمة فى إعادة تنظيم الأداة الحكومية لتحقيق أهدافهم يعتبر من أبدع مبتكرات العبقرية الإغريقية ، ومن أوضح الأدلة على مرونتها واستعدادها لتكييف نفسها وفقاً للظروف التى توجد فيها [١] . ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا الصدد أنه لم يكن لهذه التعديلات التى أدخلت على الأداة الحكومية والنظم المالية إلا أسوأ الأثر فى المصريين ، إذ أن البطالمة لم يستهدفوا إلا تحقيق أغراضهم الأنانية الخاصة . ولم تؤد النظم الجديدة بعسفها وبطشها إلى سوء حال المصريين المادية فحسب ، بل إلى انحطاط أخلاقهم أيضاً ؛ فقد دفعهم الظلم إلى التحايل على القانون بشتى الطرق ، كما دفعهم الفقر وشظف العيش إلى وأد أطفالهم . وهكذا كانت للظلم آثار مادية ومعنوية سواء بسواء [٢] .

وحين وجه البطالمة عنايتهم إلى النهوض بمرافق مصر الإقتصادية لم يعتمدوا على خبرة المصريين المتوارثة فحسب ، بل اعتمدوا أيضاً على دراية الإغريق الفنية والحركة العلمية الإغريقية ، إذ أن المهندسين الإغريق هم الذين أشرفوا على استصلاح مساحات واسعة من الأراضى فى الفيوم [٣] ، وغيره من الأقاليم [٤] التى تشبهه ، وبوجه خاص فى الدلتا . وبعد أن كان المصريون لا يعرفون إلا الشادوف لرفع المياه إلى الأراضى المرتفعة ، أصبحوا يعرفون الساقية ولولب أرخميدس [٥] (الطنبور) ، وكانت هاتان الآلتان من ثمرة العلم الإغريقى . ولتفادى إضعاف التربة وضع نظام دقيق للدورة الزراعية ، بحيث كانت الأرض لا تزرع زراعة ثقيلة ثلاثة أعوام متتابعة ، ولا تترك فى نفس الوقت دون زرع [٦] ؛ وأصبحت أغلب الأدوات الزراعية تصنع كلها أو بعض أجزائها من الحديد [٧] . وللاغريق فضل كبير

(1) Rostovtzeff, op. cit. , pp. 1078 — 81.

(٢) إبراهيم نصحى ، ص ص ٥٨٦ ، ٦٥٠ — ٦٥٧ ، ٧٥٨ — ٧٦٣ .

(3) Rostovtzeff, op cit., p. 361.

(4) Edgar , Zeno Papyri in Michigan, p.10

(5) Calderini , in Aegyptus, I, pp 37 — 62, 189 — 216. 309 — 317.

(6) P. Tebt. I , p. 561.

(7) Rostovtzeff , op. cit.. pp. 362 — 3.

فى نشر غرس الكروم والفاكهة والزيتون ، وإدخال أنواع جديدة منها ومن مختلف أنواع النبات [(١)] . وقد وجه البطالمة عنايتهم إلى مسألة أخرى تتصل بالزراعة اتصالا وثيقاً ، وهى تربية الحيوان ، فلم يعنوا فقط بالحيوانات التى كان المصريون يألفونها منذ القدم ، بل عنوا أيضاً بأقلمة ما كان مألوفاً منها عند الإغريق ، وخاصة الحيوانات ذات الأصواف الممتازة [(٢)] .

وتعزى النهضة الصناعية فى عصر البطالمة إلى مهارة أهل البلاد ، وكذلك إلى مواهب المهاجرين إليها . ولا بد من أن الحركة العلمية فى الإسكندرية قد غزت الصناعة كما غزت الزراعة بثمرة تقدم العلوم والهندسة . وقد ساعد على ازدهار الصناعة إنشاء المصارف المالية ، وانتشار تداول النقود ، ووفرة رءوس الأموال اللازمة للنهوض بالصناعة ، ورواج التجارة ، واهتمام الملوك باستغلال الصناعة استغلالا لم تعرفه مصر فى أى عهد من عهود تاريخها الطويل . فإن ملك مصر لم يكن أكبر ملاك الأراضى فحسب ، بل كان أيضاً أكبر أقطاب الصناعة فيها [(٣)] . وإذا كان المصريون قد اقتبسوا من الإغريق بعض أساليب الصناعة التى كانوا أساتذة فيها ، كصناعة الزيت والنبيذ والمنسوجات الصوفية ، فإن الإغريق بدورهم اقتبسوا فنون الصناعة التى بلغ فيها المصريون حدا يقرب من الكمال فى عهد الفراعنة . وكان شأن الإغريق فى مصر كشأنهم فى أى مكان آخر اتصلوا فيه بأساليب الحضارة الرفيعة القديمة ، فإنهم اقتبسوا أولا فن الصناعة الوطنى وتعلموا كل ما لم يعلموه منه قبل ذلك ، بل أخذوا عنه بعض المظاهر وأشكال الزخرفة ، ثم صبغوا كل ذلك بالصبغة الإغريقية ، وجعلوه محببا مقبولا للذوق الإغريقى [(٤)] . فامتلأت أسواق المصر الهيلينستى بآنية فخارية وزجاجية ومعدنية مصنوعة على أساس الأساليب المصرية فى الصناعة ، وإن كان طراز المصنوعات إغريقياً . وهل

---

(١) إبراهيم نصحى ، ص ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

(2) Rostovtzeff , op. cit., pp. 292 — 5.

(٣) إبراهيم نصحى ، ص ٣٨٣ .

(4) Rostovtzeff , Large Estate, p. 135.

أدت مساهمة الإغريق فى حياة مصر الإقتصادية إلى إدخال ما ألفوه فى بلادهم من نوع اليد العاملة فى الصناعة ، أى العبيد ، على الرغم من وفرة اليد العاملة الحرة فى مصر وقلة أجرها ؟ تشير القرائن إلى أنه فى مدن مصر الإغريقية — وخاصة فى الإسكندرية — لم ينهض بالصناعة الإغريقية طبقة كبيرة من أهل الحرف والصناعات الأحرار فحسب ، بل من العبيد أيضاً . أما فى بقية أنحاء مصر ، خارج مدنها الإغريقية — أو على الأقل خارج الإسكندرية — فإننا نلاحظ أنه لا يوجد فى نصوص القوانين الخاصة بنظام العمل فى الزراعة والصناعة ما يستدل منه على استخدام العبيد فيها . ومعنى هذا أن الإغريق لم يغيروا قواعد الحياة الإقتصادية والاجتماعية فى البلاد بوجه عام[1] .

وقد تمخض نجاح سياسة البطالمة الخارجية ، وتقدم الزراعة وازدهار الصناعة عن رواج تجارة مصر الخارجية. وساعد على ذلك أيضاً خبرة الإغريق العريقة فى هذا المضمار ، وإنشاء المصارف المالية ، وانتشار تداول النقد ، ومبتكرات العبقرية الإغريقية التى كان فى مقدمتها فنار الإسكندرية المشهور الذى كان نوره يشاهد على بعد ٦٠ ك . م . ومنذ أدرك الناس قيمة الفنارات انتشر هذا الاختراع سريعاً فى الموانى المختلفة .

وتمخضت أبحاث تيموسثينيس ، أمير البحر البطلمى ، عن كتاب « المعارف البحرية » الذى وفر لربابنة السفن معلومات قيمة عن أحوال الموانى المختلفة وأوصافها ، والمسافة بين كل منها . وقد ترتب على كل هذه التسهيلات أن ازدادت كثيراً فى العصر الهيلينستى سرعة انتقال البضائع ، دون أن تزداد سرعة السفن نفسها زيادة كبيرة ، وذلك لأن السفن أصبحت تشق أواسط البحر بدلا من أن تتلمس طريقها بمحاذاة الشاطىء ، كما أصبحت تسافر فى أثناء الليل أيضاً بدلا من النهار فقط[2] .

---

(1) Préaux , L'économie royale des Lagides, p. 305.
(2) Glotz , Le travail dans la Grèce ancienne, pp. 440 — 1.

إن البطالمة الأوائل لم يدخروا وسعاً فى العمل على تقـدم مرافق مصر الاقتصادية ، فازدادت مساحة الأرض المنزرعة واستغلت الأرض الصالحة للزراعة استغلالا لم يسبق له مثيـــل ، وازدهرت الصناعة وراجت التجارة . لـكن إذا كان لم يستفد من ازدياد مساحة الأرض سوى الإغريق ، الذين منحوا هذه الأراضى ، والملك الذى كسب من وراء ذلك ولاء الإغريق وخدماتهم ، فضلا عن الضرائب التى فرضها على هذه الأراضى ، وإذا كان الملك هو صاحب أرض مصر ، وكانت الحـكومة هى القابضة على ناصية الصناعة ، والإغريق هم أقطاب التجارة والصناعة ، فماذا جنى المصريون أصحاب البلاد وعماد ثروتها ؟ ماذا جنوا من تضاعف مساحة الأرض المنزرعة ، أو ازدياد استغلال الأرض ، أو ازدهار الصناعة ، أو رواج التجارة ؟ لقد كانوا كالشمعة التى تحترق لتنير للغير ، ولم يكن نصيبهم سوى نصيب العبد الـكسير الذى يشقى وينصب ليملأ خزائن سيده بالأموال . وهل أدرك البطالمة أنفسهم من وراء سياستهم الاقتصادية ونظمهم المـالية كل ما كانوا يؤملون فيه ؟ الجواب نعم ولا . فقد أحرزوا كل مايقوى المـال على ابتياعه ، ولـكنهم أغفلوا من حسابهم أمراً لعله كان يسيراً فى نظرهم ، إلا أنه هو العماد الأقوى لـكل ملك يراد له البقاء ، وذلك هو الروح المعنوى للشعب . فلا عجب أنه عندما استعاد المصريون ثقتهم بأنفسهم هبوا ثائرين فى وجه طغاتهم وزلزلوا الأرض تحت أقدامهم ، فـكانت ثوراتهم من العوامل الحاسمة فى القضاء على دولة البطالمة .

ومن مقارنة توجيهات الفراعنة إلى مساعديهم بالتوجيهات التى أصدرها هرودس (Herodes) وزير مالية بطلميوس السادس إلى مساعديه المحليين ، ومقارنة قرار حرمحب بمجموعة قرارات بطلميوس ايوارجتيس الثانى ، استطاع « ولز » أن يبين فى جلاء ووضوح كيف أن البطالمة كانوا لايقلون عن الفراعنة اهتماماً بحماية رعاياهم من غلواء الموظفين ، مع فارق واحد وهو شدة حرص البطالمة

على جمع الأموال الأميرية ، مما يكشف عن أن اهتمامهم بحماية رعاياهم لم يكن لذاته وإنما لخدمة مآربهم الخاصة . ولعلهم كانوا كالرومان فيما بعد يكرهون أن تسلخ جلود أغنامهم لكنهم كانوا يحبون أن يضمنوا ألا يجز أصوافها أحد غيرهم[١] .

* * *

وعندما وفد الإغريق على مصر أحضروا معهم مذاهبهم وآلهتهم القديمة ، وحيثما استقروا في أعداد وافرة ، سواء في مدن مصر الإغريقية ، الإسكندرية ونقراطيس وبطوليميس ، أو في المدن والقرى المصرية ، كان الإغريق يقيمون المعابد أو الهياكل لآلهتهم القديمة . وتشير الأدلة إلى أنه في كل قرية من القرى التي نزل بها الإغريق في الفيوم كان يوجد هيكل أو معبد صغير يقيم فيه الإغريق طقوس عباداتهم ، وإلى أن الإغريق أقاموا المعابد والهياكل في طول البلاد وعرضها لزيوس وابولو وبوسايدون واسكليبيوس وبان وديوسكوري وهيرا وديمتر وكورا وافروديتي[٢] . وقد كان الإغريق يألفون منذ عهد بعيد استخدام المذابح الخاصة التي تقام بجوار مداخل منازلهم لتقديم القرابين لآلهتهم ، وقد كشفت الحفريات في الفيوم عن عدد كبير من هذه المذابح[٣] . وفضلا عن ذلك كان الإغريق يؤلفون في كل مكان جمعيات دينية لمزاولة شعائر دينهم . وينهض كل ذلك دليلا على اعتزاز الإغريق بدياناتهم القديمة واحتفاظهم بها . ومن ناحية أخرى استمسك المصريون بمعتقداتهم الدينية وبقوا على ولائهم لدياناتهم القديمة .

ولما كان بطلميوس الأول يعتقد أن ثروة مصر تتوقف على مساهمة المصريين والإغريق سويا في العمل على تقدم مرافق البلاد الإقتصادية ، فإنه رأى من الضروري

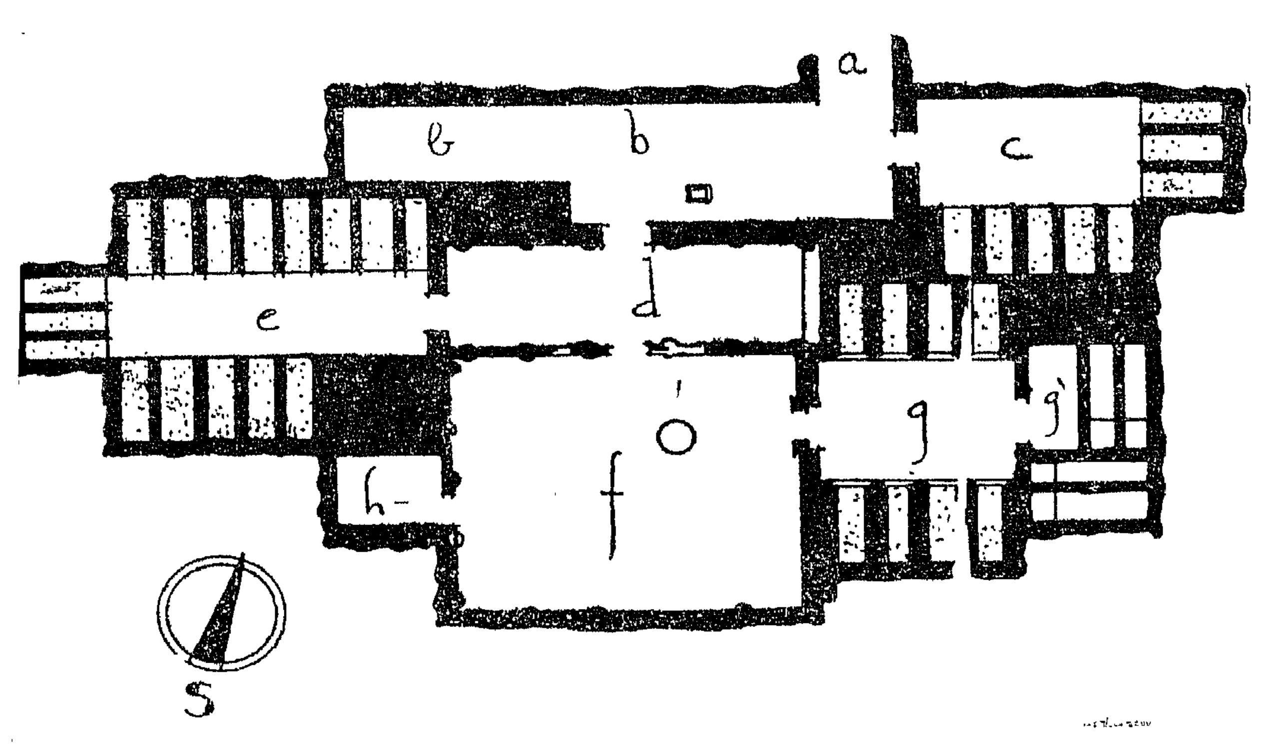
---

(1) Welles, op. cit., pp. 31 ff.

(2) Brady, Reception of Eg.'{_Cults by Grs., Un. Miss. Studies, X, 1935, p. 15; Otto, I, p. 169.

(3) Otto, I, pp. 135, 257.

أن يؤلف بين قلوب هذين العنصرين ، وأن يتغلب على النفور الديني الذى كان هيرودوتوس قد لاحظه من قبل ، وكان من المحتم أن يعوق الألفة بينهم ، بإيجاد ديانة جديدة تربط بين هذين العنصرين المختلفين اللذين كانا أهم عنصرين بين سكان البلاد [1] . وقد استقر الرأى على أن يكون محور الديانة الجديدة ثلاثة آلهة مصرية قدمت للمصريين فى ثوبها المصرى ، وللاغريق فى ثوب إغريقى .



مقبرة أغريقية فى الشاطبى
شيدت على نمط المنازل الأغريقية الشائعة
فى القرن الثالث قبل الميلاد

(1) Jouguet, Mac. Imp., 339.

وهكذا لم يعبد المصريون والإغريق نفس الثالوث ، فقد عبد المصريون آلهة الديانة الجديدة فى شكلها المصرى وباعتبارها فى عداد الآلهة التقليدية التى استمروا يتعبدون إليها ، وعبد الإغريق آلهة الديانة الجديدة فى ثوب إغريقى وباعتباها نظائر لآلهتهم . ومع ذلك فإن آلهة الديانة الجديدة لم تصادف قبولا لدى الإغريق بوجه عام أول الأمر ، لكن إزاء اتجاه الحكومة وتعضيد الملك واعتماد حياة أكثر المهاجرين الإغريق على عطف الملك عليهم ورضائه عنهم لم يأت منتصف القرن الثالث حتى كان الإغريق قد أقبلوا بشدة على عبادة آلهة هذه الديانة ، وكانت هذه الآلهة قد تبوأت مكانها عندهم إلى جانب آلهة أوليمپوس التى استمروا على ولائهم لها (١) .

وقد درج الإغريق منذ عهد هيرودوتوس على تشبيه الآلهة الإغريقية بالآلهة المصرية . وتمدنا المراجع القديمة بأمثلة متعددة لذلك ، بعضها من القرن الثالث مثل الإهداء الذى قدمته حامية الضباط الإغريق فى إقليم الشلال وشبهت فى هذا الإهداء عدداً من الآلهة الإغريقية بعدد من الآلهة المصرية(٢) وبعضها من القرن الثانى مثل الإهداء المقدم من الحامية التى نزلت فى كوم امبو فى أواخر عهد بطلميوس السادس وشبهت ابولو بهاروبرس(٣) . ونجد كذلك أمثلة لأغريق — حتى من بين ذوى المكانة — يتعبدون أو يقدمون القرابين لآلهة مصرية بمفردها مثل هرمايثوس (٤) وپنفروس(٥) وسوخوس(٦) ، أو مقرونة مع آلهة اغريقية دون تشبيه الألهة المصرية بالآلهة الإغريقية على نحو ما نجد فى إهداء من أواخر القرن الثالث قدمته جماعة المحاربين الإغريق فى بطوليميس للاله الإغريقى پان — إله الجنود — وقرنته باثنين من الآلهة المصرية(٧) . ويتكشف أيضا مما أسلفناه أنه فى الأماكن التى لم توجد فيها معابد أو هيا كل إغريقية لم يتحرج

(1) Brady, pp. 11 — 17.
(2) OGIS 1, 130.
(3) OGIS. 1, 114.
(4) SB 5021; Klio, XII, 365.
(5) SB 6252, 6253
(6) Chrest. 1, 141.
(7) SB 6184.

الإغريق من تشبيه آلهتهم بالآلهة الحامية المصرية ومن التعبد وتقديم القرابين في معابدها . ويجب ألا يأخذنا العجب من كل ذلك فقد كانت للديانة المصرية — بفضل قدمها وغموض أسرارها — مكانة كبيرة في نفوس الإغريق الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ضيوفا في البلاد التي تملكها الآلهة الحامية بالرعاية فكان من الفطنة وإصالة الرأي في نظر أولئك الضيوف استجداء عطف تلك الآلهة[1] ، ولا سيما وقد أدخل على عقولهم أنها لا تختلف عن آلهتهم إلا من حيث الإسم والشكل وقدم العهد[2] .

وبرغم أن الإغريق كانوا يشبهون آلهتهم بالآلهة المصرية ، وبرغم أن كثيرين منهم كانوا يعبدون آلهة مصرية ويدخلون المعابد المصرية ويقدمون القرابين فيها ، فإنهم لم يتخلوا عن معتقداتهم الدينية القديمة ، بل أن عبادة آلهتهم القديمة بقيت عبادتهم الحقيقية . فالأهداءات التي كانت تقدم للآلهة الإغريقية ووجدت في مختلف أنحاء البلاد وترجع حتى إلى أواخر عصر البطالمة وافرة العدد بحيث تدل على استمساك الإغريق طوال عصر البطالمة بعبادة آلهتهم المألوفة . وترينا الوثائق البردية والخطابات الخاصة أن الإغريق استمروا يقيمون حفلاتهم الدينية القديمة . وفضلا عن ذلك فإنه حتى في خلال القرن الأول قبل الميلاد كان طابع الأختام التي يستخدمها الإغريق عبارة عن صورة رأس أحد الآلهة الإغريقية المعروفة مثل أبولو أو اثينا أو ديونيسوس مما يدل دلالة قاطعة على أن الإغريق كانوا يفضلون آلهتهم القديمة . ومع ذلك فإن الأدلة تشير إلى أن بعض الإغريق أخذوا يستخدمون اختاما ذات طابع مصري[3] . وجملة القول أنه يكاد يكون من المحقق أن الديانة الحقيقية لإغريق مصر بوجه عام كانت عبادة آلهتهم القديمة التي ظلوا على تمسكهم بها إلى أن تلاشى الروح القومي من نفوسهم[4] . وإذا كنا نعرف أن الديانة المصرية قد

---

(1) Bell. Cults and Creeds pp. 2, 9.

(2) Cf. Jouguet, Maced. Imp., p. 338.

(3) Brady, pp. 25 — 39.

(٤) نفس المرجع ص ٢٩٠ .

استهوت الإغريق فأقبلوا عليها — ولو إلى حد — إلى جانب دياناتهم القديمة ، فإننا لا نعرف أن المصريين أقبلوا على الديانة الإغريقية على الأطلاق .

وقد سلف القول أن البطالمة الثلاثة الأوائل رأوا سلامتهم فى الاعتماد على المقدونيين والإغريق وأشباههم ، فى تكوين قواتهم البرية والبحرية [١] ، لكن هؤلاء الملوك رأوا ألا يسرحوا الفرق المصرية ، خوفاً من أن يؤدى ذلك إلى إثارة المصريين . ولذلك استبقوها فى جيشهم الإغريقى ، بنظمها وأسلحتها القديمة ، بمثابة فرق احتياطية يلجئون إليها فى أوقات الضرورة القصوى . وقد استمر الحال كذلك حتى أواخر القرن الثالث ، عند ما واجهت بطلميوس الرابع أزمة خطيرة ، بسبب انقضاض أنطيوخوس الثالث ملك سوريا على ممتلكاته . وكان ذلك فى وقت قل فيه وفود الإغريق على مصر ، وضعفت الروح الحربية بين القيمين منهم فى مصر ، ولم يكن ميسورا تجنيد كل الجيش من الإغريق ، فأضطر إلى تكوين قلب الجيش من المصريين ، ولذلك كانوا منذ ذلك الوقت يسلحون بالأسلحة المقدونية ، ويدربون وفقاً لأحدث الأساليب الحربية [٢] .

وكانت لمصر عاداتها وقوانينها التى ترجع إلى عهود بعيدة تسبق بقرون طويلة الفتح المقدونى الذى حمل فى طياته الإغريق بعاداتهم وقوانينهم . وقد رأى البطالمة فى حكمتهم أن يتجنبوا بقدر ماتسمح أحوال الحكومة الجديدة المساس بما ألفه المصريون من العادات والقوانين[٣] ، بل أخذوا على عاتقهم تدوين القوانين المصرية ونشرها[٤] . وفى نفس الوقت استنوا من القوانين مايتفق وأفكار الإغريق ومن على شاكلتهم ، وذلك من أجل تنظيم العلاقات بين هؤلاء النزلاء الأجانب[٥] . وهكذا كان يطبق على المصريين قوانينهم التقليدية ،

---

(1) Bevan, p. 166.

(٢) ابراهيم نصحى ، ص ص ١٦٤ و ١٦٥ .

(3) Jouguet, op. cit., p. 313; Bevan, p. 157.

(4) Taubenschlag, The Law of Greco-Roman Egypt in the Light of the Papyri, p. 2.

(5) Rostovtzeff, Social and Economic, p. 324.

وعلى الإغريق قوانين إغريقيــة من وضع البطالمة . لــكن لما كان الملك وليس الشعب مصدر كافة القوانين والدساتير فى الدولة ، وإزاء معيشة الإغريق جنبا إلى جنب مع المصريين فى طول البلاد وعرضها ، فإن الملك قد أدخل بعض التعديلات على مجموعة قوانين كل من المصريين والإغريق . ولذلك فإن ما نلمسه من التأثيرات الإغريقية فى القانون المصرى والتأثيرات المصرية فى القانون الإغريقى يجب ألا يعتبر صدى لظواهر حضارية نجمت عن تأثر المجتمعين أحدهما بالآخر ، وإنما الأصح اعتباره نتيجة لرغبة الملك فى سد فجوات فى التشريعات القائمة ، أو نشر الهدوء والسكينة فى البلاد بعدم تطبيق أحكام مختلفة على حالات متشابهة . ومثل ذلك أن القانون المصرى كان يخول للمرأة المصرية أن تتصرف فى نفسها وفيما تملك دون أى قيد أو شرط ، وذلك على خلاف الشرائع الإغريقية التى كانت تعتبر المرأة قاصراً وتشترط وجود وصى شرعى عليها . لــكن المرأة المصرية لم تنعم طويلا بهذه الحرية فى عهد البطالمة ، فإنهم على الرغم من ادعائهم احترام التقاليد المصرية رأوا أن يساووا بين المرأة المصرية والمرأة الاغريقية ، وذلك دون شك لــكى لاتتبرم الاغريقية وتضيق ذرعا بحالتها إزاء ما كانت المصرية تنعم به من حقوق . إذ يعزى إلى بداية عهد بطلميوس الرابع أمر ملــكى يحظر على المرأة المصرية الزواج دون إذن وصى والتعاقد مع طرف ثالث دون إذن زوجها [1] .

ولا يوجد مايبرر الزعم القائل بأن المصريين أخذوا عن الإغريق ذلك النوع من عقود الزواج الذى يعرف بعقود المعاشرة « Syngraphai Synoikisiou » . فنحن نعتقد أنه كان لدى المصريين نوعان من الزواج وهما « الزواج الــكامل » (gamos engraphos) و «زواج التجربة» (gamos agraphos) ، وأن النوع الأول كان يستهدف رابطة دائمة تنطوى على التزامات دائمة ، أما الثانى فــكان رابطة مؤقتة لفترة معينة محددة فى العقد . ونحن نعتقد كذلك أن إتمام الزواج

---

(1) Taubenschlag, Law of Gr — R. Eg., pp. 14—16.

عند قدماء المصريين كان لا يتطلب فى أبسط مظاهره أكثر مما تقضى به الشريعة الإسلامية السمحاء من أن يقبل الطرفان التزاوج من بعضهما ، لكنه لإثبات حقوق الزوجة والأولاد أصبح يتعين تحرير عقد . ومعنى ذلك أن العقد فى الحقيقة لايتم الزواج وإنما يثبت وجوده فعلا .

ولا يوجد كذلك مايبرر الزعم القائل بأن الإغريق أخذوا عن المصريين ذلك النوع من الزواج المسمى زواج التجربة وذلك النوع من عقود الزواج المعروف « بعقود الإعاشة » (Syngrphai trophitides) . فنحن نرى أن اغريق مصر لم يباشروا إلا نوعا واحداً من الزواج كانوا يستخدمون فيه نوعين من التوثيق . لكن يجب التفرقة بين زواج الإغريق الذين كانوا يعيشون فى الاسكندرية وبطوليميس والذين كانوا يعيشون خارج هاتين المدينتين . وفى الشق الأول من عصر البطالمة كان إغريق الفريق الثانى يمهدون للزواج بتحرير « عقود الاتفاق » (Syngraphai homologias) وكانت خاصة بالدوطة[1] ، وكان اتمام الزواج يتطلب تحرير « عقود المعاشرة » وكانت أهم أركانها : النص على أن والدى العروس قد زوجاها للعريس ، وعلى حقوق وواجبات الطرفين[2] . أما فى القرن الثانى فقد حدث تطور هام إذ أن محتويات « عقود الاتفاق » اتسعت بحيث أصبحت تشمل كذلك نصوصا خاصة بتنظيم الحياة الزوجيـــة وتثبت قيام الزوجية[3] ، ولذلك كان يمكن الاكتفاء بهذه العقود والاستغناء بها عن « عقود المعاشرة »[4] . وواضح أن التطور الذى طرأ على عقود الزواج الإغريقية لم يكن نتيجة لتأثير التقاليد المصرية بل كان تطوراً طبيعياً . ولا جدال فى أن عقود الزواج الإغريقية المتأخرة إغريقية خالصة فى شكلها وفكرتها القانونية[5] .

---

(1) P. Hibeh II, 208; B. G. U. VI, 1463; P. Tebt. III, 815 fr. 4 recto, Col. 1, ll. 1—10.

(2) Wolff, Written and Unwritten Marriages in Hellen. and Postclassical Roman Law, pp. 15 ff.

(3) P. Freib. III, 26; 29; 30; P. Paris 13,

(4) Wolff, pp. 7 — 25.

(5) Wolff, pp, 25 — 32.

وترينا بعض الوثائق[١] أنه فى الاسكندرية وبطوليميس كان الطرفان يعقدان عقداً مدنيا (Synchoresis) . وفى إحدى الحالات[٢] اتفق الطرفان على تحرير عقد ثان أمام هيئة كهنة الوحدات (Hierothytai) ، وفى حالتين أخريين[٣] لم يرد إلا ذكر العقد الثانى أمام هيئة كهنة الوحدات . وإذا كان العلماء لم يتشككوا اطلاقا فى أن العقد المدنى كان صحيحاً قانونا وكفيلا بإقامة حياة زوجية صحيحة وصيانة حقوق الطرفين والأولاد ، فكيف نفسر ضرورة العقد الدينى ولاسيما إذا لم يوجد اختلاف جوهرى بين محتويات العقدين ؟

إن ضرورة عقد زواج دينى بعد الزواج المدنى تدل على أن العقد الدينى كان أكثر أهمية من العقد المدنى . ويبدو أن مرد هذه الأهمية إلى أنه كان يكفل لأبناء الطرفين من المواطنين التمتع بحقوقهم السياسية . ولذلك نعتقد أنه حين كان كل إغريق الاسكندرية وبطوليميس يحررون العقد المدنى ، كان أفراد طبقة المواطنين فقط هم الذين يهتمون بتحرير العقد الدينى ، ولاسيما أنهم هم فقط الذين كانوا يسجلون فى القبائل والأحياء والوحدات .

وفى قوانين الأحوال العينية تبدو مظاهر الأثر الإغريقى فيما أدخل على القوانين المصرية من الأحكام الخاصة ببعض الالتزامات وشئون الرقيق وحماية الملكية الفردية . ومن ناحية أخرى ادخلت على القوانين الإغريقية بعض أحكام القانون المصرى الخاصة بالالتزامات و « الرهن الضمانى » و « البيع الوفائى » وأهم نصوص عقدى المال والتنازل التى أدمجوها فى عقد واحد شاع استخدامه فى البيوع .

وإذا كان البطالمة قد سمحوا للمصريين والإغريق بتنظيم معاملاتهم وفقا لأحكام القوانين المدنية التى كان كل فريق منهما يألفها ، فانهم أصدروا للفريقين قانونا جنائيا موحداً وفرضوا عليهما أتباع قواعد موحدة للاجراءات القضائية .

---

(1) B. G. U. IV, 1050—52, 1098 — 1101.

(2) B. G U. IV, 1098.

(3) B. G. U. IV, 1050; 1101.

ومن المسلم به أن حياة الإغريق الاجتماعية والثقافية والفنية في مدن مصر الإغريقية الثلاث وكذلك حياتهم السياسية في نقراطيس وبطوليميس كانت إغريقية بحت . وليس من الإسراف في الرأى القول بأنه حتى عصر بطلميوس الرابع على الأقل كانت الإسكندرية تنعم بكل المظاهر السياسية الخليقة بمدينة إغريقية ذات سيادة ، أى أنها كانت تتمتع بمجلس بولى وجمعية شعبية وحكام تنتخبهم هيئة المواطنين ومحاكم مستقلة غير المحاكم الملكية .

وعلى كل حال لاسبيل إلى الشك في أن الإسكندرية بجامعتها ومكتبتها الكبرى كانت المركز الرئيسى لإشعاع الحضارة الإغريقية في مصر بأجمعها . وتدل المصادر القديمة على اختلاف أنواعها على أنه إلى جانب تلك الطبقة الممتازة من الأدباء والعلماء الذين كانوا يعيشون في الإسكندرية ، كانت تعيش في نقراطيس وبطوليميس طبقة وسطى من رجال العلم والأدب .

وبسبب افتقارنا إلى الأدلة لانستطيع الكلام عن الأثر المتبادل في العلوم والطب ، على عهد البطالمة ، لكن يمكننا الجزم بأن الأدب الإغريقى البطلمى كان أدباً إغريقياً بحتاً ، فإن علماء الأدب انصرفوا إلى تحقيق النصوص الإغريقية القديمة وترتيبها وتبويبها . أما الكتاب والشعراء ، فقد انصرفوا إلى موضوعات لاتمت بصلة إلى الشعب المصرى أو البلاد المصرية ، حتى أن ثيوكريتوس عندما كان يتغنى بوصف الطبيعة كان لا يصف مصر بل كوس وسيراكوز . وكان الشعراء الإغريق لايعرفون عن مصر — حتى بعد أن عاشوا فيها — إلا ماقرأوه في القصص الإغريقية ، أو ما كتبه هيرودوتوس وأفلاطون ، وكانوا لايوجهون عنايتهم إلى شيء من المميزات المحلية إلا مايستطيعون استخدامه في إطراء الملك الذى يرعاهم[١] .

وإذا كان بطلميوس الأول قد اتبع سياسة تستهدف جمع شمل الإغريق والمصريين في ديانة مشتركة ، فإن البطالمة وقد نصبوا أنفسهم حماة للحضارة

(١) إبراهيم نصحى ، ص ٨٠٥ .

الإغريقية لم يستهدفوا إطلاقاً مزج المصريين والإغريق ، خشية أن يتلاشى العنصر الإغريقى بسبب قلته وسط جموع العنصر المصرى بسبب كثرته . ولا بد من أن ذلك كان الدافع وراء تحريم التزاوج بين العنصرين فى مدن مصر الإغريقية .

ولا بد من أن الدافع نفسه هو الذى أملى القاعدة التى كانت تلزم الإغريق عند ذكر أسمائهم فى الوثائق الرسمية بإضافة اسم مدينتهم الأصلية ووضعهم السياسى . وقد بقيت هذه القاعدة مراعاة فى خلال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد بفضل قوانين مشددة كانت تحظر الانتقال من إحدى فئات السكان إلى فئة أخرى ، أو إدخال أى تعديل على صفة الشخص القومية أو السياسية دون تصريح رسمى ، وفرضت على من يخالف ذلك عقوبة الإعدام .

وقد حاول إغريق الريف كذلك أن ينهجوا فى حياتهم نهجاً إغريقيا ، فهم لم يكتفوا بتكوين جمعيات قومية (Politeumata) ، بل أنشئوا كذلك فى كل مكان مراكز إغريقية ثقافية واجتماعية ، فلم توجد الجيمنازيا والپلا يسترا والجمعيات الدينية فى المدن الإغريقية فحسب ، بل كذلك فى كل عواصم المديريات وحتى فى القرى التى كان ينزل فيها عدد وفير من الإغريق .

ومعلوماتنا عن تعليم إغريق مصر محدودة ، ومع ذلك فإنها تشير إلى أنه لم يكن بالمجان ولا إجبارياً ، وإلى أنه كان يتألف من ثلاث مراحل : وهى مرحلة التعليم الأولى ومرحلة الجيمنازيا ومرحلة التعليم العالى . وكانت الآداب الشائعة بينهم هى مؤلفات هوميروس ويوريپيديس والكوميديا الجديدة وأفلاطون . وكانت الموسيقى التى يستمعون إليها موسيقى إغريقية ، والمسرحيات التى يشاهدونها مسرحيات إغريقية ، واللعب التى يلهو بها أطفالهم من النوع الإغريقى المألوف . ولا جدال فى أن كل ذلك ينهض دليلا على استمساك الإغريق بأساليب الحياة الإغريقية . وفضلا عن ذلك كان وضعهم السياسى وحالتهم المالية أحسن بكثير من وضع المصريين وحالتهم ، فقد كانوا يتولون أرفع المناصب ويفوزون بأكبر الضياع وأخصبها ويتمتعون بأفضل الفرص لاثراء أنفسهم .

ولما كان الإغريق قد أحضروا معهم لغتهم وديانتهم ومذاهبهم وعاداتهم وأساليب حياتهم وقوانينهم وتعاليمهم ، وكانت تشريعات البطالمة قد استهدفت محافظة الإغريق على نحلهم وصفاتهم ، وكانوا يعيشون عادة فى أوساط إغريقية : إما فى المدن الإغريقية أو فى جمعياتهم القومية والدينية والاجتماعية فى طول البلاد وعرضها ، وكانت أفواج الإغريق تفد على مصر باستمرار حتى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد فتطعمهم بدماء جديدة ، فلا بد من أنه وسط هذه الظروف قد حافظ اغريق مصر على اغريقيتهم فبقوا اغريقا خالصين على الأقل حتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ، عندما أخذت تتجمع عدة عوامل كانت لها نتائج ملموسة سنتناول الكلام عنها فيما بعد .

ومهما كان من أمر الإغريق فى الشطر الأول من عصر البطالمة ، فإنهم لم يكونوا إلا أقلية تعد بالالاف بالنسبة لغالبية سكان البلاد من المصريين الذين كانوا يعدون بالملايين ، ولهم حضارة راسخة ذات تقاليد عتيدة . ولا جدال فى أن المصريين بوجه عام استمروا يعيشون كما كان يعيش أجدادهم من قبل محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم يعبدون آلهتهم ويخضعون لقوانينهم الفرعونية ، يفلح ملايينهم الأرض ويشتغل ألوفهم بالصناعة والتجارة ، وانخرط بعضهم فى سلك الجيش والبعض فى خدمة الحكومة ، لكن قلما شغل أحد منهم مناصب خطيرة بعد عهد بطلميوس الأول وقبل عهد البطالمة الأواخر . ولا تذكر الوثائق شيئاً عن مصير الارستقراطية المصرية بعد عهد بطلميوس الأول ، مما حدا ببعض المؤرخين إلى الافتراض أن بطلميوس الثانى حرمها مناصبها وضياعها وأنه منذ ذلك الوقت أصبح الكهنة يؤلفون كل ماهنالك من ارستقراطية مصرية . فقد كانت جماعاتهم الدينية فى طول البلاد وعرضها منظمة تنظيما قوياً لا يمكن العبث به دون إثارة متاعب شديدة فى وجه البطالمة . ومع أن الكهنة كانوا يعتبرون طبقة ممتازة فانهم لم يفلتوا من بطش البطالمة الأوائل الذين قيدوهم بأغلال من

القوانين أخضعتهم لسلطانهم وكسرت شوكتهم مدة طويلة . ولم ينج المحاربون المصريون كذلك من عسف البطالمة الأوائل ، فقد أنزلوهم من عليائهم إلى الحضيض، حتى أخذت تتحسن حالهم منذ عهد بطلميوس الرابع .

وكان المصريون يلتقون فى أندية جمعياتهم أو فى بيوت الأعيان ، كما هى اليوم حال أهل الريف ، أو فى المعابد ليستمعوا إلى قادتهم الروحيين ويعبروا لهم عن مظالمهم .

وتشير الدلائل إلى وجود ثلاث مراحل تعليمية فى مصر القديمة : أولية ومتقدمة وعالية[1] . ويبدو أنه منذ عهد الدولة الوسطى على الأقل كان التلاميذ يتابعون دراسة المرحلة التعليمية الأولى إما فى مدارس ملحقة بالمعابد أو فى مدارس صغيرة لا يوجد ما يستدل منه على أنها كانت تتصل بالمعابد أو تخضع للحكومة ولذلك يمكن اعتبارها مدارس أهلية . ومنذ عهد الأسرة الثامنة عشرة على الأقل كان الصبية يتابعون المرحلة التعليمية الثانية إما فى مدارس المعابد أو فى ذلك النوع من المدارس الذى يجوز أن يطلق عليه اسم المدارس الأهلية .

ويبدو أنه كان لكل معبد مدرسته ومكتبته ، وأن التعليم فى مدارس المعابد لم يقتصر على الدين بل كان متنوعا ويكثر فيه تدريس الآداب[2] . ولا شك فى أن مدارس المعابد كانت اعرق المدارس المصرية وأرقاها جميعا ، لأن المنشآت الدينية كانت أقدم عهداً من سائر المنشآت ، ولأن الكهنة كانوا أكثر الطبقات المصرية علما ، ولأن الديانة كانت تلعب دوراً كبيراً فى حياة المصريين القدماء[3] .

ولا يبعد أن أكثر الصبية كانوا يكتفون بالمرحلة التعليمية الأولى

---

(١) راجع رسالة الدكتور عبد العزيز صالح « التربية والتعليم فى مصر القديمة » وهى رسالة لم تنشر بعد ولكنها محفوظة فى مكتبة جامعة القاهرة .

(2) Dawson, The Age of the Gods, pp. 76 — 7, 112 - 3, 123, 132.

( ) Encyclop Americ., Vide Heliopolis.

ليتكسبوا بعد ذلك قوتهم إما بمزاولة إحدى المهن الحرة او بالأنخراط فى سلك سفار الكتبة الذين كانت دواوين الحكومة تزخر بهم . وتوجد منذ عصر الرعامسة قرائن واضحة على اشتراك إدارات الحكومة فى مرحلة التعليم المتقدمة . ويفهم من النصوص أن الموظف كان لا يعلّم أكثر من شخص واحد فى وقت واحد للنهوض بأعباء وظيفة بعينها ، ومعنى ذلك أنه لم توجد فى إدارات الحكومة مدارس على النحو المفهوم .

ومع ذلك لم يقتصر التعليم فى دور الحكومة على الإعداد المهنى ، فقد كان جزء منه أدبيا . وتشير الدلائل إلى أن الإدارات التى كانت تباشر هذه المرحلة من التعليم كانت إدارات بيت المال وإدارات الجيش . ويبين أن التعليم فى إدارات الجيش لم يكن المقصود منه إعداد كتبة فى هذه الإدارات ، وإنما إعداد ضباط فى الجيش . ويبدو أن الإدارات المتصلة بالمعابد أيضا كانت تقوم بنوع يشابه ما تقوم به إدارات الحكومة .

وإذا كان من الطبيعى أن توجد مدارس المرحلتين الأولى والثانية فى مختلف أنحاء البلاد ، فإن معاهد المرحلة العالية لم توجد إلا فى المراكز الثقافية الكبيرة التى نلاحظ أنها كانت فى الوقت نفسه مراكز دينية مهمة ، وهى هليوبوليس ومنف وهرموبوليس (الأشمونين) وطيبة وسايس ، إذ أن هذه المدن ، التى كانت تقوم فيها معابد عظيمة ، ضربت بسهم وافر فى دراسة الدين والفلسفة والفلك والطب والحساب والعمارة[1] . ومما يؤسف له أن المصادر المصرية التى تتناول مرحلة الثقافة العالية قليلة ولا تشفى الغلة ، لكنه يشهد برقى حياة مصر الفكرية إشادة المصادر الإغريقية بحكمة المصريين القدماء ، ووفود الكثيرين من أبرز الشخصيات الإغريقية للانتهال من مواردها العذبة .

---

(1) Kees, Religionsgesch. Lesebuch, Tübingen, 1928, nr. 21, 70; Sethe, in Murray, Saqqara Mastabas II, p. 111; Wainright in J. E. A. 1940, p. 32.

وتوحى كل القرائن باتصال مراكز الثقافة العالية بالمعابد فى مصر اتصالا وثيقا ، حتى ليخيل إلينا أن مقر تلك المراكز كان إما فى المعابد ذاتها أو فى مدارس ملحقة بها . إذ يتبين من المراجع القديمة أن كهنة مصر كانوا أوسع أهلها علما ، ولا سيما أنه لا يوجد ما يمكن الاستدلال منه على أنه كان للتعليم الدينى فى مصر طابع خاص[1] . ويؤيد ذلك عدم انعزال الكهنة عن الحياة العامة ، بدليل أنه قلما اقتصر نشاط كاهن بارز على أعمال الكهانة وحدها دون الوظائف المدنية فى القصر أو الحكومة . وفضلا عن ذلك فإن معابد مصر كانت تضم مكتبات عامرة ، إذ يبين أن إنشاء مكتبات فى المعابد المصرية كان تقليداً راسخاً ظل محترماً حتى فى العصور المتأخرة .

ونستخلص مما أسلفناه أنه كانت توجد ثلاثة أنواع من دور العلم عند المصريين القدماء وهى مدارس المعابد والمدارس الخاصة وإدارات الحكومة . ولا جدال فى أن إدارات الحكومة استمرت تباشر مهمة الإعداد لتولى المناصب الحكومية ، بل لعل نشاطها إزداد زيادة كبيرة فى بداية عهد البطالمة ، حين كانوا يعيدون تنظيم الأداة الحكومية . ولما كانت اللغة الإغريقية قد أصبحت عندئذ اللغة الرسمية فى البلاد ، وكان مديرو المصالح وكبار الموظفين قد أصبحوا إغريقا ، فلا بد من أن تدريس الإغريقية قد غدا جزءاً من الدراسة فى دور الحكومة . ولما كانت المناصب العليا قد أصبحت وقفا على الإغريق ، فإن تلك الفئة من المصريين التى لم تر بأسا فى الالتحاق بإدارات الحكومة للتدريب على شغل المناصب الصغرى قد فرض عليها تعلم اللغة الإغريقية . ومع ذلك لا يخامرنا الشك فى أن أغلب أولئك الموظفين كانوا لا يتذوقون شيئاً من الآداب الإغريقية ، وفى أن حظهم من الحضارة الإغريقية كان تافها .

وليست لدينا قرائن على استمرار المدارس الأهلية فى مزاولة نشاطها فى عهد

---

(1) Gardiner, J. E. A, XXIV, p. 159 fn 3.

البطالمة ، لكن إذا فرضنا جدلا أنها لم تنقطع عن ذلك فانه إزاء الدلائل على صغرها ورقة حالها نستبعد أن برامجها كانت تتسع لتعليم الإغريقية .

وإذا كان البطالمة لم يكلئوا مدارس المعابد برعايتهم ، وكانت معاهد الثقافة العالية قد فقدت مكانتها القديمة إزاء عظمة معهد الإسكندرية ، فلا شك فى أن المعابد المصرية أو على الأقل أكثرها ثراء احتفظت بمدارسها [١] . وإذا كانت الإغريقية قد اقتحمت طريقها إلى إدارات الحكومة، فإننا نكاد نجزم بأن مدارس المعابد أوصدت دونها أبوابها ، وذلك لأن هذه المدارس كانت المعاقل الحصينة للثقافة المصرية واشتهرت باستمساكها بتقاليدها على مر العصور . ولعل مرد ذلك إلى أن أقطاب هذه الثقافة كانوا رجال الدين وهم بطبيعتهم فئة محافظة كانت تعتبر أفرادها حراسا أوفياء على تراث الماضى . ولذلك لم تتغير تقريبا محتويات مكتبات المعابد فى عصر البطالمة ، بل فى العصر الرومانى عما كانت عليه من قبل [٢] ، ولذلك أيضاً لا شك عندنا فى أن الثقافة المصرية لم تتأثر بوجه عام بالثقافة الإغريقية فى عصر البطالمة .

ومع ذلك تشير القرائن إلى أن فئة من الكهنة النابهين وبقايا الأرستقراطية الدنيوية المصرية قد تعلموا الإغريقية ، ولا يبعد أنهم قد تعلموا ذلك على أيدى مدرسين خصوصيين أو فى المدارس الإغريقية المنتشرة فى مختلف أنحاء البلاد . ولعل ذلك كان أيضاً شأن تلك الفئة القليلة من المصريين الذين أخذوا على عهد البطالمة الأواخر يعملون على صبغ أنفسهم بصبغة إغريقية طمعا فى الفوز بمركز يعادل مركز الإغريق .

ويبدو مما مر بنا أنه لما كانت الغالبية العظمى من المصريين أميين ، وكانت فئة الكهنة النابهين وبقايا الأرستقراطية الدنيوية وفئة الوصوليين قليلة العدد ، وكان

---

(1) Encycl. Brit., ed. 11, vide Heliopolis.

(2) Thompson, Ancient Libraries, Berkley, California, 1940, p. 2.

حفظ صغار الموظفين من الثقافة الإغريقية تافها ، فأننا نستطيع أن ندرك كيف كان تغلغل الثقافة الإغريقية بين المصريين محدودا .

وليس من العسير أن نتصور شقاء المصريين في عصر البطالمة ، إذ أنهم لم يكونوا خاضعين لملوك غرباء فحسب بل كذلك لجنس غريب بأسره تغلغل في جميع نواحي حياة البلاد ، فلم تنج طبقة مصرية واحدة من استبداد البطالمة واستغلال الإغريق . وقد عرفنا كيف اثقل البطالمة كاهل المصريين بالضرائب الفادحة والتكاليف المرهقة ، وكيف وضعوا يدهم على كل موارد البلاد بشكل لم يسبق له مثيل [١] ، وكيف استولى الإغريق على أرفع المناصب وأخصب الضياع واوسعها بل أمتدت ايديهم حتى إلى داخل المنازل ، وكيف قضى البطالمة على الأرستقراطية الأهلية الدنيوية ، وكيف أذلوا الأرستقراطية الدينية والمحاربين . فلا عجب أن نبؤة صانع الفخار (Potter's Prophecy)[٢] تعرب عن كراهية المصريين العميقة للاسكندرية وعدائهم الدفين للاجانب وأملهم في ظهور زعيم وطني يحرر البلاد من مغتصبيها ويعيد العاصمة إلى منف ويتولى حكم مواطنيه .

ولما كان سكان البلاد بوجه عام ينقسمون في القرن الثالث قبل الميلاد طبقتين منفصلتين عن بعضهما تمام الانفصال : طبقة عليا مكونة من الإغريق سادة البلاد الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أهل حضارة رفيعة دونها كافة الحضارات الأخرى ، ويعيشون في أوساط خاصة بهم ويحيون حياتهم التي اعتادوا عليها في بلادهم ؛ وطبقة سفلى من المصريين كانوا عباد هؤلاء السادة الأجانب ويشعرون بأنهم سلبوا كرامتهم كما سلبوا خيرات بلادهم إلا أنهم استمروا يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم ويذكرون مجدهم التالد — فهل من سداد الرأى أن يتصور أحد أنه كان يتيسر حدوث اختلاط اجتماعي كبير بين هاتين الطبقتين ما بقيت هذه الظروف ؟

يرى كثير من المؤرخين أن الإغريق لم يروا غضاضة في الأصهار إلى المصريين ،

(1) Jougue, Mac. Imp., p. 3 33.

(2) Melanges Maspero II, Le Caire, 1939, pp, 119 - 20.

ويفسرون ذلك بإن أغلب الإغريق والمقدونيين كانوا يفدون على مصر للاشتغال بالجندية ومن ثم لا بد من أن عدد الرجال بينهم كان يفوق كثيرا عدد النساء ، وأنه إذا كانت الوثائق البردية تنبئنا بإن الكثير منهم اتخذوا زوجات غير مصريات فإن عدد مثل هؤلاء السيدات كان لا يكفيهم جميعا ولذلك اتخذ كثير منهم زوجات مصريات [1] . إن هذا الرأى لا يقوم إلا على افتراضات لا سند لها ، إذا أن دعامته الاساسية الافتراض أن أكثر هؤلاء الأجانب جاءوا للخدمة العسكرية فى مصر ولذلك لا بد من أن عدد رجالهم كان يفوق عدد نسائهم مما كان يؤدى حتما إلى اتخاذ الكثير منهم زوجات مصريات . لكن لا يمكن القول بأن أغلب الأجانب فى مصر كانوا جنودا ، وإن كان يمكن القول أن رجال الجيش كانوا أكبر فئة من فئات إغريق مصر ، وهناك فارق كبير بين القولين . وفضلا عن ذلك فإن أغلب أولئك الجنود جاءوا لا ليحاربوا حملة واحدة أو عدداً معينا من الحملات ثم يعودوا إلى أوطانهم بل جاءوا ليستقروا فى مصر ، ولذلك ليس لدينا ما يؤيد الزعم بأن عدد الرجال كان أكثر من عدد النساء بين الإغريق والمقدونيين ولا سيما أن الإغريق كانوا يفدون على مصر باستمرار طوال القرن الثالث . ونحن نعتقد أنه ليس من الأسراف فى الرأى القول بأن العسكريين الذين جاءوا ليستقروا فى مصر وأغلب أفراد الفئات الأخرى من المهاجرين ، ولاسيما أولئك الذين استقروا فى المدن الإغريقية قد جاءوا وفى صحبتهم أسرهم ، وأنه كان فى وسع كل هذه الأسر توفير عدد كاف من الزوجات لغير المتزوجين من المهاجرين .

والقائلون بوجود تزاوج بين الإغريق والمصريين يؤيدون وجهة نظرهم بأنه فى تسع وثائق من القرن الثالث [2] قد ورد ذكر أشخاص يحملون أسماء إغريقية لكن لهم ابنا أو ابنة أو أكثر أو أخا أو زوجة أو عمة يحملون أسماء مصرية أو أسماء

(1) Bevan, p. 86.

(4) Wilcken, Chrest. 51; P. S. I. 384; S. B. 7402, 25, S. B. 5680; S. B. 5729; S. B. 2135; P. Lille, 55; P. Demot. Strass. p. 31, 177; P. Demot. Zen. 4.

مصرية وإغريقية . ونحن نعتقد أن اتخاذ أسماء أجنبية لا يستتبع حتما أنه نتيجة زواج مختلط إلا إذا كان مصحوبا بقرائن أخرى، لكنه يدل بالتأكيد على وجود اتصال وثيق مع الأجانب . ولا أدل على ذلك من المواطنين الذين يعيشون بين ظهرانينا وأسماؤهم انجليزية أو فرنسية مع أن والديهم من المصريين الصميميين . ومن المسلم به أنه بعد هجرة اليهود من مصر ظهر بينهم اتجاه نحو استخدام اسماء اجنبية ، وإن هذه الاتجاه إزداد على مر الزمن إلى حد أنه فى العصر الهيلينستى أصبحت الأسماء الإغريقية وحتى أسماء الآلهة الإغريقية شائعة بين اليهود رجالا ونساء .

وإزاء الأعتبارات التى اسلفناها قد يكون من الأوفق تفسير الوثائق المشار إليها على أعتبار أنها قرائن على بداية ذلك الاتجاه الذى اتسع نطاقه فى القرن الثانى باتخاذ كثير من المصريين أسماء إغريقية وكثير من الإغريق أسماء مصرية . ومعنى ذلك أنه فى القرن الثالث قبل الميلاد أخذ بعض المصريين وبعض الإغريق يقتربون إلى بعضهم بعضا . ويبدو أن غالبية الوثائق التسع المشار إليها تكشف عن مصريين اتخذوا أسماء اغريقية ، على حين تكشف وثيقتان فيما يبدو عن اتخاذ إغريق اسماء مصرية . وفى وثيقة واحدة توجد قرائن على حدوث التزاوج إذ نرى فى هذه الوثيقة أن ايرين وثيوكسانا ابنتى ديمتريوس من برقة كانت لهما أم مصرية تدعى ثاسيس ، ودليلنا على ذلك أنه لم يكن للبنتين اسمان مصريان فحسب إلى جانب اسميهما الإغريقيين بل أنهما اهديا معبدا إلى الآلهة المصرية توريس[1] (Thoeris) .

وإذا كان من بين كل وثائق القرن الثالث لم تصلنا إلا وثيقة واحدة يمكن اتخاذها قرينة على حدوث التزاوج ، فإن هذا يؤيد ما نذهب إليه من أنه بسبب الظروف التى كانت سائدة عندئذ لا بد من أن الاختلاط الإجتماعى بين الإغريق والمصريين كان محدودا جدا . ولسنا نقصد طبعا أن التزاوج لم يحدث إلا مرة واحدة ولا أن اتخاذ أسماء أجنبية كان مقصورا على تلك الحالات التى مر بنا ذكرها ، وإنما

(1) Wilcken, Chrest. I, 51.



جزء من زخرفة مقبرة پتوسيريس

نعنى أن التزاوج وقيام صلات اجتماعية وثيقة بين المصريين والإغريق كانا غير مألوفين فى القرن الثالث قبل الميلاد .

وتعتبر المناظر التى زينت بها جدران مقبرة پتوسيريس دليلا على أن المصريين أخذوا عن الإغريق طراز ملابسهم . وهذا الرأى مقبول بشرط ألا نعتبره قاعدة عامة لأن المناظر نفسها ترينا مصريين بملابسهم التقليدية المعتادة . وعلى كل حال فإن أخذ اسماء إغريقية أو ارتداء ملابس إغريقية لا يدل على اتجاه حضارى معين .

ومنذ أواخر القرن الثالث تكاتفت عدة عوامل لتهيأة حدوث تغييرات كبيرة فى الحياة الإجتماعية فى مصر . فقد غدا أرباب الإقطاعات الإغريق فى الواقع بمثابة ملاك لهم مصالح دائمة فى البلاد ، وذلك وسط ظروف قلقة مضطربة وحين لم يعد ميسورا تطعيمهم بدماء جديدة من جراء انقطاع مجىء الإغريق . وفى الوقت نفسه كان البطالمة يسعون حثيثا لكسب عطف المصريين بما أغدقوه عليهم من منح

وفتحوه أمامهم من مجال لتولى المناصب الكبيرة . وإزاء كل ذلك أخذ كثير من الإغريق يتعلمون اللغة المصرية ويظهرون اهتماما جديا بشئون جيرانهم المصريين ويحاولون كسب ثقتهم .

ومن ناحية أخرى رحب كثير من المصريين بهذه التطورات ووجدوا أنه من المجدى عليهم تعلم الإغريقية ، فقد كان ذلك يكسبهم وضع الإغريق بكل ما يستتبعه من الإمتيازات . ويبين أن كل هذه التطورات مهدت لحدوث قدر من التقارب بين الجنسين ، وأن هذا التقارب ساعد على تمصير كثير من الإغريق وأغرقة كثير من المصريين وشجع على التزاوج بين هذه العناصر . ومع ذلك يبدو أن من الخطل المبالغة فى مدى هذا التقارب وآثاره بحيث نتصور زوال الفوارق أو انتشار التزاوج انتشارا واسعا ، اذ يجب ألا ننسى أن المدن الإغريقية كانت لاتعتبره زواجا مشروعا ، وأنه لم يكن أمراً طبيعيا مستساغا اتساع نطاق التزاوج بين عنصرين يختلفان عن بعضهما اختلافا كبيراً ولا سيما أنهما استمرا قرابة قرن ونصف قرن يعيشان منفصلين . وفضلا عن ذلك فإن الشطر الثانى من عصر البطالمة شهد ثورات المصريين ضد البطالمة والإغريق وما ارتكبه الفريقان فى تلك الثورات من فظائع .

ومما يستحق الذكر أنه بالرغم من أن الكثيرين من الأغريق عبدوا آلهة مصرية فإن هؤلاء الأغريق ، مثلهم مثل باقى الأغريق ، لم يتخلوا عن آلهتهم القديمة ، وبالرغم من أن الكثيرين منهم تزوجوا وتعلموا المصرية القديمة واتخذوا اسماء مصرية ، فإنهم احتفظوا كذلك بأسمائهم الإغريقية وثقافتهم الأغريقية مدفوعين إلى ذلك إن لم يكن بدافع الأعتزاز والفخار بأصلهم وحضارتهم فعلى الأقل بدافع الافادة من مكانتهم بوصفهم إغريقا ومايستتبعه ذلك من الامتيازات . وعلى كل حال فإن هـــذه الفئة من الأغريق لم تكن إلا الأقلية بالنسبة للغالبية.

العظمى من الأغريق الذين نميل إلى الاعتقاد انهم بقوا أغريقا خالصين فى كل نواحى حياتهم .

ومع ذلك لما كان الأغريق يعيشون وسط بيئة غريبة عنهم ووسط الاضطرابات العنيفة المترتبة على الثورات القومية والمنازعات الاسرية ، وكان قد انقطع وفود أفواج جديدة من بلاد الأغريق تجدد دماءهم وتنفخ فى صورتهم وتنعش روحهم ؛ فقد كان طبيعيا أن تتدهور روحهم الأغريقية . لكن حظر التزاوج فى المدن الأغريقية واستمرار بقاء دار العلم والمكتبة الكبرى فى الأسكندرية ومختلف أنواع المنتديات الاغريقية فى كل مدن مصر الأغريقية كانا خير ضمان لبقاء هذه الروح أغريقية مهما أصابها من وهن وضعف .

وقد كان طبيعيا كذلك أن يكون لتغير الأحوال أثر أبعد مدى فى أغريق الريف فيصيب روحهم الاغريقية قدر أكبر من الضعف والوهن ، لكن أثر المدن الإغريقية وكذلك أثر المنتديات الإغريقية التى أنشئت حيثما وجد عدد كاف من الإغريق ، وأخيراً الامتيازات الاجتماعية والمالية المترتبة على التمتع بوضع إغريق وثقافة إغريقية كانت خير ضمان لبقاء الروح الإغريقية فى الريف إغريقية مهما حاق بها من ضعف . وقد كان هذا الضعف بطبيعة الحال أشد واقوى مما أصاب روح إغريق المدن .

ويجب ألا يفوتنا أن نؤكد الحقيقة التى كان روستوفتزف أول من لاحظها وهى أن ما أصاب الروح الإغريقية من ضعف وتدهور لم يكن نتيجة لاختلاط الإغريق بالمصريين وإنما نتيجة لما طرأ على الروح الإغريقية من تطور بسبب وجودها فى بيئة غريبة ووسط ظروف لم تألفها من قبل .

أما المصريون فانهم وقد كانت لهم عادات ثابتة تقوم على أسس حضارة وديانة ترجعان إلى أقدم العصور بقوا مصريين خالصين فى مجموعهم . ومع

ذلك فان اتصالهم بالإغريق كان له أثره فيهم ، فقد تزاوج كثير منهم مع الإغريق وتعلم الكثير منهم الإغريقية واتخذوا أسماء وملابس إغريقية . لكن يبين أن تأغرقهم لم يتعدا كثر من هذه المظاهر الخارجية فى أغلب الأحوال . ويلاحظ أن الديانة الإغريقية لم تستهوهم على الإطلاق ، وأنهم عندما تعلموا الإغريقية لم يهملوا المصرية ، وعندما اتخذوا أسماء إغريقية لم يسقطوا الأسماء المصرية . وعلى كل حال إذا كان كثير من المصريين قد اقتبسوا بعض المظاهر الخارجية للحضارة الإغريقية ، فإن هؤلاء المصريين لم يكونوا إلا قلة قليلة بالنسبة لغالبية المصريين الذين بقوا مصريين صميمين . ونحن نعتقد اعتقاداً جازماً أنه طالما احتفظ المصريون بمعتقداتهم الدينية القديمة احتفظوا كذلك بتقاليدهم القديمة وثقافتهم القديمة وكل أساليب حياتهم القديمة .

وينهض طراز الفن البطلمى دليلا قوياً على لون حضارة كل من العنصرين المصرى والإغريقى ، ومدى تأثر أحدهما بالآخر . وبسبب ندرة ماوصل إلينا من التصوير البطلمى ، فإننا سنقصر ملاحظاتنا على فنى العمارة والنحت . إن الغالبية العظمى من بقايا هذين الفنين تشير إلى احتفاظ كل من الفن المصرى والفن الإغريقى بخصائصه القومية طوال عصر البطالمة . هذا وإن كانت الآثار تشير إلى محاولات طفيفة تجاه مزج طرز الفنين ، لكنها كانت محاولات غير ناجحة . ومن ثم كانت البقايا التى تدل عليها قليلة فى عددها متواضعة فى قيمتها الفنية ، بالنسبة إلى بقايا الفن المصرى الخالص ، والفن الإغريقى الخالص . فقد كان كل من الفنين المصرى والإغريقى يختلف عن الآخر كل الاختلاف ، ولذلك كان من العبث مزجهما والفوز بنتيجات خليقة بما عرف عن المصريين والإغريق من الذوق الفنى الرفيع . فلاعجب إذن أنه طالما احتفظ المصريون والإغريق بمستوى ذوقهما الفنى ، احتفظ كل من الفن المصرى والفن الاغريقى بطابعه الخاص ، وكانت محاولات المزج بين الفنين محدودة[1] . لكن عندما تدهور هذا الذوق فى

---

(1) Noshy, The Arts in Ptolemaic Egypt, p. 142.

خلال العصر الرومانى كثرت هذه المحاولات ، وفى الوقت نفسه قلت المبتكرات الفنية الجديرة بهذا الاسم .

إن الإغريق عندما انتقلوا إلى مصر حرصوا على أن يحضروا معهم تقاليدهم وعاداتهم ، واستمسكوا بأساليب حياتهم وحضارتهم التى كانوا يعتبرونها أرقى الحضارات طراً ، ولا سيما أنه قد توافرت لهم فى مدن مصر الاغريقية ، وفى الجاليات الإغريقية المنتشرة بين جنبات الوادى خارج هذه المدن ، كل الأسباب التى تساعدهم على أن يحيوا حياة إغريقية خالصة . وإذا كان كثير من الإغريق قد تأقلموا ، فإن غالبيتهم العظمى بقيت بوجه عام إغريقية .

ومن ناحية أخرى استمرت الكثرة العظمى من المصريين تعيش بوجه عام كما كان أجدادهم يعيشون . فقد استمسكوا هم أيضا بعاداتهم وتقاليدهم ودياناتهم واعتزوا بحضارتهم القديمة المجيدة التى لم يكن قد مضى عندئذ وقت طويل منذ كانت أعظم حضارة فى العالم القديم . بل حتى عهد قريب كان الإغريق أنفسهم يحجون إلى مصر للاعتراف من مناهل تلك الحضارة . وإذا كنا لانزال حتى اليوم نفاخر بحضارة أجدادنا على الرغم من تقادم عهدها ، فإننا لاندهش إذا كان أجدادنا فى عصر البطالمة — أى منذ اثنين وعشرين قرناً تقريباً — يزهون ويفاخرون ويتمسكون بحضارة أجدادهم .

وبعد فإننا نستطيع أن نستخلص مما أوردناه أن قيام حضارتين مجيدتين — كالحضارة المصرية والحضارة الإغريقية جنباً إلى جنب — كان طبيعياً أن يؤدى إلى التقائهما فى بعض النواحى . لكن استمساك كل من أهل هاتين الحضارتين بحضارتهم حال دون اقترابهما وامتزاجهما امتزاجاً كاملا ، بحيث تتغلب إحداهما على الأخرى . حقاً كانت الحضارة الإغريقية أرقى حضارة فى العالم يومئذ ، بل كانت حضارة حكام مصر ، لكن الحضارة المصرية كانت حضارة عريقة ،

وحضارة أمة أثبتت فى كل أدوار تاريخها الطويل قوة حيويتها وشدة استمساً [illegible]
بتقاليدها ، فلم يفلح غازٍ من غزاتها العديدين فى أن يفرض عليها طابعه الخا [illegible]
ويجب ألا يغرب عن البال أنه إذا كان فى وسع أى حاكم قوى أن يدخ [illegible]
دولته مايحلو له من نظم الحكم والقوانين والإصلاحات الإقتصادية ، وأن [illegible]
جنوده مايشاء من فنون الحرب ، وأن يجعل لغة بعينها اللغة الرسمية فى البـ [illegible]
فإن هذا الحاكم مهما توافر له من السلطة المطلقة لايستطيع أن يفرض حـ [illegible]
جديدة على رعاياه ، ولا سيما إذا كانت لهم حضارة قومية عريقة قوامها معتقدات
دينية متغلغلة فى نفوسهم حتى الأعماق .

مطبعة المعرفة
عمارة اليتامين بالفجالة

مطبعة المعرفة
حارة الياسمين بدمشق